الكاتب
الأكثر مبيعًا
على قوائم
نيويورك تايمز

المنزل قبل الظلام

HOME BEFORE DARK

RILEY SAGER
رايلي ساجر

ترجمة: شيرين هناني

الرواق للنشر والتوزيع

المنزل قبل الظلام

رايلي ساجر

ترجمة: شيرين هنائي

الطبعة الأولى: سبتمبر 2024



إلى من يقُصّون حكايات الأشباح...
وإلى مَن يُصدّقهم.



لكل بيت قصة يرويها، وسِر يُذيعه.

وربما يُخفي ورق حائط غرفة العشاء تحته آثار علامات بالقلم الرصاص تُسجل أطوار نمو أطفال عاشوا قبل عقود. وربما تحت كِساء الأرضية الكالح من أثر الشمس، أخشاب وَطِئتها أقدام جنود حرب الاستقلال.

البيوت دائمة التبدُّل. طبقات الطلاء. ألواح الرقائق العازلة. لفافات الأغطية. كل هذا يغطي قصص البيوت وأسرارها، يكتم صوتها حتى يصل مَن يكشفها.

وهذا ما أفعل.

اسمي ماجي هولت، مصممة ديكور، و، بطريقة ما، مؤرخة. أبحث وراء قصص البيوت وأحاول إقناعها بالتجلِّي. أنا فخور بما أفعل. أنا بارعة فيه.

أنصِت.

أتعلَّم.

أستخدم هذه المعارف في تصميم ديكور داخلي على الرغم من أنه حديث، يضج دائمًا بماضي البيت.

لكل بيت حكاية.

وحكايتنا حكاية أشباح.

وكذلك أكذوبة.

وها قد مات شخص آخر بين تلك الحوائط، وآن

أوان الاعتراف بالحقيقة.



قصة حقيقية

بيت الأهوال

إيوان هولت

ماري هيملتون

نيويورك

مقدمة

1 يوليو

- أبي، يجب أن تتحقق من وجود الأشباح.

توقفت أمام مدخل غرفة ابنتي، مرتبكًا كمثل جميع الآباء الذين يقول أبناؤهم شيئًا مربكًا بحق. المفترض أنني اعتدت هذه الأمور بما أن ماجي في الخامسة، لكني لم أعتَد، وبخاصة مع طلب غريب مفاجئ كهذا.

- هل أفعل؟

قالت ماجي في إصرار:

- أجل. لا أريدهم في غرفتي.

حتى تلك اللحظة لم أكن واثقًا حتى بأن ابنتي تعرف ماهية الأشباح، دعك من خشية أن يكون أحدها يسكن غرفتها. بل أكثر من واحد، كما يبدو. لاحظت اختيارها لمفرداتها.

لا أريدهم.

عزوتُ هذا التطوُّر الجديد في سلوكها إلى البيت. كان لنا في منزل «بانبيري هول» أسبوعًا تقريبًا، وهو متسع من الوقت لملاحظة غرابته، لكن ليس كافيًا لاعتيادها. تغير مفاجئ في الحوائط. الضوضاء في الليل. مروحة السقف التي تطلق، عندما تدور بسرعتها القصوى، صوتًا يشبه صوت اصطكاك أسنان.

وماجي، حساسة مثلها كمثل أي فتاة في عمرها، يبدو أنها تعاني مشكلة في التكيف مع كل هذا. في وقت نومها الليلة السابقة سألتني عن موعد عودتنا إلى شقتنا القديمة في برلنجتون، المكونة من غرفتين مظلمتين بائستين. والآن تدعي وجود أشباح، وعليّ مجادلتها في ذلك.

قلت لها مجاريًا:

- أظن لن نخسر شيئًا. أين أبحث أولًا؟

- تحت الفراش.

لا يوجد ما يدعو للمفاجأة. عاشت بداخلي المخاوف نفسها عندما كنت في عمر ماجي، وكنت متأكدًا أن مخلوقًا شنيعًا يتربص بي في الظلام أسفل مكان نومي ببضع بوصات. نزلت على يدي وركبتيّ وألقيت نظرة سريعة إلى ما أسفل الفراش. ما يتربص بالأسفل ليس سوى طبقة غبار وفردة جورب وردية.

قلت معلنًا:

- أمان! الموضع التالي؟

أجابت ماجي:

- صوان الملابس.

كنت قد توقعت ذلك فمشيت نحو صوان غرفة النوم قبل أن تجيب. هذا القسم من المنزل، اسمه «جناح ماجي»، لا يحوي فقط غرفة نومها، بل غرفة لعب مجاورة، يقع في الطابق الثاني، أسفل

إفريز سطح المنزل المائل. بسبب ميل سقف الغرفة، فإن نصف باب الصوان العتيق المصنوع من خشب البَلوط، مائل. يُذكرني بأكواخ قصص الأطفال المصورة، ولهذا قررنا أن يكون المكان مُخصصًا لماجي.

قلت وأنا أجذب حبلِ المصباح المُعلّق داخل الصوان وأفحص ما بين حمالات الملابس المكسوة بالأردية:

- لا شيء داخل الصوان. هل ترغبين في تفتيش مكان آخر؟

أشارت ماجي بسبّابة مرتجفة إلى الخزانة العتيقة الضخمة التي تنتصب كحارسٍ على بعد بضعة أقدام من الخزانة. هي أثرٌ من ماضي المنزل. أثرٌ غريب. ارتفاعها أكثر من ثمانية أقدام. قاعدتها قصيرة العَرض تتسع تدريجيًا إلى أعلى نحو القسم الأوسط قبل أن تتقلص فجأة مرة أخرى في الأعلى. يتوج المقصورة نقوش ملائكة وطيور وغصون لِبلاب تنسدل على الجوانب. ظننتها، مثلها كمِثل الصوان، قد تمنح غرفة ماجي طابعًا قصصيًا. تعيد إلى الذّهن رحلات نارنيا (١).

لكن عندما هممت بفتح بابي الخزانة، شهقت ماجي، محاولة تجهيز نفسها لمواجهة الرعب الذي ظنّته ينتظرها في الداخل.

سألتها:

- هل أنتِ واثقة بأنكِ تريدينني أن أفتحها؟

- لا.

ثم صمتت هُنيهة غيَّرت فيها قرارها فأضافت:

- نعم، افتحها.

جذبت بابي الخزانة فانفتحا على مصراعيهما، كاشفين عن فراغ ليس فيه سوى بضعة أثواب مزخرفة اشترتها زوجتي على أمل أن ترتديها ابنتنا المتشبِّهة بالصِبية، يوماً ما.

قلت:

- فارغة، أرأيتِ؟

نظرت ماجي إلى الخزانة من مكانها على الفراش قبل أن تُطلق زفرة راحة. أضفتُ:

- أنت تعرفين أنه لا وجود للأشباح، أليس كذلك؟

اندسَّت ماجي أكثر تحت الأغطية وهي تقول:

- أنت مخطئ. لقد رأيتها.

نظرتُ إلى ابنتي، محاولًا ألا أبدو مدهوشًا مع أنني كنت كذلك. أعرف أن لابنتي خيالًا خصبًا، لكني لم أظنه بهذه القوّة، التي تمكّنها من رؤية ما ليس موجودًا، والاقتناع بأنه حقيقي.

وهي بالفعل مؤمنة بذلك. أستطيع أن أؤكد هذا من خلال طريقة تحديقها إليّ والدموع تحتشد عند رُكني عينيها الواسعتين. هي مؤمنة بذلك،

وهذا يُرعبها.

جلست على طرف فراشها وقلت:

- الأشباح ليست حقيقية يا ماجي. إن كنتِ لا تصدقينني فاسألي والدتك. ستجيبك الإجابة نفسها.

أصرت ماجي هاتفةً:

- لكنها حقيقية، أراها طوال الوقت. وواحد منها تحدث إليّ. السيد ظِل.

اكتسحت رعدة عمودي الفقري. كررتُ:

- السيد ظِل؟

أومأت لي ماجي إيماءة واحدة مرتعبة. سألتها:

- وماذا قال السيد ظِل؟

- قال..

ابتلعت ماجي ريقها، تحاول كبح دموعها، ثم أردفت:

- قال إننا سوف نموت هنا.

الأوّل

منذ اللحظة التي دخلت فيها المكتب، وأنا أعرف كيف ستسير الأمور. لقد حدث هذا من قبل. أكثر من قدرتي على الإحصاء. ومع أن لكل واقعة اختلافها عن الأخريات، النتيجة واحدة. لا أتوقع شيئًا مختلفًا هذه المرة، وبخاصة عندما تمنحني موظفة الاستقبال ابتسامة عارِفة، وتلمع في عينيها ومضة التقدير. يبدو أنها تعرف جيدًا الكتاب.

- نعمة عائلتي الكُبرى.

- وأحلك لعناتها أيضًا.

أقول لها:

- لي موعد مع أرثر روزِنفيلد. اسمي ماجي هولت.

- بالطبع يا آنسة هولت.

رمقتني موظفة الاستقبال بنظرة فاحصة، مُقارِنة الطفلة التي قرأت عنها في الكتاب، والمرأة أمامها، التي ترتدي حذاءين مغطيين بالخدوش وبنطالا واسعًا ذا جيوب، وقميصًا قطنيًا مغبرا بنشارة الخشب.

- مع السيد روزِنفيلد مكالمة هاتفية الآن. سيكون معكِ في خلال دقيقة.

أشارت موظفة الاستقبال -اسمها ويندي

ديفينبورت، كما هو موجود على البطاقة المعدنية على مكتبها- نحو مقعد جوار الحائط. أجلس وهي بعد تختلس النظرات تجاهي. أظنها تبحث عن الندبة على خدي الأيسر، قطع باهت طوله نحو بوصة. هذا جرح شهير، على عكس الندبات الأخرى.

تقول لي مُقِرةً ما هو معلوم بالفعل:

- قرأت كتابك.

لا أتمالك نفسي من التصحيح لها:

- تقصدين كتاب أبي.

هذا خطأ شائع. رغم تأكيد أبي لمَن افترضوا لنا دورًا في كتابته أنه هو الكاتب الوحيد. ربما باستثناء أمي، أما أنا فلم ألعب أي دور في الكتابة، على أنني كنت ضمن شخصياته المحورية.

تكمِل ويندي:

- أحببته. في الأوقات التي لم أكن مذعورة فيها بسببه بالطبع.

تصمت برهة، فتقلصت أحشائي، وقد تنبأتُ بما هو آتٍ. كما يحدث دائمًا. في كل مرة لعينة.

تميل ويندي إلى الأمام حتى ينضغط صدرها العارِم إلى المكتب وتقول:

- كيف كان الأمر؟ أعني، الحياة في ذاك المنزل؟

وهذا سؤال طُرِحَ كثيرًا كلما ربَط أحدهم بيني وبين الكتّاب. الآن لدي مخزون إجابات جاهزة، وقد عرفت منذ زمن أن شيئًا كهذا ضروري، فأقرِب تلك الإجابات إلى متناول يدي كأنها صندوق أدواتي:

- لا أتذكر حقًّا أي شيء عن هذا الزمن.

ترفع موظفة الاستقبال حاجبًا مُزجّجًا أكثر مما يجب وتهتف:

- ولا أي شيء؟

أجيبها:

- كنت في الخامسة. كم تذكُرين مما حدث لكِ في هذه السِن؟

من خلال خبراتي أعرف أن هذا قد يُنهي خمسين بالمائة من النقاشات. الفضوليون يفهمون التلميح ويتجاوزون الأمر، أما المهتمون فلا يستسلمون بسهولة. ظننت أن ويندي ديفينبورت بخديها الشبيهين بالتفاحة الكاملة، وزيها من علامة «بانانا ريبيليك» التجارية ستكون من النوعية الأولى. لكني كنت مخطئة.

تقول لي:

- لكن ما حدث كان مخيفًا لعائلتك، وأظن أنني لتذكّرتُ بالتأكيد بعض التفاصيل لو أنني مكانك.

في جعبتي عدة مناورات للفرار مما ترمي إليه،

أختار منها حسب مزاجي. إن كنت في حفل وقد شربت بضع كؤوس فشعرت بالاسترخاء وانساب مني الحديث لربما قلت لها: «أتذكر أنني كنت خائفة طوال الوقت دون معرفة السبب.»

أو: « أظن أن الوقائع كانت مروّعة حتى أن عقلي محاها.»

أو عبارتي المفضّلة: «بعض الأمور المرعبة من الصعب تذكّرها.»

لكنني لست في حفل، ولا أشعر باسترخاء ورغبة الحديث تلك التي تأتيني بعد الشرب. أنا في مكتب محام، على وشك تسلّم ممتلكات أبي المتوفى حديثًا. خياري الوحيد أن أكون فظّة.

أقول لويندي:

- لم يحدث أي من هذا. أبي اختلق كل هذه التفاصيل. وعندما أقول كل التفاصيل فأنا أعني كلها. كل ما ذُكِر في الكتاب أكاذيب.

يتحوّل تعبير ويندي من وجه متسع العينين في فضول إلى آخر أكثر غموضًا وحلكة. خيّبت أملها رغم أن المفترض أن تشكرني لصراحتي معها. وهو شيء لم يشعر أبي قط أنه ضروري.

شتان بين روايته عن الحقيقة وروايتي، على أنه هو أيضًا لديه مخزون إجابات لكنه لم يحِد قط عنها مهما كان من يتحدث معه.

قد يقول لويندي ديفينبورت وهو يقطر سحرًا

كساحر أوز: «لقد كذبت في أمور كثيرة في حياتي، لكن ما حدث في منزل بانبري هول ليس منها. كل كلمة في الكتاب حقيقية. أقسم بالرب العظيم على ذلك.»

هذا هو ما يبدأ به أي حديث أمام الجمهور: «منذ خمسة وعشرين عامًا، عاشت أسرتي في منزل يُدعى بانبري هول، يقع خارج قرية بارتيلبي في فيرمونت.

انتقلنا إليه في السادس والعشرين من يونيو.

- فررنا منه في ظُلمة ليل الخامس عشر من يوليو.

عشرون يومًا.

هذا هو الوقت الذي عشناه في ذاك البيت قبل أن يصيبنا الرعب فلم نقدر على البقاء فيه دقيقة أخرى.»

قال أبي للشرطة إن المنزل ليس آمِنًا. يوجد ما يعيب بانبري هول. وقائع لا تُحصى حدثت. وقائع خطرة.

المنزل، كما قال مرارًا، مسكون بروح خبيثة.

- وأقسمنا على ألا نعود إليه.

أبدًا.

لاحظ هذا الاعتراف، المُسجَّل في تقرير الشرطة، مُراسِلٌ صحافي تابع لجريدة محلية أقرب

إلى منشورات، معروفة باسم «بارتلي جازيت»، الخبر التالي في الجريدة ضم كثيرا من مقولات أبي، وشق طريقه إلى جرائد كبرى في مدن أكبر، برلنجتون وإسكس وكولتشيستر، وانتشرت منها كمرض معد، فانتقلت من بلدة إلى بلدة، ومن مدينة إلى مدينة، ومن ولاية إلى أخرى. بعد أسبوعين تقريبا من فرارنا اتصل بنا محرر من نيويورك يعرض علينا نشر حكايتنا في كتاب.

وبما أننا كنا نعيش في غرفة في نزل تفوح بالدخان المكتوم ومعطر الجو برائحة الليمون، قفز أبي سعادة بالعرض. كتب الكتاب في شهر محولا غرفة النزل ذات الحمام الصغير إلى مكتب معد بارتجال. من أبكر ذكرياتي عنه جلسته على المرحاض يضرب أزرار آلة الكتابة الموضوعة فوق منضدة زينة الحمام.

ثم تلا ذلك النشر.

- سرعان ما صار الأكثر مبيعا.

تحول إلى ظاهرة عالمية.

- أكثر الكتب المبنية على أحداث حقيقية غرائبية انتشارا منذ كتاب «رعب في أميتفيل.» (!)

لمدة طويلة صار منزل بانبيري هول أكثر المنازل شهرة في أمريكا. كتبت المجلات عنه. أذاعت برامج الأخبار فقرات مخصصة له. اجتمع

السائحون خارج سور البيت المصنوع من الحديد المطاوع، يشرئبون لرؤية لمحة من سقفه أو لقطة لنور الشمس إذ ينعكس عن نوافذه. بل وصلت أخباره إلى مجلة «ذا نيويوركر»، بعد شهرين من اجتياح الكتاب المكتبات، رسم كريكاتوري يظهر فيها زوجان يقفان خارج منزل معروض للبيع مع سمسار عقارات، وتقول الزوجة: «لقد أحببناه، لكن هل هو مسكون كفاية لضمان نشر كتاب عنه؟»

أما أنا وعائلتي.. فحسنًا، لقد ظهرنا في كل مكان. في مجلة «بيبول» في صورة يقف فيها ثلاثتنا متجهمين أمام المنزل الذي رفضنا دخوله. في جريدة «تايم» ظهر أبي جالسًا وسط ستائر من الظلال التي أضفت عليه طابعًا لئيمًا على نحو مميز. في التلفاز استجوبوا أبويّ -أو استدرجوهما- للمزيد من التفاصيل، حسب المحاور.

يمكن لأي شخص الآن أن يبحث على «يوتيوب» لمشاهدة استجوابنا في برنامج «60 دقيقة». ها نحن، صورة عائلة مثالية. أبي، أشعث لكن وسيم، ذو لحية لن تعود موضتها مرة أخرى قبل عقد. أمي، جميلة لكن تبدو قاسية إلى حد ما، يشي ركبتا فيها المشدودتان بأنها ليست متوائمة تمامًا مع ما يجري. ثم أنا، أرتدي فستانًا أزرق منقوشًا. أنتعل حذاءين جلديين. أزين شعري بطوق وتنسدل غرة تدعو للخزي على جبهتي.

لم أقل الكثير خلال اللقاء. نادرًا ما أومأت أو هززت رأسي أو بدرت مني إشارة تجهل أو انزواء إلى جوار أمي. أعتقد أن كلماتي الوحيدة خلال الفقرة كانت: «كنت مرتعبة.» على أنني لا أتذكر أنني كنت كذلك. لا أتذكر أي شيء عن الأيام العشرين في منزل بانبيري هول. ما أتذكره تطغى عليه تفاصيل الكتاب، ولدي خبرات بدلًا عن الذكريات. الأمر أشبه بأن تنظر إلى صورة لصورة. التأطير غير مضبوط، الألوان باهتة، الصورة مظلمة بعض الشيء».

قاتمة.

هذا أقرب وصف لحياتنا في بانبيري هول.

لا يخفى على أحدٍ تشكيك الكثير في حكاية أبي. بالطبع يوجد من هم مثل ويندي ديفينبورت ممن يظنون أن الكتاب واقعي. يصدقون -أو يريدون تصديق- أن حياتنا في بانبيري هول بالضبط كما وصفها أبي. لكن آلافًا آخرين يظنون، في عناد، أن الحكاية مجرد أكذوبة.

رأيت كل ما ذُكر عنا على الإنترنت وفي موقع ريديت عن كشف أكاذيب الكتاب. قرأت كل نظرياتهم. أغلبهم يفترضون أن والدي أدركا سريعًا أنهما دفعا في البيت أكثر مما يستطيعان تحمله، واحتاجا إلى عذر للخروج منه. آخرون اقترحوا أنهما نصابان اشتريا عن عمد منزلًا حدثت فيها وقائع مأسوية بهدف استغلاله لجلب المال.

أما النظرية الأقل ميلًا للتصديق في رأيي، فهي أنَّ أبويَّ كانا يعرفان أن بين أيديهما منجم مال، وبحثا عن طريقة تزيد قيمة المنزل قبل بيعه مجددا. بعيدًا عن إنفاقهما ثروة في تجديده، قررا منحه شيئًا آخر، سمعة. الأمر ليس بهذه السهولة. المنازل التي يشاع أنها مسكونة تقل قيمتها، إما لأن المشترين سيخافون من العيش فيها، وإما أنهم لن يريدوا التعامل مع سمعتها السيئة المشهورة.

لا أعرف حتى الآن السبب الحقيقي وراء مغادرتنا لجأة بهذه الطريقة. رفض أبواي أن يخبراني. ربما خشيا أن يمكثا هناك حقًا، وخافا على حياتنا، لكني متأكدة أن السبب وراء ذلك ليس أن بانبيري هول مسكون. السبب الأساسي طبعا ليس له علاقة بوجود للأشباح إذ إن الأشباح مجرد خيال.

يؤمن كثير من الناس بوجودهم طبعًا، لكن الناس قد يؤمنون بأي شيء. هم يصدقون أن سانتا كلوز حقيقي. وأننا لم نهبط على سطح القمر. وأن مايكل جاكسن حي وبخير ولا يزال يقامر في لاس فيجاس.

أما أنا فأومن بالعلم الذي يقُر بأننا عندما نموت، نموت. لا تبقى أرواحنا خلفنا، تتجول كقطط ضالة حتى يلاحظها أحد. نحن لا نصير نسخًا ظلية عن أنفسنا. نحن لا نسكن الأماكن كأشباح.

فقداني لذكرياتي عن بانبيري هول بالكامل سبب آخر لاعتقادي بأن الكآب هراء. ويندي ديفينبورت محقة في افتراضها أن أحداثًا بهذه الغرابة قد تترك علامة مظلمة على ذكرياتي. لا بد أنني قد أتذكّر أن قوة خفيّة سحبتني إلى السقف كما زعم الكآب. والمفترض ألا أنسى أن شيئًا ما خنقني حتى خلّف آثار أصابع على عنقي.

من المفترض ألّا أنسى السّيد ظِل.

أنا لا أتذكر من كل هذا سوى شيء واحد.. أن أيًا منه لم يحدث.

مع ذلك تبعني الكآب معظم حياتي. لطالما عشت كفتاة مرتعبة هاربة من منزل مسكون. في المدرسة الابتدائية ظللت منبوذة، يتحاشى الجميع الاقتراب مني مهما تكلَّف الأمر. في المدرسة الثانوية ما زلت منبوذة، إلا أن هذا كان وقتها محببًا بشكل ما، مما جعلني على مضض من أكثر الفتيات شعبية في صفي الدراسي. ثم جاءت فترة الجامعة، حيث ظننت الأوضاع ستتغير، وكأن ابتعادي عن والدي قد ينتشلني من الكآب. بدلًا عن ذلك، عاملوني كأعجوبة. لم أنبذ بالكامل، بل صارت مصادقتي تتطلب الحذر، وإلا فالاكتفاء بمراقبتي من بعيد.

فشلت المواعدات فشلًا لعينًا. أغلب الشباب لم يقتربوا مني حتى. أكثر من تقرّبوا كانوا من محبي

كتاب «منزل الأهوال»، واهتمامهم بالبيت أكبر من اهتمامهم بي. إذا أظهر أحدهم لمحة رغبة في مقابلة والدي، أفهم السبب تماماً.

الآن أعامل أصدقائي أو أحبائي المحتملين وبداخلي ارتياب هائل. بعد ليالي مبيت مع الصديقات لم أفعل فيها سوى اللعب مرغمة بلوح ويجا، وبعد «مواعدات» انتهت بنا في المقابر، وسؤالي عما إذا كنت أرى أشباحاً تحوم فوق القبور، لم يعد لي حيلة سوى الشك في نيات الناس. أغلب أصدقائي ظلوا على مقربة لسنوات، وتظاهروا أن الكتاب غير موجود، وإن انتاب أحدهم الفضول حول الوقت الذي قضته عائلتي في بانبيري هول، لم يكونوا ليسألوني.

بعد كل هذه السنوات، لا تزال سُمعتي تسبقني، على أنني لا أعتبر نفسي مشهورة. بل ذات سمعة مشبوهة. أتلقى رسائل إلكترونية تنعت أبي بالكاذب أو تخبرني أن أصحابها يصلون من أجلي، أو أطالَب فيها بحل مشكلاتهم مع الأشباح حبيسة علية منازلهم. يتواصل معي من وقت لآخر مذيع مدونات صوتية مختصة في الخوارق، أو مقدم برامج أشباح، يطلبون مني الظهور رفقتهم. دعاني ملتقى رعب لحفل تعارف مع ضيف آخر من الناجين من منزل أميتيفيل. اعتذرت. أتمنى أن يكون ناجي أميتيفيل قد أبلى بلاء حسناً.

والآن، ها أنا ذا، أجلس على مقعد جلدي يصدر صوتًا في مكتب «بيكون هِل» القانوني، أحاول الابتعاد عن جلدات ذاتي لي بعد موت والدي. مزاجي الحالي ثلثه شعور شائك تجاه أبي (والشكر لويندي ديفينبورت)، وثلثان من الحزن. خلف المكتب، يجلس أحد محامي الولاية يحصي الطرق التي تكسب منها أبي بطريق غير مباشر من الكتاب. استمرت مبيعات الأخير بشكل معقول ورتيب، مع زيادة سنوية قبيل الهالوين. ظلت هوليوود تتواصل معي بشكل شبه دوري، وفي آخر مرة قالوا لي إن أبي لم يكلف نفسه بإخباري أنه اتفق معهم على تحويل الكتاب إلى مسلسل تليفزيوني.

يقول آرثر روزنفيلد:

- كان أبوكِ يتعامل بذكاء مع أمواله.

استخدامه للزمن الماضي دفع إليَّ دفقة حُزن. تذكير آخر بأن أبي رحل بالفعل وأنه ليس في رحلة طويلة إلى مكان ما. الفقد مراوغ هكذا. يمكنه أن يبقى مستترًا لساعات، بما يكفي حتى تظن أنك تمالكت نفسك بما يشبه السحر. وحين تستقر أمورك، يقفز نحوك كهيكل بيت الأشباح العظمي في الملاهي، وتعود إليكَ كل الآلام التي ظننتها رحلت بلا رجعة. أمس كان الاستماع إلى فرقة أبي الموسيقية المفضلة في المذياع، واليوم يخبرونني، باعتباري المستفيدة الوحيدة من تركة

أبي، أنني سأتلقى مبلغ أربعمئة ألف دولار تقريباً.

المبلغ غير مفاجئ. لقد حادثني أبي في الأمر قبل أسابيع من وفاته. محادثة محرجة هي، لكنها ضرورية، زاد صعوبتها أن أمي اختارت التنازل عن حصتها من أرباح الكتاب بعد الطلاق. رجاها أبي أن تعيد التفكير، وذكّرها أن لها حقّاً في نصف ما يملك. لكن أمي رفضت.

انفجرَت فيه مرة في أثناء شجارهما المتكرر ذات مرّة عن الأمر:

- لا أريد أي شيء يربطني به. لم يكن لي دور منذ البداية.

لذا، آل إليَّ كل شيء. المال. حقوق نشر الكتاب. الخزي. والآن أتساءل مثلما تساءلت أمي، إن كان الأفضل أن أتخلّص من كل هذا.

يقول آرثر روزنفيلد:

- .. ثم موضوع المنزل.

- أي منزل؟ كان لأبي شقّة.

- أعني بانبيري هول بالطبع.

- هل ببانبيري هول مملوك لأبي؟

أجاب المحامي:

- أجل.

- اشتراه مرة أخرى؟ متى؟

وضع آرثر كفيه على مكتبه، وتلامست أصابعه.

- بحسب علمي، هو لم يبعه قَط.

ظللت ساكنة. جمَّدتني الصدمة، بينما أحاول امتصاص كلماته. بانبيري هول، المكان الذي زُعِم أنه أفزع عائلتي حتى لم تجد حلًا سوى الفرار منه، ظل مملوكًا لأبي طوال الخمسة وعشرين عامًا الماضية.

أظنه عجز عن التخلص منه -ربما نظرًا إلى سُمعة المنزل- أو أنه لم يشأ أن يبيعه، مما قد يعني عدة تفسيرات كلها غير معقولة. كل ما أنا متأكدة منه أن أبي لم يخبرني قط أنه يملك المنزل.

أسأل آرثر آملة في أن يكون قد أخطأ:

- هل أنت متأكد؟

- متأكد تمامًا. بانبيري هول مملوك لأبيكِ، ما يعني أنه الآن ملككِ. كله، بشحمه ولحمه كما يقولون. يجب أن أعطيَكِ هذا.

يضع آرثر سلسلة مفاتيح على المكتب، ثم يدفعها نحوي. السلسلة تحوي مفتاحين معلقين إلى حلقة. يردف المحامي:

- واحد يفتح البوابة الأمامية، والآخر مفتاح الباب الرئيس.

أحدق إلى المفتاحين مترددة بشأن أخذهما. لست متأكدة أنني أريد أن أقبل هذا الجزء من نصيبي في التركة. لقد تربيت على الخوف من

بانيري هول لأسباب غير واضحة لي. رغم أنني لا أصدق رواية أبي الرسمية عن الأمر، لا تناسبني ملكية المنزل.

ثم ما ذكره أبي على فراش الموت، عندما اختار طواعيةً ألا يخبرني عن ملكيته لبانيري هول. ما قاله يومها يتردد الآن عبر ذاكرتي، يجعلني أرتعد.

المكان ليس آمنًا. ليس آمنًا لكِ.

عندما قبضت أخيرًا على المفتاحين، شعرت بهما يشعان حرارة في يدي، كأن آرثر كان يحتفظ بهما فوق المدفأة. ألف أصابعي حولهما، تنغرس أسنانهما في كفي.

هنا تضربني موجة حزن أخرى. مشوبة هذه المرة بالسخط وبعض الإنكار.

أبي مات.

حجب عني حقيقة بانيري هول طَوال حياتي.

- الآن البيت ملكي، ما يعني أن أشباحه -سواء حقيقية أو خيالية- مِلك لي هي الأخرى.

20 مايو

الجولة

نعرف ما كُنّا على وشكِ الخوض فيه، وزَعم غير ذلك سيكون كذباً بيّناً. قبل أن نختار شراء بانبيري هول، حكيَت لنا قصته.

تقول سمسارتنا العقارية جيني جُون جونز، وهي امرأة تشبه الطير، ترتدي بدلة سوداء رسمية:

- للعقار ماضٍ مذهل، صدقوني، هُنا تاريخ طويل.

كنّا في سيارة جيني جُون الكاديلاك، التي تقودها بعدوانية من يقودون دبابة. تحت رحمة قيادتها لم يكن أمامنا جميعا -أنا وجيس وماجي- إلا محاولة التماسك والأمل في النجاة.

قلت وأنا أربط حزام مقعدي وأستوثق من متانته:

- ماض جيد أم سيئ؟

- قليل من هذا وذاك. الأرض كانت مملوكة لويليام جارسن، تاجر أخشاب. أكثر مَن في البلدة ثراءً. هو من بنى بانبيري هول في عام 1875.

أطلّت جيس من المقعد الخلفي، حيث جلست معقودة الذراعين حول ابنتنا، وسألت:

- بانبيري هول، اسم غير عادي.

أجابت جيني جُون وهي تُدير المقوِد فتُخرجنا خارج البلدة بطريقة خرقاء، جعلت السيارة تمايل من جهة الشارع إلى الجهة الأخرى:

- أعتقد هذا. أسماه السيد جارسن على اسم نبات. تقول الحكاية إنّه عندما اشترى الأرض، كان جانب التل مغطى بالتوت (٤). يقول أهل البلدة إن التل بدا كأنما مغطى بالدماء.

نظرتُ إلى جيني جُون من مكاني حيث جلست على المقعد الأمامي لأتأكد أنها ترى جيدًا ما أمام السيارة، وسألتها:

- وهل هذا التوت سام؟

- أجل. التوت الأحمر والأبيض.

- إذًا هو ليس مكانًا ملائمًا للأطفال.

قلتها وأنا أتخيل ماجي الفضولية دون تأن المتضورة جوعًا، تدس حفنة توت أحمر في فمها ونحن غير منتبهين.

- قالت جيني جُون:

- أطفال كثيرون عاشوا هناك في سلام عبر السنوات. عائلة جارسن كاملة عاشت في المنزل حتى الكساد العظيم، عندما فقدوا ثروتهم مثلهم كمثل الجميع وقتها. اشترى الضيعة أحد منتجي هوليوود، واستخدمها لقضاء العطلات مع أصدقائه نجوم السينما. أقام كلارك جيبل هناك. وكذا كارول لومبارد.

انحرفت جيني جُون بالسيارة عن الشارع الرئيس نحو طريق غير معبد مليء بالحصى، يفصل بين كوخين عند حدود غابات فيرمونت. كوخان مساحتهما صغيرة ومرتّبان، كلاهما متشابه في الحجم والشكل. للكوخ عن اليسار سقف مائل أصفر ومصاريع نوافذ حمراء وستائر زرقاء فوق النوافذ، أما الذي عن اليمين فبني اللون تظهر أخشابه عارية مما يجعله مموهاً مع خلفية الغابة.

أخبرتنا جيني جُون:

- هذان أيضاً بناهما السيد جارسن. قام بذلك بعد عام من بناء المنزل الأساسي. واحد منهما مخصص لمدبرة منزل بانبيري هول، والآخر للحارس. والوضع على ما هو عليه اليوم، رغم أن كليهما لا يعمل حصرياً في المكان. لكن يمكن الاعتماد عليهما إذا احتجت إليهما، هذا طبعاً إن أعجبك المنزل واقتنيته.

قادتنا إلى عُمق غابة من أشجار الصنوبر والقيقَب والبلوط الضخم، حتى وصلنا إلى بوابة من الحديد المطاوع تسد الطريق أمامنا. عند مرآها ضغطت جيني جون المكابح. تمايلت الكاديلاك كما لو أنها ذيل سمكة حتى توقفت. هتفت جيني جون:

- ها قد وصلنا.

البوابة ترتفع أمامنا، شاهقة مهيبة. يُحيطها عن الجانبين سور حجري بارتفاع عشرة أقدام، يمتد

إلى عمق الغابة في كلا الاتجاهين. فحصت جيس كل هذا من مكانها على المقعد الخلفي باكتراث جاهدت أن تخفيه. قالت:

- هذا أكثر مما يجب، ألا تظنون مثلما أظن؟ هل يحيط السور بالمكان بالكامل؟

أجابت جيني جُون:

- أجل. ثقي بي، ستشعرين بالعرفان لوجوده لاحقًا.

- لماذا؟

تجاهلت جيني جُون السؤال، واختارت بدلًا عن الإجابة اصطياد شيء ما في حقيبتها، حتى وجدت في النهاية سلسلة المفاتيح. التفتت إلي وقالت:

- هل تمانع في مساعدة سيدة مُسنة يا سيد هولت؟

ترجلنا معًا وفتحنا البوابة. تولَّتِ جيني جُون أمر القفل، بينما جذبت القضبان لتُفتح البوابة بأنين عالٍ صدئ. سرعان ما عدنا إلى السيارة مرة أخرى، نعبر المدخل قاطعين ممرًا طويلًا متعرجًا كفتاحة زجاجات الخمر، نصعد التل شديد الانحدار على نحو غير متوقع. ونحن نميل مع ذلك الطريق الملتوي أكثر رأيت عبر الأشجار لمحات من مبنى. نافذة عالية هنا. جزء من سقف مائل مزخرف هنا.

بانبيري هول.

قالت جيني جُون:

- بعدما جاء نجوم السينما ورحلوا، تحوَّل المكان إلى نُزل للمبيت والإفطار. بعدما باء المشروع بالفشل بعد ثلاثة عقود، انتقلت ملكيته عدة مرات. آخر مُلّاك المكان عاشوا فيه أقل من عام.

سألت:

- لماذا كانت فترة إقامتهم بهذا القصر؟

مرة أخرى، بقي السؤال مُتجاهلًا. لضغطتُ جيني جون لتجيب، لولا أننا اعتلينا قمة التل ورأيت لأول مرة منزل بانبيري هول كاملًا.

ثلاثة طوابق طويلة، أحدثت طلته ثقلًا في النفس، بدا مهيبًا ضخمًا مُقبضًا، يستقر أعلى قمة التل. بنيته جميلة. حوائط مبنية بالحجر الفاخر. من طراز المنازل التي تجعل المرء يشهق لرؤيته، وهو ما فعلت وأنا أنظر عبر واجهة سيارة جيني جون الأمامية الملوثة ببقايا الحشرات الميتة.

هو منزلٌ أكبر مما ينبغي. أكبر بكثير مما نحتاج أو نستطيع شراؤه في الظروف العادية. لقد قضيت آخر عشر سنوات أعمل في المجلات. في البداية عملت عملًا حرا عندما كان الأجر مجزيًا، ثم أسهمتُ في جريدة سرعان ما توقف إصدارها بعد تسعة عشر عددا، ما أجبرني على العودة إلى العمل الحُر في وقت كان الأجر فيه متدنيا. مع مرور

كل يوم تكبر ماجي أكثر، وتبدو شقتنا أصغر. تعاملت مع الأمر أنا وجيس بالشجار. بسبب المال، أغلب الوقت.

والمستقبل.

وأينا ينقل لابنتنا خصاله السيئة أكثر.

كنا نحتاج إلى مُتسع. كنا نحتاج إلى تغيير.

جاء التغيير بأقصى عنفوانه، متمثلًا في حدثين صادمين خلال أسابيع قليلة. أولًا توفي جد جيسي، وهو مصرفي من الطراز القديم الذي يدخن السيجار في مكتبه، وينادي سكرتيرته «يا حلوة»، وترك لزوجتي 250000 دولار. بعدها حصلت جيس على وظيفة مدرسة في مدرسة خاصة خارج بارتلي.

هدفت خطتنا إلى استغلال المال الذي ورثته عن جدها لشراء منزل. تستطيع وقتها الذهاب إلى عملها، وأمكث أنا في البيت أعتني بماجي، وأركز أكثر في كتاباتي. سأستمر في العمل عملا حرا بالتأكيد، لكني سأعود إلى كتابة القصص القصيرة أيضا، على أمل أن أعمل يوما على كتابة روايتي الأمريكية الأعظم.

منزل بانبيري هول ليس كما تخيلنا بالضبط. اتفقت أنا وجيس على البحث عن بيت لطيف في حدود مقدرتنا المالية. منزل سهل الاعتناء به. مكان يمكننا السكن فيه حتى نهاية عمرينا.

عندما اقترحت جيني جُون منزل بانيبري هول، رفضت الفكرة، ثم أخبرتنا بالثمن المطلوب وهو أقل من نصف أسعار المنازل المماثلة. سألتها:

- ما سبب هذا السعر المنخفض؟

- هو بيت مهجور، لكن بالطبع لا يوجد فيه مشكلات كبرى. المنزل يحتاج فقط إلى بعض الحب والعناية.

بدا لي بانيبري هول بشكل خاص بعيدًا عن كونه بيتًا مهجورًا، وأقرب لكونه ضحية إهمال. المنزل نفسه في حالة جيدة رغم غرابة بنائه. كل طابق أصغر بقليل من سابقه، مما يعطي المبنى مظهر كعكة الزفاف الفاخرة متعددة الطوابق. نوافذ الطابق الأول عالية ضيقة، ذات حافة علوية على شكل نصف دائرة. بسبب طبيعة الطابق الثاني الغائرة، تبدو نوافذه أقصر، لكنها لا تقل فخامة عن نوافذ الطابق السفلي. الطابق الثالث سقفه منحدر حاد، نوافذه صغيرة كأنهما عينان ينظران إلينا من أعلى.

ثلثا المنزل مبني بشكل صارم حاد، على هيئة شبكة بحوائط مستقيمة وحواف حادة. أما الثلث الآخر فمختلف كلية، وكأنما سأم منه المعماري في منتصف بنائه. هذا الجزء من بانيبري هول منبعج إلى الخارج، أسطواني الشكل بدلا عن البناء الهندسي الصارم للطابقين الآخرين، وكأنه فنار قصير نقل من ساحل مين ليرفق بالمنزل. نوافذه

مربعة مُرتبة على مسافات غير متساوية. يعلو الطابق سقف مدبب يشبه قبعة الساحرات.

أستطيع الشعور بهمّ المنزل. يبدو الصمت ككفن يلف المكان، معطيًا إياه سمت المنزل الذي هجر بغتة. النبذ يتعلق بالحوائط كاللبلاب.

سألت جيس وهي تميل إلى ما بين المقعدين الأماميين لتتبين المنزل بشكل أفضل:

- لماذا قلت أننا سنشعر بالعرفان لوجود البوابة؟ هل معدل الجرائم عالٍ هنا؟

أجابت جيني جون:

- لا إطلاقًا. يزور الفضوليون المنزل كثيرًا، هذا كل ما في الأمر.

بدت غير مُقنعة. أردفَت:

- تاريخ المنزل يجذبهم كالذباب. لا خطر من أهل البلدة. لقد اعتادوا المكان. المشكلة فيمن هم من خارجها، وبخاصة المراهقون. معروف أنهم يقفزون من فوق السور من آن لآخر.

سألت جيس:

- ليفعلوا ماذا؟

- ما يفعله الصغار. يشربون بعض علب الجعة في الغابة. ربما لشيء من الخلاعة. لا يمارسون شيئًا إجراميًا ولا شيئًا نقلق بصدده. أقسم لك. والآن، لندخل. أضمن لكم أن يعجبكم ما سترونه.

اجتمعنا في الشرفة الأمامية. بينما تنزع جيني جون القفل المدلّى من مقبض الباب، تأخذ شهيقًا عميقًا، كتفاها المغطاتان ببطانة الكتفين تعلوان وتهبطان. قبل أن تفتح الباب ترسِم الصليب على جسدها.

تبعناها إلى داخل المنزل. تعمَّقتُ داخل المكان، فشقّتني رعدة هواء كأننا نعبر من منطقة مناخية إلى أخرى، لكني وقتها فسَّرت الأمر بتيار بارد، وهو أمر من تلك الأمور الغريبة غير القابلة للتفسير التي تحدث في المنازل العتيقة.

لم تستمر الرعدة طويلًا، شعرت بها لبضع خطوات فقط ونحن نمر من المدخل المرتَّب إلى غرفة شاسعة تمتد من واجهة المنزل إلى آخره. السقف الذي يرتفع إلى عشرين قدمًا على الأقل مدعوم بأعمدة خشبية عارية، ذكَّرتني بقاعات استقبال الفنادق القديمة. ثمة درج ضخم ملتوٍ يقود إلى الطابق الثاني.

فوقنا ثُريًا نحاسية هائلة مُدلاة من السقف، أذرعها مثنية كأذرع الأخطبوط، تتدلى منها قطع الكريستال. في نهاية كل ذراع كُرة من الزجاج المدخن. لاحظتُ ونحن نقف أسفلها أنها تتأرجح بحركة تكاد لا تُلاحظ، كأن أحدهم يضرب الأرض بقدمه في الطابق العلوي. سألت:

- هل أحد غيرنا في المنزل؟

أجابت جيني جُون:

- بالطبع لا. لماذا تظن ذلك؟

أشرت إلى الثُريا المزخرفة، التي لا تزال تتأرجح بخفة فوق رؤوسنا.

هزّت جيني جُون كتفيها مُجيبة:

- على الأغلب تيار هواء تسبب في هذا عندما فتحنا الباب الأمامي.

وضعتْ يديها على ظهري وظهر چيس، وقادتنا إلى عمق الغرفة الشاسعة. يحتل الحائط عن اليمين مدفأة حجرية هائلة، وهي نعمة في شتاء فيرمونت القاسي.

قالت جيني جُون:

- توجد واحدة مماثلة على الجهة الأخرى من الحائط، في غرفة إنديجو.

شغلتُ أكثر باللوحة فوق المدفأة. صورة رجل من مطلع القرن، ملامحه حادة، أنفه رفيع مستقيم، عظمتا خديه حادتان كنصل سكين، عيناه داكنتان تُطلان علينا من تحت جفنين ناعسين، وحاجبان في مثل بياض لحية الرجل وشعرها.

قالت جيني جُون:

- هذا هو ويليام جارسن. الرجل الذي بنى هذا المكان.

حدقت إلى اللوحة، مدهوشًا لقدرة الرسام على نقل شخصية السيد جارسن بهذه الدقة. لاحظت تجاعيد بسيطة حول عينيه، وشعيرات حاجبيه، والتواء جانبي فمه البسيط إلى الأعلى. بدلًا عن سمات التبجيل، أظهرت اللوحة غطرسته واحتقاره. وكأن السيد جارسن كان يسخر من الفنان وهو يقف أمامه، مما جعله يبدو كأنما يسخر مني أنا.

وقفت ماجي، التي كانت تمسك بكفي طَوال الجولة، على أطراف أصابعها، تحاول أن ترى اللوحة بشكل أوضح. همست لي:

- كم هو مخيف.

لا مفر من موافقتها. يبدو أنَّ السيد ويليام جارسن -بريشة رسامه على الأقل- قسوته باطشة.

وقفت جيس جوارنا تتفحص اللوحة وهي تحك ذقنها بكفها.

- لو اشترينا المنزل، فسأتخلص من هذه اللوحة.

قالت جيني جُون وهي تمد ذراعها تطرق زوايا إطار اللوحة، وهو المكان الوحيد الذي استطاعت الوصول إليه:

- لست واثقة بأن هذا ممكن. اللوحة مرسومة مباشرة على الحجر.

نظرت نظرة متفحصة لأجد أنها مُحقة. ثم أن جزءًا مستطيلًا من المدفأة مبني بالطوب بدلًا عن

الحبر، مما وفّر للرسّام سطحًا أكثر نعومة للرسم.

قلت:

- إذًا هي تعتبر حرفيًا جدارية.

أومأت جيني جُون وقالت:

- والإطار أعطاها مظهر اللوحة لا أكثر.

- لماذا قد يفعل شخص هذا؟

- أخمّن أن السيد جارسن أراد دائمًا أن يبقى جزءًا من بانبيري هول. لقد كان رجلًا استحواذيًا بكل المقاييس. أعتقد أنه في إمكانك إزالة اللوحة، لكن التكاليف باهظة.

سألت جيس:

- هل تعتقدين أن هذا مسموح؟ بالتأكيد منزل عتيق كهذا ذو أهمية لدى البلدة، وربما صنّفوه مزارا تاريخيًا.

قالت جيني جُون:

- ثقي بي. لا يريد مجتمع المؤرخين هنا شيئًا ذا صلة بهذا المكان.

سألتها:

- لماذا؟

- عليكَ أن تسألهم.

أفضتْ الغرفة الكُبرى إلى غرفة طعام عند آخر المنزل. الغرفة تناسب عائلة أكبر بكثير من ثلاثتنا. للمطبخ درجات بين الغرفة الكبرى وغرفة

الطعام، طول المطبخ أكبر من عرضه، يمتد على مساحة مستوى ثانوي سفلي، موازٍ للطابق الأرضي لبانبيري هول. لم يبدُ كمنزل منفصل ولا حتى قبو. مظهره يعكس حالة طي النسيان العامة. قرب الدرج خزانات عالية، خلفها حوائط خضراء، وحوض غسيل من الطراز الريفي الذي يتسع لماجي كي تستحم فيه.

على الحائط مجموعة أجراس مثبتة إلى أسلاك معدنية. عددت منها أربعًا وعشرين، مصطفين في صفين. كل واحد به اثنا عشر واحدًا. فوق كل منها بطاقة تشير إلى مكان مختلف من المنزل. بعض البطاقات ليس عليها سوى أرقام، على الأرجح استخدمت حين كان بانبيري هول نزلا للمبيت والإفطار، وبعض البطاقات تحمل كلمات محددة. الردهة، الجناح الرئيس. غرفة إنديجو.

قالت لنا جيني جون:

- ربما لم تدق هذه الأجراس منذ عقود.

كلما تعمقنا في المطبخ، لاحظتُ تغير مظهره، فيصبح أكثر ظلمة وعملية. في ركن طاولة جزارة، سطحها مشقق بفعل السكاكين، وملطخ بآثار منذ زمن بعيد. انتهى صف الخزانات، مفسحا المكان لحوائط عارية. بوصولنا إلى آخر المتسع أمامنا، اختفت الأدوات وأثاث المطبخ، وحل محلها قنطرة حجرية، ودرجات متهالكة تقود إلى الأسفل أكثر. قالت جيس:

- يشبه الكهف.

فسّرت جيني جُون:

- نظريًا، هذا قبو، لكن رغم قدمه، يمكنكم تحويله إلى مكان مفيد. سيكون مثاليًا كمخزن خمور.

قالت جيس:

- أنا لا أشرب.

أضفتُ:

- وأنا أشرب الجعة فقط.

اتسعت ابتسامة جيني جُون وقالت:

- تكثر الأفكار لاستخدامه بخلاف ذلك.

يأسها المَرِح هذا أنبأني أن هذه ليست الجولة الأولى التي قامت بها في بانيبري هول بغرض بيعه. تخيلت أزواجًا شبابًا مثلي وجيس، يصلون حاملين توقعات كبرى انكمشت تدريجيا مع كل غرفة يرونها.

كنت على النقيض. كل غرابة يكشفها لي المنزل تثير اهتمامي أكثر. لطالما انجذبت إلى الغموض. في سن السادسة سمح لي والداي أخيرًا باقتناء كلب. لم أكترث لكل الكلاب نقية السلالة ناعمة الشعر في المتجر، واتجهت رأسًا إلى كلب هجين عبوس. بعدما استقررتِ في شقة مجهولة تكاد تكون غير مرئية، تقت إلى شيء،

مختلف، مسكن ذي شخصية أوضح.

بعد انتهاء جولة المطبخ، عدنا أدراجنا إلى أعلى، ثم إلى مقدمة المنزل حيث أضيئت الثريا في الغرفة الكبيرة. سألت:

- أليس الوقت مبكرًا؟

ظهرت ابتسامة عصبية على وجه جيني جُون وهي تقول:

- أعتقد هذا.

قلت:

- هل كهرباء المنزل بها مشكلة؟

- لا أعتقد هذا، لكني سأتأكد.

ألقت جيني جُون نظرة قلقة أخرى تجاه الثريا، ثم قادتنا سريعًا إلى غرفة عن يمين المدخل مباشرةً.

قالت ونحن ندخل الغرفة الدائرية:

- هذه هي قاعة الاستقبال.

المكان مزدحم -حرفيًا ومجازًا- إلى حد خانق. ورق حائط بلون زهري باهت يكسو الحوائط، وملاءات متربة تغطي الأثاث. سقطت إحداها كاشفة عن مكتب من خشب التوت. هرعت جيس، التي كان أبوها يعمل في تجارة الأثاث القديم، نحوه هاتفة:

- لا بُد أن عمر هذا مئة عام على الأقل.

قالت جيني جُون:

- غالبًا أكبر سنًا. كثير من قطع الأثاث هنا كانت مملوكة لآل جارسن، وظلت في المنزل عبر السنوات. أرى التوقيت ملائمًا الآن لأخبركم أن بانبيري هول معروض للبيع كما هو. هذا يشمل كل أثاثه. يمكنكم الاحتفاظ بما يعجبكم والتخلص من الباقي.

مررت جيس يدها على المكتب في شرود وقالت:

- لا يريد البائع *أيًا* من هذا؟

أجابت جيني جون بهزة رأس حزينة:

- ولا أي شيء. لا أستطيع أن أقول إنني ألومها.

ثم انتقلت بنا إلى ما تسميه «غرفة إنديجو(١)» المطلية بالأخضر. قالت:

- مفاجأة. أعرف هذا. ربما كان لون الحوائط نيليًا في وقت ما. في الواقع، الغرفة مسماة على اسم ابنة ويليام جارسن، لا على اسم اللون.

أشارت جيني جُون إلى المدفأة المماثلة لتلك في الغرفة الكبرى. فوقها مرسوم على مستطيل من الطوب الناعم صورة شابة ترتدي فستانًا بنفسجيا مزينا بالدانتيل، تضع على فخذيها أرنب أبيض تحيطه بكفيها المقفزين.

- إنديجو جارسن.

واضح أن اللوحة بريشة الفنان نفسه الذي رسم صورة ويليام جارسن. الاثنان من الاتجاه الفني ذاته، بضربات الفرشاة الرقيقة والانتباه المفرط إلى التفاصيل. لكن بينما بدا السيد جارسن قاسياً ساخراً في لوحته، بدت ابنته في لوحتها مثالاً للطف والشباب ببشرتها المضيئة ومنحنيات جسدها. كانت مشعة حتى أن هالة مرئية خفيفة أحاطت شعرها المموج الذهبي. لم أدهش لو عرفت أن الرسام -أياً كان- وقع في حب إنديجو وهو يرسمها.

أردفت جيني جون:

- كانت عائلة جارسن كبيرة، ويليام وزوجته وأربع أبناء كونوا عائلات كبيرة بدورهم لاحقاً. إنديجو كانت الابنة الوحيدة، وتوفيت في عمر السادسة عشر.

اقتربت خطوة أخرى من اللوحة، ودققت في الأرنب بين يدي إنديجو جارسن. اللوحة مشققة قليلاً، وثمة قطعة طلاء مفقودة فوق عين الأرنب اليسرى، ما جعلها تبدو كمحجر عين خالٍ.

سألتها:

- كيف ماتت؟

أجابت جيني جون:

- لا أعرف حقاً.

طريقة ردها دفعتني للظن أنها تعرف.

عبرت جيس الغرفة وقد فقدت اهتمامها بلوحة أخرى لن نستطيع إزالتها، فقد جذبت انتباهها صورة مؤطرة تطل من أسفل ملاءة. أزالت الغطاء لتكشف عن صورة عائلة تقف أمام بانيري هول. مثلنا، كانوا ثلاثة، الأب والأم والابنة.

بدت الفتاة في السادسة، وهي صورة أمها طبق الأصل. ساعد في إبراز التشابه تصفيفة شعرهما المماثلة -شعر مسترسل إلى الخلف، مضموم بربطة شعرٍ من الأمام- وفستانيهما الأبيضين. وقفتا جنباً إلى جنب، تمسك الواحدة بكف الأخرى، تنظران إلى الكاميرا بوجه صبوح.

أبقى الأب على المسافة بينهما وكأنه أُمِر ألا يقف جوارهما. يرتدي بدلة مجعّدة مقاسها أكبر من جسده، ووجهه متجهم.

لو نحّينا تعبير الوجه العابس جانباً، فملامحه ظلت وسيمة بلا شك، في وسامةِ نجوم السينما، مما جعلني أظن لأول وهلة أن مَن في الصورة زوار لبانيري هول في أيام استضافته لممثلي هوليوود، ثم لاحظت حداثة ملابسهم التي يمكن أن تراها في أي متجر من متاجر الملابس في أمريكا. الشيء الوحيد غير المواكب للحداثة فيهم نظارة المرأة ذات الإطار المستدير، مما جعلها تشبه بِن فرانكلين إلى حد ما.

سألَت جيس:

- مَن هؤلاء؟

ضيَّقت جيني جُون عينيها ونظرت إلى الصورة وهي تحاول مرة أخرى التظاهر بأنها لا تعرف، بينما معرفتها واضحة جلية. بعد بضع ثوان أخرى من التحديق إلى الصورة قالت:

- أعتقد أن هؤلاء هم المُلّاك السابقون. آل كارفر.

أومأت تجاه الصورة برأسها إشارة أمر لجيس أن تعيد الصورة إلى حيث وجدتها. تابعنا مسيرنا، تسارعت جولتنا، ما جعلني أعتقد أن جيني جون لا تريد منا مزيدًا من الأسئلة. عرض علينا سريعًا غرفة الموسيقى المزودة ببيانو كبير ذي قوائم غير مستقرة، وصوبة زجاجية تناثرت فيها نباتات في مراحل تحلل مختلفة.

قالت جيني جُون في انتعاش:

- أتمنى أن يكون لأحدكم يد خضراء مُحبة للزراعة.

أخذتنا إلى الأعلى عبر سلَّم الخدَم بين غرفة الطعام والصوبة. الطابق الثاني مقسم إلى عدة غرَف واسعة وحمام واسع عند نهاية الممر.

دخلت جيس، التي افتقدت المساحة الواسعة طَوال أعوام سكنتنا في شقتنا في برلنجتون، إلى الجناح الرئيس الذي يشغل منحنى برج الطابق الثاني بالكامل، ويحوي غرفة جلوس وحماما

مُرفقًا.

أخذتُ أنا بمكان آخر عند نهاية الممر. غرفة النوم ذات سقف مائل وخزانة عالية التي بدت مناسبة للغاية لماجي. أظن أن السرير الذي تعلوه ظُلّة ما جعلني أفكر في ذلك. يبدو أنه الحجم المناسب لفتاة في سنها.

قالت جيني جون:

- هذه الخزانة فريدة من نوعها. طلب ويليام جارسن صنعها خصيصا هدية لابنته. هذه غرفتها.

فحصتها جيس بعين خبيرة ورثتها عن أبيها، وقالت وهي تمرر يدها على نقوش اللبلاب والملائكة المحيطة بالخزانة:

- كل هذه الزخارف منحوتة يدويًا؟

أجابت جيني جُون:

- بالطبع. نادرة جدًا وعلى الأرجح، قيمتها نفيسة.

وقفت ماجي عند عتبة الباب تنظر إلى الداخل. قلت لها:

- يمكن أن تكون هذه غرفتك يا ماجز. ما رأيك؟

هزّت ماجي رأسها وقالت:

- لا تعجبني.

- لماذا؟

- باردة.

رفعت يدي محاولًا تبيُّن البرودة. بدت درجة حرارة الغرفة طبيعية في رأيي، بل هي أقرب إلى الدفء. قلت:

- أنا واثق بأنك ستحبينها مع الوقت.

أخذتنا جيني جُون تاليًا إلى الطابق الثالث، وهو في نصف مساحة سابقه. على خلاف توقعنا عن كونه علية، رأينا فيه إذ دخلنا مكتبًا مفتوحًا جيد التهوية، وأرففٍ كتب تغطي حائطين. ثمة نافذتان مستديرتان تطلان على مقدمة الضيعة ونهايتها، وأدركت أنهما النافذتان الصغيرتان اللتان شاهدتهما عندما وصلنا. النافذتين اللتان تشبهان عينين.

قالت جيني جُون:

- كان هذا أساسًا مكتب ويليام جارسن المنزلي.

يمكنه الآن أن يكون مكتبي المنزلي. تخيلت نفسي خلف المكتب العظيم من خشب البلوط في منتصف الغرفة. أحببت فكرة لعب دور الكاتب المُعذب، أضرب على حروف آلة الكتابة في ساعات الليل الأولى، مزود بوقود من القهوة والإلهام والإجهاد النفسي. التفكير في الأمر جعل ابتسامة صغيرة تتسلل إلى وجهي. كبحتها

خشية أن تلحظها جيني جُون وتظن أنها ضمنت البيع. أخشى أن أكون قد أبديت حماسًا أكثر من اللازم بالفعل لذا أسرعت جيني جُون من وتيرة جولتنا في المنزل.

صعب التكهُّن بمشاعر زوجتي، وليس لدي فكرة عن رأي جيس في المكان. طَوال الجولة بدت فضولية حذرة.

همست لي جيس ونحن في طريقنا هبوطًا إلى الطابق الثاني:

- ليس سيئًا.

قلت:

- ليس سيئًا؟ بل مثاليًا.

قالت جيس بطبيعتها الحذرة:

- أعترف أن فيه الكثير مما يثير الإعجاب. لكنه قديم وشاسع.

- لا أهتم كثيرًا بخصوص الحجم أكثر ما يشغلني السعر.

- هل تظن أن سعره مبالغ فيه؟

- بل أقل من الطبيعي. منزل كهذا بسعر بخس؟ لا بد من سبب ليثمن بهذا الشكل، بالإضافة إلى أثاثه.

بكل تأكيد يوجد سبب، لم نعرفه قط حتى انتهت الجولة وقادتنا جيني جون للعودة إلى

الشُرفة.

سألت:

- هل لديكم أي أسئلة؟

- هل بالمنزل خطب ما؟

نطقتُ ما قلت دون مقدمة، تارِكًا جيني جُون للصدمة وهي تغلق الباب خلفنا. شدّ كتفيها وهي تسألنا:

- ما الذي دفعك للتفكير في أن ثمة خطبًا به؟

- لا يوجد منزل بهذا الاتساع بثمن كهذا إلا إن كان فيه مشكلات كُبرى.

- مشكلات؟ لا. سمعته؟ هذه قصة أخرى.

زفرت جيني جُون وهي تستند إلى سور الشرفة الأمامية وأردفت:

- سأكون واضحة معكما، على الرغم من أن قانون الولاية لا يجبرني على قول أي شيء. دعونا نواجه الأمر، أنا أخبركما لأن بارتلي بلدة صغيرة والناس يثرثرون. ستسمع عن الأمر بطريقة أو بأخرى لو اشتريت هذا المنزل. الأفضل أن أخبرك أنا أن هذا المنزل من النوع الذي نطلق عليه مصطلح ملكيَّة موصومة.

سألت جيس:

- ما الذي يعنيه هذا؟

أجبتُ:

- أن شيئًا سيئًا حدث هنا.

أومأت جيني جُون ببطء وقالت:

- أجل. المالك السابق.

تساءلت جيس:

- العائلة في الصورة؟ ماذا حدث لهم؟

- ماتوا. اثنان منهم.

- في المنزل؟

أجابت جيني جُون:

- أجل.

طلبتُ من ماجي أن تلعب في الباحة الأمامية أمام أعيننا لكن بعيدًا عن مرمى سمعها، ثم سألت:

- كيف؟

- جريمة قتل وانتحار.

غمغمت جيس بوجه ممتقع:

- يا إلهي الرحيم. هذا شنيع.

أدى هذا إلى إيماءة أخرى من جيني جُون التي قالت:

- كان الأمر شنيعًا بالفعل يا سيدة هولت، وصادمًا أيضًا. كُرتس كارفر، الرجل في الصورة التي عثرت عليها، قتل ابنته ثم قتل نفسه. عثرت زوجته عليهما. لم تعد إلى هذا البيت من حينها.

فكرتُ في العائلة، وكيف بدت الفتاة الصغيرة بريئة في الصورة، ثم تذكرت الأب الواقف على مبعدة بوجه عابس. سألت:

- هل كان غير مستقر عقليًا؟

أجابت جيني جون:

- واضح، لكن يبدو أن خلله لم يكن ظاهرًا للعيان، ولم يتوقع أحد ما فعل. كان كرتس رجلًا محترمًا محبوبا. الشيء نفسه مع مارثا كارفر التي تملك مخبزًا في وسط البلدة. الفتاة أيضًا. كيتي، كانت من أكثر الأطفال لطفًا. الصغيرة كيتي كارفر. صدمنا جميعًا عندما وقعت الجريمة.

قالت جيس:

- مسكينة السيدة كارفر. لا أستطيع تخيل ما تمر به.

قصدت جيس كل كلمة تفوهت بها، أنا متأكد. هي كتلة تعاطف، فيما يخص معاناة النساء تحديدًا. لكنني استشعرت راحة في صوتها. راحة من النوع النابع من يقين راسخ أن شيئًا كهذا لن يحدث لها، ولن تفقد زوجها وابنتها في اليوم نفسه.

ما لا تعرفه -ما لم تعرفه إلا في وقت لاحق- أنها كانت قريبة جدًا من حدوث الطامة نفسها معها. لكن لم يكن همنا في ظهيرة مايو تلك إلا العثور على منزل مثالي لعائلتنا. عندما صحبت جيني

جُون ابنتنا ماجي في جولة حول المنزل لننفرد أنا وجيس بأنفسنا في الشرفة الأمامية لاتخاذ قرار، أخبرتها على الفور أنني أريد شراء هذا المنزل. قالت لي ساخرة:

- هذا غير مضحك.

- أنا جاد.

- بعدما عرفت هذا؟ شخصان ماتا هنا يا إيوان.

- الأشخاص يموتون في كل مكان.

- أنا واعية تمامًا لهذه الحقيقة، أنا فقط أفضِّل ألا يكون بيتنا واحدًا من هذه الأماكن.

لم يكن هذا خيارًا فيما يتعلق بحالة بانبيري هول. تاريخه سيظل تاريخه، ولن يمكننا التحكم فيه. ما يترك لنا خيارين، أن نبحث عن مكان آخر، أو نحاول إسعاد أنفسنا في هذا المنزل حتى لا يعود لما حدث فيه أي أهمية.

قلت:

- لنتعقَّل بخصوص هذا الأمر. أحببت البيت، وأنتِ أحببته.

استوقفتني جيس برفع سبابتها وهتفت:

- أنا قلت إنَّ فيه الكثير مما يثير الإعجاب، لكن هذا لا يعني أنه أعجبني.

- على الأقل اعترفي أنه بيت عظيم.

قالت:

- هو كذلك، وتحت ظرف مختلف لأخبرتُ جيني چون أننا سنشتريه على الفور. أنا فقط أخشى أن يظللنا ما حدث للأبد لو أننا عشنا هنا. أعرف أنني أبدو مُتطيِّرة، لكني قلقة من أن يتسرب الأمر إلى حياتنا بشكل ما.

لففتُ ذراعي حول كتفيها وقرَّبتها مني وأنا أقول:

- لن يحدث هذا.

- وكيف نتأكد؟

- لأننا لن ندعه يحدث. ذاك الرجل، كُرتِس كارڤر، لم يكن سليمًا. الرجل المريض فقط من يستطيع فعل ما فعل. لا بد ألا ندع أفعال شخص مختل تمنعنا عن منزل أحلامنا.

صمتت چيس ولم تُعلق. فقط لفَّت ذراعها حول خصري وضغطت رأسها إلى جانب صدري. بعد هنيهة قالت:

- أنت لن تقبل بالرفض، أليس كذلك؟

- لنقُل أنني أعرف أن أي منزل نراه لن يصمد في مقارنة مع بانبيري هول.

تسبب ذلك بتنهيدة صدرت من چيس وقالت:

- هل أنت واثق حقًا بأن هذا ما تريد؟

أنا كذلك. لقد قضينا سنوات مُكوَّمين في شقة صغيرة، ولا أنكر أن بداية جديدة في منزل في

ضخامة بانيري هول هي بالضبط ما أحتاج.

- أنا واثق.

- إذًا أعتقد أننا سنشتريه.

اتسعت ابتسامتي ملء وجهي على نحو لن أتصوره ممكنًا.

- أعتقد ذلك.

بعد دقيقة كنا قد عدنا إلى سيارة جيني جُون، وقلت لها مبهور الأنفاس بحماسة:

- سنشتريه!

الثاني

أغادر مكتب آرثر روزنفيلد مرتبكة، ساقاي ترتعشان وأنا أسير على الرصيف الحجري متجهة إلى المطعم حيث تنتظرني أمي. رغم أنه يوم جميل من شهر مايو، يلتصق العرق البارد ببشرتي.

مع أنني توقعت مباغتة المشاعر لي في لقاء اليوم؛ الفقد، شعور بالذنب، ندم، لم يكن الاضطراب والقلق منهم. مع ذلك، شعور الخوف الثقيل من امتلاك بانيبري هول هو ما يطغى على كل المشاعر الأخرى. لو أن لدي ذرة إيمان بالخرافات لقلقت بشأن الأشباح واللعنات، والخطر الذي يختفي خلف الحوائط. عقلانيتي جلبت خاطراً مختلفاً. شعوراً أكثر إثارة للأعصاب من الخوارق.

ماذا سأفعل بالضبط بهذا المنزل؟

بعيداً عما ورد في الكتاب، لا أعرف شيئاً عن بانيبري هول. ولا عن حالته. ولا إن كان أحد عاش فيه خلال الخمسة وعشرين عاماً الماضية. أنا لا أعرف حتى كم ثمنه الآن، ما يجعلني أريد ركل نفسي كوني ذهلت عن سؤال آرثر.

يرن هاتفي في جيبي وأنا أنعطف عند زاوية شارع بيكون. أنظر إليه، آمل والشعور بالذنب يغمرني في أن تكون أمي قد ألغت موعدنا على الغداء في آخر لحظة. لست محظوظة إلى هذه

الدرجة. أرى رسالة نصيَّة من آلِي تخبرني عن آخر أخبار الشقة ذات الطابقين في تليجراف هيل، تلك التي نجددها. العمل في وحدة سكنية من طابقين يعني ضِعفَي العمل، وضِعفَي التكلفة، وضِعفَي الصداع. لكن هذا يعني أيضًا أجرًا مضاعفًا، وهو ما جذبنا لهذه الشقة.

أنهينا إزالة سيراميك حوائط الحمامين الرئيسين. التالي إزالة حوض الاستحمام ذي القوائم.

أكتب لها: «يمكنني أن أساعدك» أبحث عن سبب جيد لألغي موعدي مع أمي. تُرد آلِي أن الأمور تسير بيسر من دوني. خيبة أمل أخرى. تكتب: «كيف سارت أمورك؟»

- فأجيبها: «على نحو مفاجئ»، وأنا أعرف أن ما حدث في الصباح أكبر من مناقشته عبر الرسائل النصيَّة. أضيف: «سأخبرك بكل شيء بعد الغداء.»

تكتب آلِي مع رمزٍ تعبيريٍّ يغمز: «أخبري جيسكيا أنني ما زلت متاحة للتبني.» هذه واحدة ضمن الكثير من الدعابات بيننا، وتعني أن أمي لتكون أكثر سعادة لو أن آلِي -بحزام معدَّاتها وابتسامتها الشبيهة بابتسامة المذيعين- ابنتها.

لصارت الدعابة مضحكة لو أنها ليست حقيقية.

أضع الهاتف في جيبي، وأكمل طريقي إلى المطعم، وهو مكان فاخر ذو نوافذ تمتد من

الأرض إلى السقف. يطل على مُتنزَّه بوسطن كومون. أرى أمي عبر الزجاج متقوقعة داخل مقصورتها. مواعيدها دقيقة كعادتها، بينما أنا متأخرة خمس دقائق عن الموعد. بما أنني أعرف أن أمي ستذكر أمر تأخيري، أنتظر بالخارج أراقبها وهي ترشف من كأس المارتيني وتتحقق من ساعتها، ثم ترشف مرة أخرى.

مع أنها ولِدت وتربَّت في بوسطن، وتعيش في بالم سبرينجز منذ عقد، ما زالت تبدو غريبة عن المدينة. في صغري، كانت أمي تعتمد ملابسا أقل رسميةً. ألوان ترابية، فساتين منقوشة بالأزهار، سترات تريكو. اليوم يمكن وصف ردائها بأنه يشبه نجمات السينما في أواخر نجوميتهن. بنطال كابري قصير. قميص من ليلي بولتزر. شعرها أبيض، مسحوب إلى الخلف في عقصة محكمة. تُكمِل مظهرها بنظارة شمسية ضخمة تغطي ثلث وجهها، ونادرًا ما تخلعها، تاركةً مهمة إظهار التعبير لشفتيها المطليتين بالأحمر. تتهدلان الآن إلى أسفل في تكشيرة ضيقٍ وأنا أدخل المطعم، وأشق طريقي إلى الطاولة.

تقول بكلمات متتالية كأنها تدرَّبت على إلقائها:

- كدت أطلب الغداء دونك.

أنظر إلى كأسها نصف الفارغة وأقول:

- يبدو أنكِ فعلتِ.

- لا تتذاكي. طلبتُ لكِ خمر الجن والتونيك.

تُنزل نظارتها الشمسية لتتفحص ملابسي:

- هل هذا ما اخترتِه للقاء آرثر؟

- كنت في موقع العمل قبلها. لم يكن لدي وقت لتبديل ملابسي.

تهز أمي كتفيها غير مقتنعة بعذري.

- ارتداء ملابس لائقة يدل على الاحترام.

- لم يكن لقاؤنا سوى اجتماع، لا حفل تأبين.

آخر حفل تأبين حضرته قبل شهر، في دار جنازات على بعد عدة مبانٍ من مجلسنا الآن. لم يحضر الكثير. تنسّك أبي آخر أيامه، وقطع علاقته بأغلب الناس. ورغم طلاق أمي وأبي منذ اثني عشر عامًا، وعدم زواجه مجددًا، جلست أمي إلى جواري في أول صف. خلفنا جلست آلي وزوج أمي المطوِّر العقاري المدعو كارل، الرجل الطيب الممل.

عادت في نهاية الأسبوع، كما قالت، لتقديم الدعم العاطفي. هذا يعني شرب خليط خمر الجن والتونيك الثقيل. أول رشفة منه أصابتني بالدوار. لكنها أنعشتني. قوة الجن، وفوران التونيك بلسم يخفف مفاجأة اليوم.

تسأل أمي:

- إذًا، كيف سارت الأمور؟ آخر مرة هاتفت

فيها أباكِ قال لي إنه سيترك لكِ كل شيء».

- وقد فعل.

أميل أمامًا، وأضيف في اتهام:

- كل شيء متضمنًا منزل بانبري هول.

تهتف أمي وهي تفتعل الدهشة:

- حقًا؟

تحاول إخفاء افتعالها. تحاول إخفاء ذلك برفع المارتيني إلى شفتيها ثم الارتشاف منه بصوت عالٍ.

- لماذا لم يخبرني أنه ما زال يملكه؟ وإن كان يهمك الأمر، فلماذا لم تخبريني؟

تقول أمي:

- لم أكن أعتبره ملكًا لي. كان منزل أبيك لا منزلي.

- في وقت ما كان ملككما. لماذا لم تبيعاه حينها؟

تتحاشى أمي السؤال بطرح سؤال آخر.

- هل تنامين جيدًا؟

ما تسأل عنه هو الكوابيس التي ظلت تلاحقني منذ طفولتي. أحلام مريعة أرى فيها أشكالا حالكة تراقبني وأنا نائمة، تجلس على طرف فراشي. امتلأت طفولتي بليالٍ كنت أستيقظ فيها أشهق وأصرخ. هذه لعبة أخرى تحبها الماهرات زميلاتي في المدرسة الابتدائية أيام مبيتنا معًا:

مشاهدة ماجي وهي تصرخ في نومها.

مع أن الفزع الليلي لم يعد متكررًا كما في الماضي بعدما بلغت مراهقتي، لم يختفِ تمامًا. ما زلت أعانيه مرة في الأسبوع تقريبًا، مما دفعني للاعتماد على مهدئ الفاليوم مدى حياتي.

- تقريبًا.

ولا أخبرها أن كابوسًا زارني ليلة أمس، امتدت فيه ذراع طويلة سوداء من تحت فراشي لتقبض على كاحلي.

أخبرتني الدكتورة هاريس، معالجتي النفسية السابقة، أن الكوابيس نتاج مشاعر غير مستقرة تجاه الكاتب. هذا هو السبب الذي توقفت من أجله عن العلاج. لا أحتاج إلى جلستين شهريًا لأعرف ما هو معلوم وواضح.

لأمي سبب آخر يفسر كوابيسي، تكرره في كل مرة نتقابل فيها. وتقوله الآن.

- إنه الضغط. أنتِ ترهقين نفسك في العمل.

- أحب هذا.

- هل تواعدين أحدًا؟

- أواعد الشقة ذات الطابقين التي نجددها. هل تُعتبر هذه مواعدة كافية؟

- أنتما أصغر من أن تتحملا بكل هذا الكد. أنا قلقة عليكما.

لا أستطيع إلا أن ألحظ كيف ترفق أمي ذكر آلي مع ذكري، وكأننا أختان، لا زميلتان تحولتا إلى شريكتي عمل. أنا أصمم، وآلي تنفذ. قلبنا معًا أربعة منازل رأسا على عقب، وجددنا ثلاثة.

أقول لأمي:

- نحن نبني عملنا، وهذا لن ينجح من دون..

أخرس نفسي إذ أدرك أنني أفعل تمامًا كما خطّطت وساقتني إليه. أشرب رشفة كبيرة من المشروب بدافع الضيق -من نفسي ومن أمي- وأجهز نفسي للتالي.

للأسئلة.

الكثير منها.

تلك التي لن ترغب أمي في سماعها، وستحاول تفادي الإجابة عنها. لن أدعها تفر منها، ليس هذه المرة. أسألها:

- أمي، لماذا تركنا بانيبري هول حقًّا؟

- تعرفين أننا لا نتحدث عن هذا الموضوع.

يحوي صوتها نبرة تحذير. آخر مرة سمعت فيها صوتها بهذه الطريقة في الثالثة عشر، عندما مررت بمرحلة عمرية تضغط عمدًا على صبر أمي وقوة احتمالها. مرحلة الزينة غير اللائقة. مرحلة التعبيرات الساخرة. مرحلة الكذب المتتالي، حيث قضيت ثلاثة أشهر أروي سلسلة من الأكاذيب الرهيبة على أمل أن ينهار والداي

ويعترفا أخيرًا أنهما كانا يكذبان بدورهما.

في ذاك اليوم، كانت أمي قد اكتشفت لتوها أنني لم أذهب إلى المدرسة، وقضيت اليوم أتجول في طرقات متحف الفنون الجميلة. خرجت من المدرسة بأن أخبرت السكرتيرة أنني أصبت ببكتريا إي كولاي إثر تناولي خسا ملوثًا. استشاطت أمي غضبًا، هذا واضح.

قالت لي وهي تصحبني في السيارة من مكتب مسؤول المدرسة إلى المنزل:

- أنتِ في ورطة حقيقية أيتها السيدة الصغيرة. أنتِ معاقبة لمدة شهر.

استدرت نحوها وأنا جالسة في مقعدي وهتفت:

- شهر؟

- ولو كررتها مرة أخرى، فسيدوم عقابك ستة أشهر. لا يمكن أن تستمري في الكذب بهذا الشكل.

صحت في غضب تجاه ظلمها:

- أنت وأبي تكذبان طوال الوقت. أنتما تتكسّبان من الكذب إذ تتحدثان عن الكتاب السخيف إذا ما سنحت لكما الفرصة.

أجفلت أمي لدى ذكري الكتاب.

- أنت تعرفين أنني لا أحب مناقشة هذا الأمر.

- لماذا؟

- لأن الأمر مختلف.

- كيف؟ كيف يكون ما تفعلان مختلفًا عما أفعله؟ على الأقل أكاذيبي لا تؤذي أحدًا.

اندفعت حُمرة الغضب إلى وجنتي أمي.

- لأنني لا أقول شيئًا بغرض إثارة غضب والدي فقط. لا أقول شيئًا كي أصير عاهرة كاذبة.

- أحتاج إلى أن أكون عاهرة كاذبة كي أفهم عاهرة كاذبة أخرى.

طارت كف أمي من على عجلة القيادة لتلطم خدي الأيسر لطمة مباغتة مؤلمة طردت الهواء من رئتيّ. صاحت:

- لا تنعتيني بالكاذبة مرة أخرى، ولا تسأليني تحت أي ظرف عن الكتّاب مرة أخرى. مفهوم؟

أومأت وكفي على خدي، تحتها اللطمة أكثر سخونة من حرق الشمس. هذه هي المرة الوحيدة التي أتذكر فيها أن أحد والديّ ضربني. ربما لأن هذه الضربة خلّفت أثرًا. أحاط أثر صفعة أمي بندبتي كهالة حمراء، ولم أذكر الكتّاب أمامها قَط حتى اليوم.

التفكير في ذاكَ اليوم يجلب لي دائمًا ومضات ذكرى مؤلمة. أمس بخدي كأس مشروبي البارد وأقول:

- نحتاج إلى الحديث عنه يا أمي.

فتقول أمي:

- أنتِ قرأتِ الكتاب. تعرفين ما حدث.

- أنا لا أتحدث عن خيال أبي الروائي. أنا أتحدث عن الحقيقة.

تبتلع أمي آخر ما تبقى من المارتيني وتقول:

- كان عليكِ سؤال أبيك عندما واتتكِ فرصة لذلك إن كنت تريدين الحقيقة.

ولكمّ فعلت، ولعشرات المرات. بما أن أبي لن يلطمني، فقد كررت محاولاتي لانتزاع الحقيقة منه عن بانيري هول. كنت أحب إطلاق السؤال عليه وهو غير مستعد، آملة في أن يزل لسانه ويجيبني إجابة أمينة. سألته على الإفطار، قبل أن يضع التوست الفرنسي في طبقي. سألته في السينما بمجرد أن خفتت الإضاءة. ذات مرة حاولت ونحن في اللعبة الأولى من سلسلة العالم لكرة البيسبول.

- كل مرة كانت إجابته:

- ما حدث حدث يا ماجز. لم لأكن لأكذب بشأن شيء كهذا.

لكنه كذب. أمام الناس. في التلفاز الوطني.

على الرغم من أنني أحببت أبي حبًا غير مشروط، حسبته أكثر الذين قابلتهم من الرجال خداعًا. كان هذا صعبًا على عقلي المراهق. لا يزال

صعبًا حتى وأنا بالغة.

في النّهاية، توقفت عن سؤاله عن الكتّاب، ومرت أواخر مراهقتي وعشرينيات عمري بلا أسئلة. ظل أكثر من عقد من الأحداث مسكوتًا عنه. هذا أسهل. بحلول ذلك الوقت، عرفت أن عائلتي تفضل الصمت الموتّر على الحديث عن الكتّاب الذي تضخّم ليصير فيلا ثقيل الحضور يتغافل عن وجوده الجميع.

ظل الوضع على هذا المنوال حتى شارفت على بلوغ الثلاثين، عندما قررت أن أحاول مرة أخرى. ظننت أن هذه هي فرصتي المناسبة الأخيرة التي يمكنني فيها الحصول على إجابات.

اقتربت نهاية والدي، وصارت على بعد أيام، وهي فترة تكفيني كي أدرك أن رحيله سيأتي في طقس يلائم علاقتنا العاصفة. سماء ملبدة بالغيوم وصواعق برق. مع ذلك، خرجت آخر أنفاسه في يوم صحو من شهر أبريل، ارتفعت فيه الشمس عالية وسط سماء بلا غيوم، وتناغم وجهه الأصفر مع أزهار الفورسثيا اليانعة خارج نافذة دار الرعاية المخصصة للمرضى في عداد الموتى.

لم أتحدث كثيرًا في آخر ساعات حياة أبي. لم أعرف ماذا أقول، وشككت أن أبي سيفهم لو فعلت. يكاد لم يعِ قرب النهاية، ولم يفق بالتأكيد بعدما أرسله المورفين إلى حالة ارتباك كأنه يحلم. جاءت لحظة يقظته الوحيدة قبل أقل من ساعة

من وفاته، وهو تغيير غير متوقّع جعلني أشك ما إذا كنت أحلم أيضًا.

قال لي وهو ينظر إليّ بعينين واعيتين للألم والحيرة:

- ماجي. عِديني أنك لن تعودي أبدًا إلى هناك. أبدًا.

لم يكن من داع لسؤاله عما يعنيه. كنت أعرف بالفعل.

- لماذا؟

- المكان ليس آمنًا. لن تكوني آمنة فيه.

أجفل أبي بعدما اعترته موجة من الألم، وبدا أنه سينزلق مرة أخرى إلى هوة الإغماء، ربما إلى الأبد.

- لن أعود. أعِدك.

قلتها سريعًا، قلقةً من أن يكون أبي قد فقد الوعي ولن يسمع وعدي، لكنه ظل واعيًا، وانتزع ابتسامة أضعفها الألم وقال:

- هذه هي ابنتي المطيعة.

وضعت كفي على كفه، مدهوشة من صغر حجمها. في صغري، بدت لي وقتها كفه عملاقة، قوية للغاية. الآن يدي تغطي يده.

قلت:

- هذا هو الوقت المناسب يا أبي. لقد دام صمتك

طويلًا. يمكنك أن تخبرني سبب رحيلنا الحقيقي. أخبرني عن المنزل وما حدث فيه. لا بأس من أن تعترف، لن ألومك ولن أحكم عليكَ. أنا فقط أريد أن أعرف لماذا فعلت ذلك.

انخرطت في البكاء وقد غلبتني المشاعر. كان أبي بجرف بعيدًا، وشعرت أنني أفتقده بالفعل مع أنه أمامي. لقد شارفت على معرفة الحقيقة، وانتفض جسدي لذلك. همست له:

- أخبرني، *أرجوك*.

انفتح فم أبي، وشكَّلت شفتاه كلمتين مفعمتين بأنفاسه المرهقة. دفعهما واحدة تلو الأخرى، تبدوان كفحيح وسط هدوء الغرفة.

- آسف جداً.

بعدها، غادر أبي نوره. رغم أنه ظل حيًا نظريًا لمدة خمسين دقيقة، أعتبر أن تلك كانت لحظة وفاته. هو الآن في أرض الظلال، مملكة أعرف أنه لن يعود منها.

خلال الأيام التالية لم أراجع حديثنا الأخير. كنت خَدِرة من أثر الحزن، ومشغولة في إعداد مراسم الجنازة. فقط بعدما انتهت المأساة المستنزِفة، اكتشفت أنه لم يمنحني قط إجابة معقولة.

أقول لأمي:

- سؤال أبي لم يعد متاحًا. لم يتبق لي سواكِ،

وهذا هو أنسب وقت للحديث عن الأمر.

تنظر أمي إلى ما وراء كتفي باحثة عن النادِل، كأنما تستغيث به وهي تقول:

- لا أعرف سر حتمية الحديث. كل هذا ماضٍ عتيق.

انتفخت فقاعة الحنق في صدري، تلك الفقاعة التي وُلدت ليلة غادرنا بانبيري هول، وراحت تنتفخ أكثر كل يوم بالطلاق الذي أعرف أن نجاح الكتاب هو المتسبب فيه، وبكل تساؤل يتهرب أبي من إجابته، وبتنمر زملاء الدراسة وسخريتهم، وبكل لقاء مع من يشبهون ويندي ديفينبورت. ظلت الفقاعة تتضخم طوال خمسة وعشرين عامًا، وها هي تكاد تنفجر.

أهتف:

- هذه *حياتنا*. حياتي! لقد تورطت في الكتاب منذ سن الخامسة. كان الناس يقرؤونه ثم يظنون أنهم يعرفونني، لكن ما قرأوه ليس سوى كذبة. ما عرفوه عني كذبة. لم أعرف كيف أتعامل مع هذا لأنك وأبي لم توافقا قط على الحديث عن الكتاب. لكنني أرجوكِ، حدثيني عنه.

شربت ما تبقى من الجن، وأبقيت الكأس بين يدي، هما ترتعشان. عندما مر نادلنا، طلبت أخرى.

تقول أمي:

- لم أكن أعرف حتى من أين أبدأ.

- يمكنك أن تبدئي من آخر كلمات أبي، «آسف جدًا». أمي، أريد أن أعرف علامَ كان آسفًا.

- كيف تعرفين حتى أنه كان يتحدث عن الكتاب؟

لأنه كان يفعل. أنا واثقة. آخر حديث بيننا بدا كاعتراف. والآن الشخص الوحيد الذي يعرف بماذا كان يعترف يجلس أمامي الآن، ينتظر، قلقًا، بجرعة ڤودكا. أقول:

- أخبريني بمقصده.

خلعت أمي نظارتها الشمسية كاشفة عن طيبة قلّما رأيتها في عينيها. أعتقد أنها تشعر بالأسف تجاهي. أعتقد أيضًا أنني على وشك معرفة الحقيقة.

- كان أبوكِ كاتبًا ممتازًا، لكنه عانى كثيرًا، بسبب سدة الكتابة. انعدام الثقة بالنفس. مرَّ بإحباطات كثيرة قبل انتقالنا إلى بانبيري هول، هذا ضمن أسباب شرائنا له. كي نمنح أنفسنا فرصة بداية أخرى في مكان جديد. ظن أن هذا التغيير قد يلهمه. وأتته فكرة كتاب عن بيت مسكون. رواية.

- لكنه يكتب النصوص غير الروائية.

أتذكر أغلفة المجلات الشهيرة التي كانت تغطي حوائط شقتنا القديمة. في وقت ذروة إبداعه.

كتب في مجلة «ذا نيويوركر»، «سكواير»، «رولينج ستون»».

- هذا ما عُرِف عنه. أجل. وهذا ما أتيح له من خلال صِلاته في عالم النشر. الكتابة عن الواقع. لا الخيال. الحقائق. لا الأكاذيب.

أفهم إلى أين تقودني هذه القصة. بما أن أبي قد فشل في إبرام اتفاق نشر رواية، فقرر أن يسلك مسارا مختلفا، تغطية الأكاذيب بقناع الحقائق.

- أدرك أبوكِ أن نجاح الأمر مرهون بجعله يبدو حقيقيًا، ما يعني مغادرة بانبيري هول وإخبار الشرطة سبب رحيلنا.

تصمت أمي في خجل هُنيهة، ثم تُردف:

- أعرف أن الأمر يبدو الآن سخيفًا للغاية، لكننا ظننا أنه خطة قد تنجح لو رتّبت جيدا. وافقت عليها لأنني.. حسنا.. أحببت والدك وآمنت به. وبما أنني الآن أتكلم بصراحة، أنا كرهت هذا البيت.

- إذًا، لم يكن أي مما في الكتاب حقيقي؟

- ثمة شيء من الحقيقة وراء ذلك. تاريخ بانبيري، جريمة آل كارفر، سقف المطبخ. مع أن الأخير تسبب فيه انفجار ماسورة مياه، ولم.. أنت تعرفين. أما الأشباح التي ذكر أبوكِ أنك رأيتها، فلَم تكن سوى كوابيس.

- هل كنت أعاني الكوابيس من وقتها؟

تجيب أمي:

- كان هذا هو الوقت الذي بدأت فيه. استلهم أبوكِ التفاصيل من كل شيء، لكن النتيجة النهائية أغلبها خيالي.

أنا محقة، الكتاب كذبة. ليس كله. لكن الأجزاء الأهم منه. الأجزاء التي تتضمن ذكرنا.

والسيد ظِل.

لطالما كنت متأكدة أن ثقلًا هائلًا سينزاح عن كتفي لو قيلت لي الحقيقة، لكن هذا لم يحدث. أي راحة شعرتِ بها عكّرها حنقي على كل هذا الغموض والسريّة غير المبررة. جعل الكتاب مني وأنا صغيرة شيئًا مثيرًا للفضول لبعض النَّاس، وسبب للنبذ عند بعضٍ آخر. معرفة الحقيقة لم تغير هذا، لكني واثقة بأنها ستجعل التعامل معه أفضل. إدراكي أن بعض آلام الطفولة كان يمكن تفاديها أضرم نيران الغضب في قلبي.

- لماذا لم تخبريني قَط؟

قالت أمي بتنهيدة:

- أردنا ذلك. كنّا ننتظر أنْ يأتي الوقت المناسب. «عندما يكون الوقت مناسبًا سنخبر ماجي»، لكن الوقت المناسب لم يأتِ قط، وبخاصة مع نجاح الكتاب غير المتوقع.

- هل خشيتما أن أخبر أحدًا؟

- خشينا أن يخيب ظنك فينا. وبخاصة في أبيك.

هي تفترض أن ظني لم يخب عبر سنوات الكذب وكل الأمور المعلقة المسكوت عنها. لكن بالفعل كذب أبويك عليك قد يخيب الظن أكثر من أي شيء آخر.

أقول بصوت مشروخ وأنا أكبح الدموع:

- لا يهم أي من هذا. كان المفترض أن تخبراني.

تقول أمي:

- كل شيء لديك بفضل هذا الكذب. مكاسبه وفرت الطعام على مائدتنا وغطت جسدك بالملابس. دفع «بيت الأهوال» مصاريف دراستك، ولن أذكر بالطبع إرثك الذي تركه لك أبوك. لم نكن واثقين برد فعلك لو عرفت أن كل هذا كذب.

- ألهذا السبب انفصلتما أنتِ وأبي؟

هذا شيء آخر مما لا نتحدث عنه. عندما انفصلا، كل ما قاله أبواي لفتاة في الثامنة أنني سأعيش بين شقتين بدلا عن العيش في شقة واحدة. فشلا حتى في ذكر أن أمي ستعيش في واحدة وأبي وفي الأخرى، ولن يجمعهما سقف واحد مجددا. احتجت إلى سنوات كي أقتنع أن الطلاق ليس خطأي. صدمة طفولة أخرى كان يمكن تحاشيها بسهولة.

تقول أمي:

- على الأرجح، نعم. كنا نعاني مشكلات قبله بالطبع، ولم نكن زوجين مثاليين بأي طريقة، لكن بعدما نُشر الكتاب، سئمت من الكذب المتواصل والخوف من انكشاف الأمر، وشعور الذنب الذي جاوز تأثير كل هذا.

- ألهذا السبب رفضتِ أخذ مال من أبي؟

- أنا فقط أردت أن أتحرر. بالمقابل، وعدت أباك أنني لن أفشي السر أبدًا.

تتنهّد أمي مجددًا، ثم تقول بصوت مهزوم أكثر حزنًا:

- أعتقد أنه مُقدَّر لبعض العهود أن تُنقض.

عادت النظّارة الشمسيّة إلى مكانها، علامة أنني قد سمعت كل ما يمكنها قوله عن الموضوع. أهذا كل شيء؟ غالبًا لا. لكنه كافٍ لمنحي الراحة التي كنت أبحث عنها. الحقيقة أخيرًا، التي جاءت كما توقعتها.

تناولنا الغداء بشكل طبيعي بعدها، ووصل مشروبانا. تفحصتني أمي منتقدة من فوق نظارتها عندما طلبت شطائر البرجر مع لحم مقدد إضافي. طلبت هي سلطة. أخبرها عن الشقة ذات الطابقين التي نجددها أنا وآلي، وتخبرني أنها وكارل سيقضيان شهر يونيو بالكامل في كابري. بعدما أنهينا الغداء، باغتتني أمي بذكر أخير لبانبيري هول بينما تدفع الفاتورة.

- بالمناسبة. تحدثت أنا وكارل، ونوَد شراء بانبيري هول منكِ. بثمن عادل بالطبع.

- حقًا؟

- لو أننا لسنا جادين، ما كنت لأفاتحك.

- هذه لفتة جميلة منكما.

ثم أصمت شاعرة بالعرفان وبالشك في آن. ثمة ما يحدث ولا أعرفه. أردف:

- لكنني لا أستطيع أن آخذ منكما مالًا.

تقول أمي في إصرار:

- لن نعطيكِ مالًا بلا مقابل، سنشتري المنزل. هذا هو ما يريده كارل.

- لكن لا أحد يعرف حالته الآن، أو بكَم يُقدَر ثمنه.

- ابحثي عمن يُقيم المنزل حتى نعود من رحلتنا، وسنعطيك ثمنه. الأمر سهل وسريع. سنعطيكِ أجر من سيقيّمه، ولست مجبرة أبدا على وضع قدمك داخل بانبيري هول.

أتجمد، ويتبخر إحساس الراحة في لمح البصر. مع أن كلماتهم مختلفة، المعنى واحد.

لا تعودي إلى هناك أبدًا.

المكان ليس آمنًا.

لن تكوني آمنة فيه.

ما يعني أنني لا أعرف بعد الحقيقة وراء بانبيري

هول. ربما بعض ما أخبرتني به أمي حقيقي، لكني أشك. إن كان ما قالت حقيقي، فلماذا تصر هي وأبي على ألا أعود إلى هناك؟ ما زالا يخفيان عني شيئاً بعد كل هذه السنوات.

عاد الوخز إلى قلبي أكثر حدة، كأن أمي طعنتني في صدري بالشوكة التي تمسكها الآن.

تقول لي:

- يجب أن تعترفي أنه عرض كريم للغاية.

أقول بصوت ضعيف:

- هو كذلك.

- أخبريني أنك على الأقل ستفكرين فيه.

أحدق إلى عدسة نظارتها الداكنة، أتمنى أن أرى عينيها علّي أقرأ أفكارها. هل تدرك أنني كشفت كذبتها مرة أخرى؟ هل ترى الألم وخيبة الأمل اللذين أحاول إخفاءهما بكل قوتي؟

أقول مع أنني لا أريد سوى الإلحاح في طلب الحقيقة:

- سأفكر.

لن أحاول، لأنني أعرف أنها لن تنصاع حتى لو رجوتها وتوسلت إليها بكل كلمات الرجاء والتوسل في العالم. إن كان أبي قد رفض الاعتراف على فراش موته، فلا أرى سبباً يدفعها للاعتراف الآن.

يُشعرني هذا أنني عدت طفلة مرة أخرى. ليست الطفلة الغريبة المتطيرة في الكتاب، التي لا صلة لي بها. ولا نسختي الخجول الصموت التي ظهرت في برنامج «ستون دقيقة». أشعر كأنني في التاسعة، عندما قرأت الكتاب لأول مرة، وتقت لإجابات. الاختلاف الوحيد بيننا أنني الآن لدي شيء لم يتوافر عندما كنت في التاسعة. حرية الدخول إلى بانيبري هول.

أدس يدي في جيبي، أتحسس المفاتيح التي وضعتها فيه بعد مغادرتي مكتب آرثر روزنفيلد.

ثمة عبارة أحب إلقاءها على مسامع المشترين قبل أن يأخذوا جولتهم في بيت مجدد ينوون شراءه. «لكل بيت حكاية يرويها». وبانيبري هول لا يختلف عن أي بيت. ربما حكايته -الحكاية الحقيقية- لا تزال هناك. لماذا رحلنا؟ لماذا اضطر أبي للكذب بشأن ما حدث؟ ما الذي مر بي هناك بالضبط؟ ربما تختبئ كل هذه الإجابات خلف جدرانه، تنتظرني لأكتشفها.

تقول أمي:

- أنا مسرورة. أنتِ منشغلة للغاية، وآخر ما أتمناه لكِ أن تحملي عبء بيت قديم لا تريدينه.

- أنا لن أفكر في المكان حتى تعودا أنتِ وكارل. أعدكِ.

أرتشف من كأس الجن وأبتسم ابتسامة مزيفة.

هي على الأقل أعطتني شيئًا من الحقيقة في خلال الغداء.

مُقدَّر لبعض العهود أن تُنقض.

25 يونيو

الإبرام

قالت جيس ونحن نتجه بالسيارة إلى بانبري هول بعد إبرام العقود مباشرة.

- أريدك أن تعدني بشيء..

- أعدك أن أجلب لك القمر.

- أريد ما هو أكثر. وعد له علاقة بالمنزل.

بالطبع له علاقة بالمنزل. لقد انتهى بنا الأمر وقد دفعنا جزءًا كبيرًا من ميراث جيس لشراء بانبري هول. بدا هذا خيارًا أفضل من شراء المنزل عن طريق الرهن العقاري الذي لن يستطيع راتب جيس من التدريس، ومكسبي من الكتابة الوفاء بدينه. مع أننا حصلنا على المنزل بزمن بخسٍ، ارتجفت يدي وأنا أوقع الشيك بالمبلغ كاملًا.

ظلت يداي ترتعشان وأنا أدلف إلى الطريق الرئيس، ومنه إلى بيتنا الجديد. مع أننا لن ننتقل إليه إلا في اليوم التالي، قررت أنا وجيسي أن نعرج إليه لمجرد التشبع بفكرة أنه صار الآن ملكنا. قلت لها:

- ما الأمر؟

- بما أننا نفعل هذا بالفعل، ولا سبيل للتراجع، أريدك أن تعدني أن تدع الماضي في الماضي.

سكتت جيس في انتظار أن أعلِمها أنني أفهم ما

تعنيه. من طبيعتي كصحافي أن أبحث في الأرجاء عن القصص التي تحيطنا، وخطر لي بالفعل أن الانتقال إلى ضيعة ضخمة قتل فيها أب ابنته منجمًا لأفكار الروايات، لكن من النظرة الجادة على وجه جيس، يمكنني القول إنها لا تريدني أن أمس هذه القصة. قلت لها:

- أعدك.

- أنا أعني ما قلت يا إيوان. لا يجب أن تتحرى ما وراء قصة ذاك الرجل وما فعل. عندما ننتقل إلى المنزل غدًا، أريد أن نتظاهر أن ماضيه غير موجود.

قلت لها موافقًا:

- وإلا ظلّنا هذا الماضي كغيمة سوداء.

هتفت جيس بإيماءة قوية:

- بالضبط. بالإضافة إلى وجود ماجي.

كنا قد اتفقنا على ألا نخبر ماجي شيئًا عن مصير سكان بانبري هول السابقين، إلا أننا كنا نعرف أنه سيجيء يومًا ستود فيه ماجي معرفة ما حدث، لكن يمكننا تأجيل هذا لعدة سنوات. تحاشيت وجيس الحديث عن الأمر إلا وماجي نائمة، أو عند جدتها كما هو الحال اليوم.

قلت:

- أقسم أنني لن أنطق اسم كُرتس كارفر أبدًا أمامها، كما أقسم أن ليس لدي نية للبحث وراء

ما جعل الأب يفقد عقله بهذه الطريقة. أتفق معك. الماضي مجرد ماضٍ.

في هذه اللحظة كنت أوقف السيارة أمام بوابة بانبيري هول الأمامية التي كانت مفتوحة بالفعل، وفي انتظارنا حارس الضيعة، وهو رجل نحيل كالفزّاعة، يرتدي بنطالًا من القطيفة المضلعة وقميصًا قطنيًا.

قال ونحن نترجّل من السيارة:

- لا بُد أنكما آل هولت. قالت جيني جون أنكما ستُمران على البيت اليوم. اسمي هيبتس. والت هيبتس، لكن يمكنك مناداتي هيبس. الكل يفعل ذلك.

ابتسم كاشفًا عن سِن ذهبية أصلية. صحته ممتازة وفي السبعينيات تقريبًا، ذكّرني بشخصيات روايات ستيفن كينج. وجدت نفسي مسحورًا بتصرفاته وشخصيته الكاسحة.

- نظّفتُ لكم المكان بالكامل، ونظفَت إلسا ديمتر المنزل وفركته كما تفرك الصحون. لذا يمكنكم الاستقرار فيه. نحن نعرف عملنا جيدًا، أنا وإلسا. لقد ترعرعنا هنا، وعملت عائلتنا في بانبيري هول لعقود. أنا فقط أردت أن أعلمك هذا إن وجدت نفسك في حاجة إلى خدماتنا بدوام كامل.

والحق أننا سنحتاج إليهما. بانبيري هول أكبر بكثير من قدرتنا على الاعتناء به وحدنا. لكن

شراء المنزل يعني أنه لم يعد من مال متبقٍ لأي شيء آخر. بما في ذلك الخدم.

قلت:

- سنحتاج إلى خدمات السيدة ديمتر من وقت لآخر، أما الآن..

قاطعني هيبس بحماس غير متوقَّع:

- أنت شاب قوي تستطيع القيام بالعمل بنفسك. أحب هذا وأحترمه، وأغبطك أيضاً. كما ترى، أنا لم أعد كتكوتاً ربيعياً صغيراً.

- أنا واثق بأنني سأناديكَ إن وقع أمرٌ يستدعي ذلك.

- رجاء، في أي وقت.

ثم أومأ تجاه الكوخين اللذين مررنا بهما عند الطريق الرئيس وأضاف:

- أنا أعيش هناك. نادِني إن أردت أي شيء، حتى لو في منتصف الليل.

- هذا كرم منك، لكني لا أخطط لإزعاجك بهذا القدر.

- أنا فقط أعلِمك.

صمت هنيهة بطريقة لا يمكن سوى وصفها بنذيرة الشؤم، ثم أضاف:

- ربما تحتاج إلى مساعدتي في ساعات الليل المتأخرة، ساعات السِحر كما يقولون.

كنت في طريقي إلى السيارة، لكن عبارته استوقفتني.

- ماذا تعني بذلك؟

وضع هيبس ذراعًا نحيلة على كتفي وجذبني حتى ابتعدنا عن مسمع جيس، ثم قال بصوت خفيض:

- أنا أريد التأكد فقط من أن جيني جُون أخبرتك بكل ما تحتاج إلى معرفته عن المنزل.

- لقد أخبرتني.

- جيد. مفيد أن تعرف ما ستورط نفسك فيه. آل كارفر لم يكونوا مستعدين للمكان، و.. حسنًا.. الأفضل عدم الحديث عنهم كثيرًا كما أعتقد.

ثم ضربني هيبس ضربة خفيفة مشجعة على ظهري مضيفًا:

- لقد أخرتك. اذهب مع زوجك وألقيا نظرة أفضل على بيتكما الجديد.

ثم رحل، موليًا إيانا ظهره، قاصدًا كوخه. لم أشعر بغرابة حوارنا إلا ونحن على الممر أمام البيت. قلت لجيس والمنزل يبزغ أمامنا، ضخمًا كما أتذكره:

- سألني هيبس إن كنا نعرف ما سنتورط فيه. ظننته يقصد جريمة آل كارفر.

- أظنه يقصدهم، وإلا فماذا يقصد؟

- هذا ما ظننت، لكن عندما أخبرني أن آل كارڤر لم يكونوا مستعدين للمنزل، ولِدت تساؤلات في عقلي.

أوقفت السيارة أمام البيت، ثم نظرت إلى نافذتَي الطابق الثالث، الشبيهتين بعينين تحدقان إلي كما أحدق إليهما.

- هل تظنين أن شيئًا آخر حدث هنا؟ قبل انتقال آل كارڤر للسكن؟

حدجتني جيس بنظرة تحذيرية وقالت:

- الماضي ماضٍ، هل تتذكر؟ بدءًا من الآن سنركز على المستقبل.

مع ذكر المستقبل، ترجلت وصعدت إلى الشرفة الأمامية، ثم فتحت الباب وساعدت جيس على النزول من السيارة، ثم حملتها بين ذراعي ودخلت بها إلى المنزل. لفتة رومانسية لم تواتني فرصة فعلها عندما تزوجنا.

خطبتنا كانت خاطفة. كنت مُدرسًا أدرّس محاضرات الصحافة الحديثة في جامعة ڤيرمونت، وكانت جيس هناك، تُجهز للحصول على شهادة الدكتوراه في التعليم الابتدائي. تقابلنا في حفل أقامه صديق مشترك، وقضينا الليلة نتناقش حول رواية ترومان كابوت «بدمٍ بارد». لم أقابل في حياتي أحدًا لا يشغل باله همًا، ومشرقًا، وحيويًا مثلها. يضيء وجهها عندما تتكلم، وهذا ما حدث

غالبًا، وعيناها نافذتان لأفكارها. بنهاية الليلة تأكدت أن جيس هي المرأة التي أريد قضاء باقي حياتي معها.

تزوجنا بعدها بستة أشهر، وبعد ستة أشهر أخرى وُلِدت ماجي.

قلت لها بعدما أنزلتها في المدخل:

- هل تريدين تدشين المكان رسميًا اليوم أو غدًا؟

قالت وهي تغمز:

- الآن. بالطبع الآن!

تحركنا إلى داخل المنزل، يدًا بيد، ثم توقفتُ بعد ثانية واحدة وقد لفت نظري الثريا المتدلية من السقف.

كانت مُضاءة الآن، تتوهج بالنور.

لاحظت جيس ذلك وقالت:

- ربما أضاءها لنا هيبس.

تمنيت أن يكون هذا هو التفسير. وإلا فإن جيني جُون لم تفحص مشكلة الكهرباء كما وعدت. لم أهتم بالأمر أكثر، لأن جيس جذبتني نحو الدرج الضخم بابتسامة مغوية وعينين تضجان بالرغبة وهي تقول:

- توجد غُرَف كثيرة، ربما سنرغب في تدشينها جميعًا.

تبعتها طائعًا إلى الأعلى وقد نسيت أمر الثريا

فجأة. كل ما أهتم به الآن هو زوجتي وابنتي والحياة الرائعة التي يعدني بها البيت الجديد.

ولم أكن أعلم ما يخبئه لنا بانيبري هول.

الآن، ومع قصارى جهودنا، تاريخه القديم يهدد بخنقنا. أتساءل كيف صار عشرون يومًا بين جدرانه كابوسًا حيًا.

لو عرفنا أيًا من هذا لارتددنا على أعقابنا مغادرين بانيبري إلى الأبد.

الثالث

كان الظلام قد حل تقريباً عندما أوقفت شاحنتي أمام البوابة المصنوعة من الحديد المطاوع. للسماء درجة لون الكدمات البنفسجية المسودة. يمكنني أن أرى بصعوبة الممر الصاعد غير المعبد المليء بالحصى من خلف قضبان البوابة، والغابات تحيط به. عند قمة التل، ألمح من خلف الأشجار سقفاً مظللاً، وانعكاس ضوء القمر على نوافذ المنزل.

بانبيري هول.

بيت الأهوال.

يتردد صدى تحذير أبي بين خواطري.

المكان ليس آمناً.. المكان ليس آمناً لكِ.

أبعد الخاطر باتصال بآلِي، أخبرها فيه أنني وصلت بسلام. تقول لي:

- كيف يبدو المكان؟

- لا أعرف. لم أفتح البوابة بعد.

تتردد آلِي لحظة قبل أن تقول:

- لا بأس إن فكرت في الأمر مرة أخرى وعدتِ أدراجك.

- أعرف.

- ولم يفُت وقت تغيير رأيكِ.

أعرف هذا أيضًا. يمُكنني العودة إلى بوسطن، ثم قبول عرض أمي بشراء بانبيري هول دون أن أراه حتى. يمكنني محاولة التعايش مع الجهل للأبد بأسباب مغادرتنا المتعجلة في ليلة من شهر يوليو منذ زمنٍ بعيد. يمكنني التظاهر بأن والداي لم يكذبا عليّ طوال حياتي، وبأن هذه الأكاذيب لم تصر جزءًا مني الآن.

لكني لا أستطيع.

لا جدوى حتى من المحاولة.

أقول لها:

- أنت تعرفين أنني أحتاج إلى فعل ذلك.

- أعرف أنك تظنين أنك تحتاجين إلى فعل ذلك، لكن الأمر لن يكون سهلًا.

خطتي أن أقضي الصيف في بانبيري هول لتجديده بما يليق ببيعه، آمل في مكسب إضافي. لن أجدده بالكامل كما نفعل أنا وآلي عادة. أفكر في الأمر باعتباره تنظيفًا عميقًا، وطلاء وورق حائط جديدين، وتلميع الأخشاب وتغيير البلاط القديم. سأجدد ما يمكن تجديده، وسأغير ما لا يمكن. سأبذل قصارى جهدي في تجهيز الغُرَف التي تزيد ثمن البيوت. الحمامات. المطبخ، جناح النوم الرئيس.

- تهوّلين الأمر كأنني لم أجدد بيوتًا من قبل.

تزفر آلي وتقول:

- ليس هذا ما أتحدث عنه.

هي تشير إلى الجزء الآخر من خطتي، البحث عن شظايا الحقيقة التي قد تختبئ في كل ركنٍ وزاوية. هذا هو السبب الرئيس الذي لم ترافقني لأجله. كما يقولون في الأفلام: الأمر شخصي هذه المرة.

أقول لها:

- سأكون بخير.

فتجيبني آلي إجابة لا أستطيع أن أنكرها:

- هكذا تقول المرأة التي لم ترحل من شاحنتها بعد. هل أنت واثقة بأنك مستعدة لذلك؟ لا أقصد بالطبع استعدادك بشاحنة مليئة بالأقمشة والأدوات والدهانات. بل الاستعداد النفسي.

أجيب سؤالها بأصدق إجابة لدي:

- أعتقد هذا.

- ماذا لو أن الحقيقة التي تبحثين عنها ليست هناك؟

أقول:

- لكل بيت حكاية.

- ولبانبيري حكاية نعرفها جميعًا.

- بل كتبها والدي. ليس لدي رد قاطع بشأنها، وحتى الآن تؤثر في يوميا. أحتاج على الأقل إلى أن أحاول معرفة الحقيقة بينما لدي فرصة.

تقول آلي برقة:

- هل أنتِ واثقة بأنك لا تحتاجين إليَّ هناك؟ إن لم يكن للدعم النفسي، فالبيت قديم وقد يكون خطِرًا من ناحية البناء. سأطمئن إن عرفت أن معكِ من يساعدكِ.

- سأتصل بك إن احتجت إلى أي نصيحة.

تهتف آلي:

- بل ستتصلين بي أو ترسلين رِسالة نصية يوميًا على الأقل، وإلا فسأظنك مِتِ في حادث منضدة نجارة مأسوي.

انتهت المكالمة، أترجل من الشاحنة وأقترب من البوابة التي جعلتني قزمة بارتفاعها الذي جاوز طولي بخمسة أقدام. هي من نوعية البوابات التي تراها في السجون وحول مستشفيات الأمراض العقلية، بوابة لم تصمم لحماية من بالداخل، بل لحبسهم خلفها. أدس المفتاح في القفل وأديره، يفتح بصوت تكَّة معدنية.

على الفور تقريبًا، يعلو صوت أجش غير متوقَّع من الظلام خلفي، صوت رجل.

- لو أنك تبحثين عن المتاعب، فقد وجدتِها. تراجعي عن البوابة الآن.

أستدير رافعة ذراعيّ كلصَّة ضُبِطت في أثناء تأدية عملها.

- آسفة. كنت أعيش هنا.

مصباحا السيارة الأماميان المُسلَّطان على البوابة ليعيناني على فتحها، يعميانني الآن. أمسح الظلام خلف السيارة بعيني، حتى يدخل مصدر الصوت إلى الضوء. طويل قوي، يرتدي سروالًا من الجينز وقيصًا أسود. ربما يبدو أصغر، لكنني أظنه أكبر من الأربعين بقليل، وبخاصة عندما أرى شعر لحيته المخلوط بالشيب حين يقترب بضع خطوات مني. يسألني:

- أنت فتاة إيوان هولت؟

تسري قشعريرة ضيق على طول مؤخرة عنقي. ربما أكون ابنة إيوان هولت، لكنني لستُ فتاة أحد. أتجاهل الأمر فقط لأن الرجل يبدو على معرفة بأبي.

- أجل. ماجي.

يقترب الرجل مني بيد ممدودة. يبدو وسيمًا للغاية عن قرب. أربعيني بلا شك، لكنه ضئيل، ذو سمت ذكوري واضح يجعلني أوقن أن عمله يدوي شاق. أعمل مع رجال مثله أغلب الوقت، ذوي أعضد مشدودة، وعروق نافرة تحيط بعضلات أذرعهم المنتفخة. تحت القميص صدر عريض، وخصر ضيق يثير الغِبطة.

يقول مؤكدًا انطباعي الأول:

- أنا حارس الضيعة. اسمي دين، دين هيبتس. ذكر أبي مَن يُدعى هيبتس في كتابه. والت، لا

دين هيبتس.

- أنت صبي هيبتس؟

- في الواقع، حفيده.

لا يلاحظ إشارتي إليه بكلمة «صبي»، أو لعله تجاهلها. يردف:

- توفي والت منذ بضع سنوات. يمكنك القول بأنني أخذت مكانه، ما يعني أن عليّ أن أتحرك الآن وأساعدك في فتح البوابة.

يعبر إلى جواري ليساعدني، فيجذب هو ناحية، وأدفع أنا الأخرى.

- بالمناسبة، آسف لوفاة أبيك. ربما لبعض سكان البلدة أقاويل سخيفة عنه. ليس لكتابه شعبية كبيرة هنا، بل ليس له شعبية على الإطلاق. لكنه كان رجلًا صالحًا، وأذكّر الناس بهذا مرارًا. أقول لهم: «قليل من الناس ليستمروا في دفع رواتبنا رغم هجرهم البيت منذ خمسة وعشرين عامًا.»

يباغتني فواق الدهشة. أسأله:

- أبي كان يدفع رواتبكم؟

- بالطبع. كان يدفع لجدي، ثم لي. آه، والسيدة ديمتر أيضًا. أنا أجز العشب وأعتني بالأرض، وأدخل المنزل كل أسبوع لأتأكد من أنه بخير. إلسا، السيدة ديمتر، تأتي كل شهر لتنظيفه. الآن تؤدي ابنتها هذا العمل لأن إلسا لا تستطيع.

- هل هي مريضة؟

يدق دين سبابته على صدغه ويجيب:

- عقلها مُعتَل فقط. تعاني ألزهايمر. سيدة مسكينة. لا أتمنى ما حلَّ بها لألَدّ أعدائي. لكن والدك أبقانا في وظائفنا جميعا، وظل يطمئن علي كلما جاء.

مفاجأة أخرى. جعلتني أترك ناحية البوابة التي أمسكها فتنغلق مرة أخرى.

- هل كان يأتي إلى هنا؟

- أجل.

- كثيرًا؟

- ليس كثيرًا. مرة كل عام.

أتسمَّر مكاني ساكنة، لا أرى سوى نظرة دين المحدقة إلى وجهي ورأسه المائل تعجبا، ولا أستطيع فعل شيء. تركتني الصدمة عاجزة عن الحركة.

كان أبي يزور المنزل كل عام.

رغم وَعده ألا يعود.

رغم رجائه لي على فراش موته ألا أذهب إلى هناك.

زياراته هذه ضد كل شيء قيل لي عن بانبيري هول. أنه محرم على عائلتنا. وأنه مكان لا يحيا فيه أي شيء خيِّر. وأن عليَّ أن أبتعد عنه.

المكان ليس آمنًا. المكان ليس آمنًا لكِ.

لماذا واظب أبي على زيارة المنزل إذًا وظن أنه آمن له، وليس لي؟ لماذا لم يذكر قط ولو لمرة واحدة أنه ما زال يمتلك بانبيري هول ويعود إليه كل عام؟

ينظر إليَّ دين بعد النظرة المضحكة ذاتها. نظرة نصفها فضول، نصفها اهتمام. أستطيع أخيرًا أن أقطع أفكاري وصدمتي، وأسأله:

- متى زار المنزل آخر مرة؟

- الصيف الماضي. دائمًا يأتي في التاريخ نفسه: 15 يوليو.

صدمة أخرى، ضربة تدفعني إلى الخلف. أقبض على البوابة لتدعمني، أصابعي الخدِرة تلتف حول قضبانها الحديدية المزخرفة. يسألني دين:

- هل أنتِ بخير يا ماجي؟

أغمغم، لست واثقة بما أقول:

- أجل.

الخامس عشر من يوليو هو اليوم الذي فرَّت فيه عائلتي من بانبيري هول. لا يمكن أن يكون هذا مصادفة، رغم أنني لا أعرف معناه. أحاول أن أفكر في تفسير منطقي لعودة أبي في التاريخ نفسه، لكني أعود خاوية الوفاض.

- كم يمكث هنا؟

- ليلة واحدة فقط. يصل متأخرًا ويرحل مبكرًا في اليوم التالي. بعد أول عامين من عملي، عرفت عادته ومواعيده. أفتح له البوابة قبل وصوله، ثم أغلقها بعد رحيل السيارة في الصباح التالي.

- ألم يخبرك قط بما يفعله هنا؟

- لم يتطوَّع بإخباري، ولم أسأل. لم يبدُ لي هذا من صميم عملي. وليست زيارتك بالطبع ضمن عملي، لكن أريد أن..

- أن تسألني عما أفعل هنا بحق الجحيم؟

- كنت سأصيغ السؤال بشكل أفضل، لكن بما أنك صِغته بهذا الشكل.. فماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟

رمى دين نظرة على صندوق شاحنتي. تحت الغطاء القماشي السميك صناديق أدوات وأطقم معدَّات، وماكينات كهربية تكفي للعمل في مكان محدود كهذا. طاولة نجارة. منشار كهربي. مثقاب. آلة صنفرة. كل ما ينقصني حفَّار، وأعرف من أين أحصل على واحدٍ إن دعت الحاجة إليه.

- أنا هنا للاطمئنان على المنزل وتجديد بعض ما يحتاج إلى تجديد، وتجهيزه للبيع.

- البيت بخير. الأساس قوي، والبناء متين. عظامه ممتازة كما يقولون. ربما يفيده بعض التجديد طبعًا، كما قد يفيدني.

يبتسم لي ابتسامة ماكرة تشي بأنه يعرف جيدًا قدر وسامته. أراهن أنه يذيب قلوب نساء بارتلي. لسوء حظه، لست من نوعية هذه النسوة.

أسأله لأعيده إلى حيز الحديث عن العمل:

- هل تظن أنني سأتمكن من بيعه؟

- مكان كهذا؟ يحيطه كل هذا الغموض؟ بالطبع سيباع، إلا أن عليكِ أن تكوني حذرة في اختيار مشتريه. أغلب السكان هنا لن يسعدوا بتحويله إلى وجهة سياحية.

- أهالي بارتلي يكرهون كتاب أبي إلى هذه الدرجة، أليس كذلك؟

- يمقتونه.

همس دين الكلمة كأن لها مذاقًا سيئًا يريد إبعاده عن لسانه.

- أغلب الأهالي يتمنون لو أنه لم يُنشر قط.

لا أستطيع لومهم. قلت مرة لآلي إن العيش في ظل الكتاب يبدو كأن أحد والدي ارتكب جريمة قتل. أشعر بالذنب بالتبعية. الآن أتخيل نوعية الانتباه الذي قد يجذب للبلدة بأكملها ويصيب سمعتها وقيمها. «بيت الأهوال» وضع بارتلي، فيرمونت، على الخريطة للأسباب الخطأ.

أسأل دين:

- ماذا عنكَ؟ ما رأيك في كتاب أبي؟

- ليس لدي نسخة. لم أقرؤه.

- إذًا أنت المُختارا سعيدة أنني التقيتك أخيرًا.

تتسع ابتسامة دين. لكن هذه المرة ابتسامته صادقة مما جعلها أجمل من محاولته السابقة. أظهرت الابتسامة غمّازة خده الأيمن فوق حد لحيته بالضبط.

يقول:

- لستِ من معجبي الكتّاب، أرى هذا.

- لنقل إنني لا أتحمل المراء، وبخاصة إن كنتُ ضمن شخصياته الأساسية.

يميل دين تجاه الحائط الحجري الملاصق للبوابة، يعقد ذراعيه ويميل رأسه تجاه بانبري هول ويقول:

- إذًا، أخمن أنك لست خائفة من المبيت وحدك تمامًا في هذا البيت الشاسع هناك.

- لقد دخلته أنت أكثر مما دخلته أنا. هل المفترض أن أخاف؟

- إن كنتِ تخافين فقط من كُرات الغبار. تقولين إنك تخططين لتجديد المكان. هل لديك أي خبرة في هذا؟

تعود قشعريرة الضيق مرة أخرى، تثير الحكة خلف عنقي.

- أجل. نوعًا.

- ستكون مهمة شاقة.

هذه الجملة تنطوي على كثير من المعاني، يتدلى من طرفها ما لم يذكره كورقة شجر في الخريف. أعرف ما يقصد. تلميح عنصري أبوي. أتلقى ذلك التعليق طوال الوقت، مع أسئلة متكررة لم تكن لتوجه إلى رجل. هل أنا ماهرة كفاية؟ قوية كفاية؟ قادرة على إنجاز المهام الثقيلة كفاية؟

عندما يكمل عبارته، يتضح لي أن بقيتها تميل نحو المساواة. قال:

- شاقة على شخص واحد. هذا ما أعنيه.

- يمكنني القيام بها.

يحك دين لحيته ويقول:

- الكثير مما يحتاج إلى تغيير بالداخل، وبخاصة إذا كنت تنوين بيعه.

وهنا بالضبط أدرك أنه ليس الوغد العنصري الذي ظننته، هو فقط يبحث عن فرصة عمل. أسأله:

- هل لديك خبرة في أعمال تجديد المنازل؟

يجيبني:

- أجل. نوعاً.

سماع عبارتي تُرَد إليَّ مسلياً أكثر من كونه مُثيراً للضيق. واضح أنني ودين هيبنس قد استهنا بقدرة كل منا.

يقول:

- هذه وظيفتي الرئيسة، المقاولات العامة، تصليح المنازل. أمور كهذه. العمل مؤخرًا لم يعد مزدهرًا.

آخذ وقتي في تقييمه. أسأل نفسي إن كان استئجار خدمات دين سيثير المشكلات أكثر مما سيقدم من قيمة. لكن آلي محقة، رغم مهارتي وخبرتي، أحتاج إلى من يساعدني. لقد دخل دين المنزل كثيرًا ويعرف المكان أكثر مما أعرفه، وظن أبي أنه مسؤول كفاية حتى أنه استأجره ودفع راتبه. إذًا ربما يكون من الحكمة أن أفعل مثله.

أقول له:

- استأجرتك. سأدفع لك مبلغًا عادلًا لقاء العمل في المنزل. عندما أبيعه، يمكنك ادعاء أنك جددت أغلبه بنفسك، مما قد يساعدك في العثور على زبائن جدد. اتفقنا؟

- اتفقنا.

نتصافح تأكيدًا للاتفاق.

- جيد. سنبدأ صباح الغد، في الثامنة.

- بالتأكيد يا ريّس.

***

المسافة بين البوابة والمنزل نفسه سلسلة من التوقعات، بعضها خاب، وبعضها فاق تصوراتي.

كنت قد تصوَّرت أن الطريق الصاعد الحلزوني سيبدو لي كأنني أتسلق دوارة ملاه، صعود مرعب مع طعنات ندم. بدلًا عن ذلكَ، كانت الرحلة هادئة عبر الغابات. بلا أي أحداث مرتقبة. مسالمة، مع ضوء الشفق الذي أضاف نعومة إلى ما يحيطني من أشجار.

الشيء الوحيد الذي يستوقفني غزارة النباتات ذات الأوراق مدببة الطرف على جانبي الطريق. تنبثق منها صفوف حمراء قانية كدماء مراقة، تلمع أمام مصباحيْ الشاحنة.

التوت الأحمر بانبيري.

- في كل مكان.

ينتشر في عمق الغابة. يحيط جذوع الأشجار، يغطي الطريق الصاعد إلى التل بالكامل. أعلى التل هو المكان الوحيد الذي لا ينمو فيه، كأن وجود بانبيري هول قد روعه.

مرة أخرى، أجذب نفسي خارج المنظر أمامي. بما أنني ليس لدي ذكريات عنه، توقعتُ أن يبث فيّ خوف يرفع قلبي إلى حنجرتي من البيت الذي لم أعرفه سوى من كتابات أبي. الصور في الكتاب أظهرت بانبيري هول كأنه شيء خارج من أفلام الرعب القديمة، بنوافذ مظلمة، وسحب عاصفة تتزاحم خلف سقفه المدبب.

أدرك من أول نظرة أن بانبيري هول لا يُمثل

مكانًا قد يخاف منه المرء. مجرد منزل ضخم يحتاج إلى عناية. حتى في ضوء الشفق، أرى أنه مهمل، شرائط الطلاء المقشر تتدلى من حواف النوافذ، والعفن يعتلي الأسقف. أحد نوافذ الطابق الثاني ذو زجاج مشروخ من الركن إلى الركن، وآخر مكسور بالكامل، مغطى بالورق المقوى.

رغم ذلك، المكان مقبول، ويبدو قويًا كفاية. لا أرى فيه مشكلات تأسيسية واضحة تحتاج إلى تدخل عاجل. درجات الشرفة الأمامية ثابتة، ولا شقوق في الأساسات.

دين مُحِق. للمنزل عظام قوية.

قبل مغادرتي بوسطن تأكدت أن المنزل ما زال مزودا بالخدمات الأساسية. مما أنبأني أن أبي لم يكن فقط يحافظ على المنزل من باب الادخار فقط. لبانبيري هول كل الخدمات التي يحتاج إليها أي منزل آخر. مياه جارية. غاز. كهرباء. الخدمة الوحيدة غير المتاحة الهاتف الأرضي، ولهذا أبقى في شاحنتي لأستخدم هاتفي المحمول وأتصل بأمي. انتظرتُ في شوق حتى سافرت وزوجها إلى كابري كي آتي إلى هنا. عندما تستمع أمي إلى رسالتي الصوتية، ستكون على بعد نصف عرض العالم مني.

«مرحبًا أمي، هذا أنا. أريد فقط أن أُعلِمك أني قررت تجديد بانبيري هول وعرضه للبيع بنفسي، مع كامل احترامي وتقديري لمرضك.»

يثقل التردد كلماتي وأنا أقترب أكثر من الموضوع الذي سمعته حقًا.

«الحقيقة، أنا هناك الآن. أردت فقط أن أخبرك بهذا. استمتعي برحلتك.»

أنهي التسجيل، ثم أعيد الهاتف إلى جيبي وأجلب أغراضي من خلف مقعد الشاحنة الأمامي.

بحقيبتين أحملهما في يديّ، وكيس قماشي عملاق أعلقه على كتفي، أقترب من باب بانبيري هول الأمامي. بعد دقائق قضيتها في العبث بالمفاتيح في القفل، انفتح الباب بصرير قوي.

أطل برأسي إلى الداخل، وأرى مدخلًا غير مضاء، طلاه الشفق بلون رمادي. رائحة غريبة تدغدغ أنفاسي، خليط من رائحة الهواء الراكد والتراب وشيء آخر.

رائحة تحلّل.

وأنا أقف هنا، أتنفس هواء بانبيري هول غير المرحِب، يخطر لي أن المفترض أن أخاف. قُراء الكتاب لخافوا لو أنهم مكاني. القراء أمثال ويندي ديفينبورت وعشرات الآلاف الآخرون قد يرتعبون من الأهوال المختبئة التي تنتظرهم خلف الباب.

لكني لست خائفة.

أي قلق لدي له صلة بأمور واقعية، مثل أسباب

رائحة التحلّل. أهو عفن أخشاب الأرضيات؟ نمل أبيض؟ حيوان بريّ تسلل في الشتاء، ومات هنا؟

أو ربما الرائحة في خيالي فقط. بقايا توقعاتي أن يكون المنزل في حالة رثة تماماً. ليست هذه هي الحالة هنا مع وجود حارس وعاملة نظافة. بكل تأكيد ليس مكاناً داوم أبي على المبيت فيه ليلة كل عام.

أدخل إلى الدهليز، أضع حقائبي، وأضغط الزر جوار الباب. يضاء المصباح فوق رأسي. أرى بداخل غلافه الزجاجي عثاً حبيساً. يضرب بأجنحته التي تعكس صورة ظلية على الزجاج.

لا أعرف ما المفترض أن أتوقع وجوده وأنا أتقدم إلى الداخل. ربما بعض قذارة. المكان مهجور منذ خمسة وعشرين عاماً. خيوط العناكب تتدلى بين الأركان كزينة عيد الميلاد. ثقوب في السقف. زَرْق طيور على الأرض. لكن البيت مهندم إلى حد كبير، إلا من طبقة غبار رقيقة تغطي أرضية المدخل. عندما ألتفت خلفي أرى أثر خطواتي.

أكمل مسيرتي، يجذبني فضولي. ظننت أن وجودي هنا قد يشعل وقود بعض الذكريات مهما كانت مُضببة. ذكريات بالية عن جلوسي في الشرفة الأمامية، الإفطار في المطبخ، صعود الدرج قبل موعد النوم.

لكني لا أتذكر أي شيء.

كل ذكرياتي عن قراءتي لهذا المواقف في الكتاب.

أتخذ المسار الذي اتخذه والداي من قبلي في أول جولة لهما. المسار الذي كتب عنه أبي بالتفصيل. المرور بالدرج. الوقوف تحت الثريا التي تزينها الآن خيوط العناكب. الدخول إلى الغرفة الكبرى. التوقف عند المدفأة حيث لقاء ويليام جارسن الذي يحدق إلى الضيوف.

لكن اللوحة ليست هنا. ما فوق المدفأة مجرد أحجار مكشوفة مطلية بالرمادي. ما يعني أن لوحة السيد جارسن ليس لها وجود من الأساس، أو أن أبي غطاها بالطلاء في إحدى زياراته التي لم يذكر عنها شيئًا.

أدخل إلى غرفة الطعام، ثم إلى المطبخ في الطابق السفلي الموازي، بما فيه من حائط مغطى بالأجراس التي كانت تلمع في الماضي، لكنها الآن باهتة من أثر الغبار. ألمس واحدا فوقه بطاقة مكتوب عليها «قاعة الاستقبال»، فينطلق منه رنين ضعيف مكتوم.

أعبر إلى الجهة الأخرى من المطبخ، أنظر إلى السقف متفحصة. فوق طاولة الجزارة مساحة مستطيلة تختلف عن شكل السقف الأصلي. لا يشبه طلاؤها باقي طلاء المطبخ، وثمة حافة

خشبيةً واضحة حول الرقعة تدل على أنها قد استُبدِلَت. في المنتصف منطقة رمادية بيضاوية ينتفخ فيها السقف.

بقعة من تسريب مياه.

مع أن عمرها قد جاوز العقود، البقعة في السقف تعني وجود تسريب. وهو أمر سيئ بلا شك.

عند الطرف القصي من المطبخ مدخل القبو الحجري، لم أكترث للنزول إليه. البرودة ورائحة العفن القوية تهب نحوي، وتخبرني أن الأفضل استكشاف المكان في ضوء النهار ومع معدات حماية.

أعود إذًا إلى الطابق الأول، ومنه إلى قاعة الاستقبال الدائرية، الأقل مساحة مما تخيلت. المنزل كله أصغر من تصوري. بالغ أبي في وصف بانبيري هول ومساحته حتى صار قصرًا قوطيًا لا وجود له إلا في الروايات، كأنه منتفخ العضلات من فرط الحقن بالسترويدات. المنزل كبير فعلًا، لكن في حدود الواقع. مزدحم بالزينة الخشبية الداكنة وورق الحائط المنقوش إلى حد لم أتخيله.

قاعة الاستقبال متخمة بالأثاث المُغطى بالأقمشة، ما جعلها كأنها غرفة مليئة بالأشباح. أزيل الأغطية مثيرة عاصفة ترابية حولي. بعدما انقشعت، كشفت عن قطع فنية منتقاة مكانها

المتحف.

على الأرجح هذا أثاث آل جارسن. قطع كهذه أغلى بكثير من قدرة والدي على الشراء وقتها. وبخاصة المكتب الشبيه بالخزانة، المصنوع من خشب الورد جوار حائط النوافذ المنحني عند مقدمة الغرفة.

المكتب ارتفاعه أكبر طولي، عريض، نصفه السفلي مكون من رف يمكن إنزاله ليكوّن سطحاً ملائماً للكتابة، بالإضافة إلى مجموعة أدراج. النصف العلوي مكون من قسمين، عندما يُفتحان كالجناحين يكشفان عن أرفف مخفية عليها زجاجات حبر وأقلام، ومرآة بيضاوية صغيرة، وأماكن لحفظ البريد، وهي ما لم يستخدمها أبي. كان يكدس رسائل البريد فوق سطح الكتابة. أتفحص الكومة المتربة، وأرى أظرف فواتير لم تفتح، ومنشورات دعائية قديمة، ومجلات تسوق باهتة يعود تاريخ بعضها إلى عقد مضى.

جوار الكومة صورة يحيطها إطار ذهبي. أحملها وأرى صورة لي مع والدي. أعتقد أنها التقطت قبل انتقالنا إلى بانبيري، لأننا جميعاً بدونا سعداء، وبخاصة والداي. كانا زوجين وسيمين. أمي رشيقة منمقة، تتناقض بشكل رائع مع وسامة أبي الشعثاء. في الصورة، أبي يلف ذراعه حول خصر أمي، يجذبها نحوه. تنظر هي إليه لا إلى الكاميرا، يبرق وجهها بابتسامة لم أرها على وجهها منذ

سنوات.

عائلة ليست كبيرة العدد، سعيدة.

حتى لم نعد كذلك.

في الصورة، أقف أمام والديّ، بعقصتيَ شعر على جانبي رأسي، وسِن مفقودة تفسد شكل ابتسامتي العريضة. أبدو صغيرة للغاية، خالية البال حتى أنني كدتُ لا أعرف نفسي. أرفع عينيّ إلى مرآة المكتب البيضاوية، وأقارن للحظات بين المرأة التي أرى انعكاس وجهها، والفتاة التي كنتها. شعري الآن أكثر دُكنة، يتدلى على كتفي. عندما أبتسم ابتسامة واسعة، أحاكي الصورة، أشعر أن ابتسامتي مفتعلة مُجبرة.

عيناي البنيتان كما هما، إلا أن فيهما الآن صلابة لم تكن في طفولتي.

أضع الإطار مكانه، وأديره بحيث لا أرى الصورة. لا أحب أن أنظر إلى نفسي في هذه السن الصغيرة، إلى نسختي الأكثر سعادة. إنها تذكرني بما كنته، وما كنت لأصير إليه الآن لو لم ينتشر الكآب.

ربما آلي محقة بشأن عدم استعدادي الكافي.

أبعد الفكرة عن عقلي. أنا هنا الآن ولدي الكثير لأنجزه، وعليَّ أن أنهي فحص المكتب. بين أكوام البريد سكين فتح خطابات فضي، يبدو عتيقًا قيمًا مثله كمثل المكتب ذاته. يتبين ذلك عندما أرى

نقش حرفي على مقبضه.

و.ج.

- ويليام جارسن، كما أفترض.

أضعه مرة أخرى على المكتب، وتتحرك يدي نحو الورقة جواره. كانت مطوية إلى نصفين، والآن مفرودة مقلوبة على سطح المكتب. عدلتها، فرأيت كلمة واحدة مكتوبة بالحبر، وبحروف كبيرة قوية.

أين؟؟

يا له من سؤال مُحير، يثير بدوره مزيدًا من الأسئلة. أين ماذا؟ لماذا يبحث عنه شخص ما؟ وفوق كل هذا، من كتب هذه؟ مؤكد أن هذا ليس خط أبي.

أقرِّب الورقة إلى وجهي وكأن هذا سيساعدني على الفهم. كنت أحدق إلى السؤال بعد، عندما سمعت صوتًا.

صرير، من الغرفة المجاورة.

غرفة إنديجو.

أهرع إلى الباب الذي يفصلها عن قاعة الاستقبال، ولجزء من الثانية أتوقع رؤية السيد ظل يقف هناك.

هذا حمق، أعرف. لا شيء هناك. غرفة إنديجو خلف الباب ساكنة مظلمة.

بمجرد أن أعود إلى المكتب، أسمع صريرًا آخر، أعلى من السابق.

أنظر إلى مرآة المكتب البيضاوية. على الزجاج خلف كتفي انعكاس مدخل غرفة إنديجو، داخلها مظلم هادئ.

ثم يتحرك شيء ما.

شيء مضبب يمر عبر الباب.

- يظهر ويختفي في طرفة عين.

أهرع مرة أخرى إلى غرفة إنديجو، أحاول ألا أفكر في السيد ظِل حين كل ما أستطيع فعله هو التفكير فيه، رغم صدى أربع كلمات يتردد في عقلي.

السيد. ظل. غير. موجود.

هذا يعني أن ما يتحرك شيء آخر. حيوان غالبًا. شيء يعرف أن هذا المكان خاو لمدة 364 يوم في السنة. شيء لا أريده أن يجول هنا في وجودي.

أضغط زر الإنارة في غرفة إنديجو، فلا يطرأ جديد على الثريا المتدلية من السقف. إما الأسلاك محترقة وإما المصابيح. إلا أن الضوء القادم من قاعة الاستقبال يبين بعض تفاصيل الحجرة، فألحظ الحوائط الخضراء، والأرضية الخشبية، ومزيد من قطع الأثاث في هيئة الأشباح.

ما لا أرى هو لوحة إنديجو جارسن فوق المدفأة.

الحائط مطلي بالرمادي فوق الحجارة كما فوق مدفأة الغرفة الكبيرة.

أبتعد عن المدفأة، وينطلق شيء نحوي من الركن حالك الظُلمة.

ليس حيوانًا.

ليس السيد ظِل.

بل امرأة مُسنة، شديدة الشحوب وسط الإضاءة الخافتة.

تنفلت من حنجرتي صرخة والمرأة تترنح نحوي، ذراعاها ممدودتان. تلمس يديها وجهي، كفاها يضغطان على خديّ وأنفي وفمي. في البداية أظن أنها تحاول خنقي، لكن يداها تنزلان إلى كتفي وهي تجذبني إلى عناق يائس.

تقول:

- بِترا، طفلتي. لقد عُدتِ إليَّ.

26 يونيو
اليوم الأول

الانتقال من شقة في برلنجتون إلى بانبيري هول كان سهلًا، غالبًا لأنه لم يكن لدينا أمتعة كثيرة لنحزمها معنا، إلا كتبي الكثيرة وملابسنا، وبعض القطع التذكارية التي جمعناها عبر السنوات. قررنا استخدام أكثر قطع الأثاث المرفقة في المنزل بسبب ظروفنا المادية لا لشيء آخر. الأثاث الوحيد الذي لم نحتفظ به أطقم غرفة النوم.

قالت جيس:

- لن أجبر ابنتي على النوم في فراش فتاة ميتة، ولن أنام قطعًا على فراش الرجل الذي قتلها.

شيء آخر أصرت عليه وهو حرق حِزم عشب المريمية التي من المفترض أن تطهر المنزل من الطاقة السلبية. بينما جيس تطوف بحفنة الأعشاب المحترقة، تطلق الدخان خلفها كأعواد البخور، مكثت أنا في المطبخ أفرغ طاقم الأطباق الذي ورثته أيضًا عن جدها.

تساعدني إلسا ديمتر التي تعيش في الكوخ خارج البوابة الرئيسة، ذلك الكوخ الآخر غير الذي يشغله هيبس وزوجته. مثلها كمثل أمها وجدتها من قبلهما، تعمل في تنظيف المنازل مقابل أجر، ومن تلك المنازل بانبيري هول. لم نستطع أنا وجيس توفير مدبرة منزل مقيمة، لذا كنا سعيدين

لاستئجارها لعدة أيام كي تساعدنا في ترتيب المنزل.

امرأة أربعينية قوية هي، ذات كلام معسول ووجه صبوح ودود. وصلت حاملة هدية ترحيب، رغيف خبز وعلبة ملح خشبية صغيرة. قالت مفسرة:

- هذا تقليد هنا، ومعناه أنك لن تجوع أبدًا في بيتك الجديد.

لم تتحدث كثيرًا ونحن نعمل، ولم تنطق إلا إذا كلمناها. بعدما مرّت جيس عبر المطبخ في سحابة دخان، قلت:

- أؤكد لك أننا لسنا دائمًا بهذه الغرابة. ربما تظنين أننا أكثر الناس تطيرًا على وجه الأرض.

- أبدًا. في المكان الذي أتت منه عائلتي، كلنا متطيرون.

رفعت إلسا طبقًا وحررته من أوراق الجرائد الملفوف فيها وأضافت:

- في ألمانيا، المفترض أن أكسر هذا الطبق. الشظايا تجلب الحظ الحسن. هكذا يقولون.

- وهل تجلبه حقًّا؟

منحتني ابتسامة حكيمة وقالت:

- لم أر هذا من خلال تجربتي. ربما لم أكسر أطباقًا كفاية بعد.

وضعت إلسا الطبق برفق على الطاولة، ولاحظت وهي تفعل خاتم الزواج حول بنصرها الأيمن. في بداية أربعينياتها وأرملة.

قلت لها سريعًا وأنا أفك غلاف طبق مماثل وأقرعه بطبقها:

- ارفعيه. هل تفعلها؟

قالت محمرة الوجنتين:

- لا يمكنني هذا. هذه أطباق جميلة فعلًا.

هي بالفعل جميلة، وكثيرة. طبقان مكسوران لن يُلاحظا.

- قد تكون التضحية مُجدية لأجل بعض الحظ الحسن لهذا المكان.

وافقت إلسا على مضض. معًا، قذفنا الطبقين إلى الأرض حيث تهشما.

- أشعر بالحظ!

قلتها وأنا أحضِر مكنسة ومجرفة كي أكنس الشظايا، وأردفتُ:

- على الأقل أشعر أني أكثر حظًا من كُرتس كارفر.

خفتت ابتسامة إلسا. قلتُ:

- معذرة، هذه قسوة مني. ربما تعرفينهم.

قالت بإيماءة:

- بعض الشيء. أجل. كنت أنظف المكان

عندما يحتاجون.

- كيف كانوا؟

- بدو سعداء في البداية. لطفاء.

- ماذا عن كُرِس كارفر؟ هل كان..

صَمتُ أتخيّر كلماتي بعناية. إلسا ديمتر تعرف الرجل. وربما أحبته أيضًا، ولا أريد أن أضايقها. فاجأني أنها أنهت عبارتي نيابة عني وقالت بحقد لم تُخفِه:

- وحشًا؟ ماذا قد يكون غير ذلك؟ رجل يفعل هذا بطفلته لا بد وأن يكون وحشًا. لكنه أخفى هذا بمهارة، على الأقل في البداية.

أراد الزوج مُتحمِّل المسؤولية الذي أحاول لعب دوره أن يتجاهل الملاحظة. قبل كل شيء، أنا وعدت جيس أنني لن أجُر الماضي إلى الحاضر، لكن الصحافي بداخلي هو الذي انتصر.

سألتها بصوت منخفض في حال عادت جيس بسحابتها الدخانية:

- ماذا حدث؟

أجابت:

- لقد تغيَّر. أو ربما كان كذلك دائمًا، واحتجت أنا إلى وقت لملاحظة طباعه. لكنه كان في البداية لطيفًا للغاية، ساحرًا. في المرات الأخيرة التي رأيته فيها صار عصبيًا، وبدا مختلفًا أيضًا.

مُرهقًا وشاحبًا. في ذاك الوقت ظننت الأمر له علاقة بابنته. كانت مريضة.

- مرض عضال؟

- كل ما أعرفه هو ما ذكره السيد كارفر من أنها مريضة وتحتاج إلى الراحة الدائمة في غرفتها. انفطر قلبي ابنتيّ. كانتا تُحبان اللعب معها.

- لديكِ بنات؟

- أجل، اثنتان. بِترا في السادسة عشر، وهانا في السادسة.

أضاء وجه إلسا على ذكر ابنتيها. أضافت:

- فتاتان رائعتان. أنا فخورٌ بهما جدًا.

أنهيت كنس الشظايا، ورميتها في سلة المهملات القريبة وأنا أقول:

- لا بُد أن الأمر كان قاسيًا عليهما. فقدان صديق أمر رهيب.

- لا أظن هانا فهمت بالضبط ما حدث. كانت صغيرة للغاية. هي فقط تعرف أن كيتي رحلت، ولا تعرف السبب أو الكيفية. لكن بِترا عرفت كل التفاصيل، وما زالت مهتزة مما حدث. هي قوية كأبيها، تحب حماية الآخرين، وكانت تعتبر كيتي أختًا أخرى، وآلمها أنها لم تستطع حمايتها.

غامرت بسؤال آخر، مدركًا أن جيس ستستشيط غضبًا لو علمت. قررت أنني لن أخبرها

مهما عرفت من تفاصيل.

- ماذا فعل كُرتس كارفر تحديدًا؟ لم يخبرنا أحد بالتفاصيل.

ترددت إلسا، واختارت أن تصب تركيزها على رص الأطباق المتبقية في مكانها. ألح عليها:

- رجاء. هذا الآن منزلنا، وأريد أن أعرف ما حدث فيه.

قالت في همّ:

- لقد كتم أنفاس كيتي بوسادة وهي نائمة. أدعو الرب أن تكون قد ظلت نائمة طوال وقت حدوث هذا، وأنها لم تستيقظ وتدرك ما يفعله أبوها فيها.

لمست الصليب المعلّق من عنقها، وكأنها تؤكد لنفسها أن هذه الفعلة الخبيثة قد وقعت بالفعل.

- بعدها، صعد كُرتس -السيد كارفر- إلى المكتب، ووضع كيس قمامة على رأسه، وأحكمه بحزام حول رقبته. مات مختنقًا.

صمتُ هنيهة كي أهضم ما قيل، غير قادر على فهم أي منه. لا أفهم كيف يكون المرء قادرا على الفعلتين. خنق ابنته في نومها، وقتل نفسه بكيس مربوط بحزام حول رقبته. التفسير الوحيد في رأيي هو الجنون. شيء ما تعطّل في مخ كُرتس كارفر، أدى به إلى القتل ثم الانتحار.

إما هذا، وإما إلسا ديتر على حق. لقد كان

وحشًا.

أقول فقط لأن المفترض أن أقول شيئًا:

- هذا مؤسف حقًا.

قالت إلسا وهي تمس الصَّليب مرة أخرى:

- هو كذلك. عزاؤنا أننا نعرف أن كيتي في مكان أفضل الآن، لكن يسوع قال: «دعوا الأولاد يأتوا إليَّ ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات.»

خلفنا، دق أحد الأجراس على الحائط. مفاجأة، نظرًا إلى عمرها ومدى تعرضها للإهمال. لم أظن أن أيها قد يعمل. ظهرت المفاجأة على وجه إلسا أيضًا، واستمرت في لمس الصليب مع ازدياد سمات القلق على وجهها. وبينما يتفاقم قلقها، دق الجرس مرة أخرى، وظل يدق بصوت خافت، لكنه ملأ صمت المطبخ.

قلتُ:

- غالبًا ماجي تلعب. كنت أعرف أن المسألة مسألة وقت حتى تكتشف أمر الأجراس. سأصعد لأطلب منها أن تتوقف.

تحققت من البطاقة فوق الجرس الذي ما انفك يدق، وقرأت: «غرفة إنديجو»، هرعت أصعد الدرج. رائحة المكان المثقلة بدخان احتراق المريمية، تشي بأن جيس مرت من هنا منذ لحظات. ربما تسرعت في إلقاء اللوم على ابنتي،

وزوجتي هي المتسببة في دق الجرس.

اتجهت إلى مقدمة المنزل، متوقعًا أن أرى چيس تجوب قاعة الاستقبال أو غرفة إنديجو، تجذب حبال الأجراس وسحابة من البخور تحيطها. لكن قاعة الاستقبال خاوية، وكذا غرفة إنديجو.

كل ما رأيت قطعًا من الأثاث تنتظر التحرير من أغطيتها البيضاء، ولوحة إنديجو جارسن الجميلة فوق المدفأة. تفسير دق الجرس الوحيد الآن هو الريح، رغم أنه تفسير غير منطقي، فلا يوجد أي تيار هواء في الغرفة.

هممتُ بمغادرة الغرفة لولا لمحت حركة داخل المدفأة.

ثم بعد لحظة أخرى، خرج منها شيء..

ثعبان.

فكرتُ سريعًا، جذبت الغطاء من فوق أقرب قطع الأثاث، ورميتها فوق الثعبان، فانبعج الغطاء من فوقه وتلوى. بقلب محشور في الحلق، أمسكت أطراف الغطاء وجذبتها مكونًا زكيبة مرتجلة. انتفض بداخلها الثعبان وتشنج. أمسكتها على امتداد ذراعي وهرعت بها إلى الباب الأمامي.

بمجرد أن خرجت إلى الشرفة الأمامية، ألقيت بحمولتي نحو ممر السيارات. انفتح الغطاء وانكشف الثعبان منقلبًا على ظهره، كاشفًا عن بطن حمراء

كالدم، قبل أن يعتدل وينطلق نحو الغابة القريبة. آخر ما رأيت منه اهتزاز ذيله وهو يختفي بين الأجمات.

عدت إلى المنزل، فوجدت إلسا في الشرفة الأمامية خلفي، ترتجف وتضع كفها فوق موضع قلبها. سألت في انزعاج حقيقي:

- هل كان ثعبان في المنزل؟

حدقت إلى وجهها الفَزِع الذي ظل محتفظًا بالقلق السابق:

- نعم. هل يعني هذا سوء الحظ؟

- ربما أومن بالخرافات أكثر من اللازم يا سيد هولت، لكن لو كنت مكانك لكسرت مزيدًا من الأطباق.

الرابع

المرأة هي إلسا ديمتر. هذا ما تأكدت منه بمجرد أن وصلت ابنتها والشرطة متتاليين بفارق دقيقة واحدة.

في البداية، استدعيت الشرطة بمكالمة لرقم 911 منذ خمس دقائق، وبدلًا عن أن يرسلوا إليّ شرطيًا مستجدًا، أرسلوا رئيسة الشرطة تيس ألكوت، وبدت غير مسرورة بالوصول إلى هنا.

تدخل إلى المنزل بتجهُّم وتخطو بغرور راعي البقر في الأفلام. أعرف أن كلا تعبيري الوجه زائف كي يثق الناس بها ويأخذونها على محمل الجد. أفعل مثلها عندما أكون في موقع العمل. في حالتي، ملابسي وتصرفي غير المبالي يفيان بالغرض، وهما أمران لا تطيقهما أمي أبدًا.

تقول ألكوت:

- أعتقد أنني أعرف أيكما المتسللة.

ولم تُتح لها فرصة قول شيء آخر، إذ دخلت الآنسة ديمتر من البابِ المفتوح، ترتدي ملابس النوم مثل أمها، سروال منامة من القطن، وقميصًا واسعًا. تجاهلتني ورئيسة الشرطة، واتجهت رأسًا إلى أمها الجالسة في قاعة الاستقبال على مقعد ما زال مُغطى بملاءة بيضاء.

- ماما، ماذا تفعلين هنا؟

تمد المرأة ذراعها نحوي وتفرد أصابعها كأنها تصنع جسراً فوق القدمين اللذين يفصلان بعضنا عن بعض وتقول:

- بترا..

وهنا أفهم من هي، وأفهم من يكونون جميعًا. إلسا ديمتر وابنتها ورئيسة الشرطة ألكوت، كلهن من شخصيات الكتاب.

إلا أنهن لم يعدن الآن شخصيات، بل بشراً يتنفسون. لم أقابل أي شخص ذُكر في الكتاب إلا والديّ، ويجب أن أذكِّر نفسي أنهم يعيشون في الحياة الحقيقية.

تقول ابنتها:

- هذه ليست بترا يا أمي. هذه سيدة غريبة.

تنهار تعبيرات وجه السيدة ديمتر الذي كان آملاً مستبشراً، ويتسلل إليه الفهم الكئيب، وتدكن عيناها وترتجف شفتها السفلى. مرآها آلم قلبي حتى أنني رغبت في الابتعاد عن المنظر.

تقول رئيسة الشرطة:

- كما ترين، تنتاب السيدة ديمتر نوبات خرف، وتميل إلى التجوال أحيانًا خارج بيتها.

فأقول:

- قيل لي إنها ليست بخير.

تغمغم ابنتها:

- تعاني ألزهايمر. أحيانًا تكون بخير وكأنها لم تعانِ خرفًا قط، وأحيانًا يعتل إدراكها وتنسى في أي عام نحن، وتجوِّل بعيدًا. ظننتها نائمة، لكن عندما رأيت سيارة رئيسة الشرطة تمر، عرفت أنها هنا.

- هل تفعل ذلك كثيرًا؟

- لا. البوابة تكون مغلقة عادة.

تقول ألكوت:

- حسنًا، لقد حُلَّت المشكلة الآن، ولم يقصد أحد أذى ولم يقع أي أذى. الأفضل أن تعود إلسا إلى بيتها وفراشها.

لا تتحرك ابنة السيدة ديمتر، بل تقول بنبرة بدت متهمِة:

- أنت ماجي هولت.

- أنا هي.

ثم أمد يدي نحوها، فتتجاهل مصافحتي وتقول:

- أنا هانا. لقد تقابلنا سابقًا.

أعرف، لأن هذا مذكور في الكتاب. ذكر أبي أن هانا كانت في السادسة وقت إقامتنا في المنزل، لكنها تبدو أمامي أكبر من عمرها المُتوقع بعقد، امرأة صنفرت الحياة نعومتها. لا بد أن الخمسة وعشرين عامًا الماضية كانت قاسية.

- آسفة بشأن والدتك.

تهز هانا كتفيها بمعنى أنني وهي آسفتان بشأنها. أسألها:

- بترا هي أختك، أليس كذلك؟

- كانت أختي. معذرة لو أن أمي أفزعتك. لن يحدث هذا مجددا.

تساعد أمها في النهوض من فوق المقعد، وتقودها نحو الباب. في طريق خروجهما تلتفت إلسا ديمتر وتلقي عليَّ نظرة أخيرة، كأنني قد أتحول بسحر ما إلى ابنتها. لكنني أنا بعد، وهي حقيقة قابلتها السيدة ديمتر بإحباط.

اتجهت رئيسة الشرطة إلى المدخل بعد رحيلهما. العث داخل حاوية المصباح سكن أخيرا، ربما لحظات، وربما للأبد.

تقول وهي تهز رأسها غير مُصدقة:

- ماجي هولت. المفترض ألا أفاجأ بوجودك هنا. ليس بعد رحيل والدك. تقبلي عزائي.

ثم تلاحظ حاجياتي عند المدخل، فتضيف:

- يبدو أنك تنوين الإقامة هنا بعض الوقت.

- حتى أجدد المنزل وأبيعه.

- طَموح. هل تخططين لتحويله إلى منزل عطلات للعاملين في وول ستريت؟ أو ربما نزل مبيت وإفطار؟ شيء من هذا القبيل.

- لم أقرر بعد.

تزفر ثم تقول:

- يا للخزي. كنت أتمنى لو تهدمين المنزل. بانبيري هول لا يستحق سوى أن يصير كومة أحجار.

الصمت بعد عبارتها يقول إنها تنتظر أن أرد في ضيق، لكني لا أفعل، بل أقول:

- أعتقد أن كتاب أبي تسبب في مشكلات كثيرة.

- كان كذلك. لعام أو اثنين اضطررنا إلى إرسال الشرطة لحراسة البوابة الخارجية. بعض هؤلاء الجنود لم يكونوا يعرفون أنهم قضوا وردية خارج بيت الأهوال، وتذمروا بعدها. أنا لا أمانع في ورديات مشابهة رغم كل شيء. على أحدهم أن يبقي الغيلان بعيدا.

- غيلان؟

- السائحون مطاردو الأشباح. هكذا نسميهم. كل هؤلاء القوم الذين يجيئون ويحاولون تسلق البوابة أو القفز من فوق السور والتسلل إلى داخل المنزل. لا أكذب لو قلت لك أن بعضهم نجح إلى حد ما.

يتصلب ظهري وكتفاي وأنا أسأل:

- هل دخلوا المنزل؟

فتجيب دون اكتراث:

- قليل منهم، لكن منذ زمن بعيد. بالطبع حاول الصبية الثملون التسلل من وقت لآخر، لكن الأمر ليس خطراً. دين هيبتس وهانا ديمتر يلاحظان اقتراب هذا النوع من المتسللين ويتصلان بنا. لكن الأمور صارت هادئة الآن، وهذا يروقني.

تحدجني رئيسة الشرطة ألكوت بنظرة ثاقبة كأنها تحذير، فأقول:

- كما قلت لكِ، إقامتي هنا مؤقتة. لكن لدي سؤال. ماذا حدث لِبَترا ديمتر؟

- هربت. هذه إحدى النظريات. لم يتمكن أحد من تعقبها لتأكيد هربها.

- متى كان هذا؟

- قرابة أربع وعشرين عامًا.

تضيق ألكوت عينيها في شك وتضيف:

- أتذكر هذا لأنه حدث في الوقت الذي أبلغني فيه والدك أنَّ البيت مسكون.

إذًا هي مَن تلقى البلاغ، وكتب التقرير الذي بدأ ظاهرة «بيت الأهوال» بالكامل. لا أعرف هل أشكرها أم ألعنها. كل ما أعرفه أن واحدة من أهم مصادر الكتاب تتلكأ عند المدخل، وسأكون حمقاء لو لم أضغط عليها للحصول على معلومات.

أقول لها:

- بما أنك هنا، هل تودين شرب كوب قهوة؟

***

أكتشف أن القهوة ليست ضمن الأشياء الكثيرة الموجودة في بانبيري هول، وعلينا الاكتفاء بأكياس شاي قديمة أشك أنها كانت موجودة من قبل شراء والدي المنزل. الشاي مقزز، وقد زال طعم أوراقه من زمن، لكن لا يبدو أن رئيسة الشرطة تمانع في شربه. تجلس في المطبخ، ضيقها السابق يتحول إلى صبر مربك. ألاحظ ابتسامتها عندما أجفل لطعم الشاي.

تقول لي:

- أعترف أنني لم أتصور أن تنتهي بي الليلة هنا عندما بدأت ورديتي، لكن عندما وردتنا مكالمة تقول إن شيئًا يجري في بانبيري هول، عرفت أنه يجب التحقق من الأمر بنفسي.

أرفع حاجبي وأسأل:

- لأجل الأيام الخوالي؟

تخلع قبعتها وتضعها على الطاولة. شعرها فضي قصير للغاية. تجيب:

- الأيام الخوالي. إلهي، لكم يبدو أن ما حدث كان منذ زمن. بل هو منذ زمن بالفعل. لا أصدق أنني كنت صغيرة غريرة إلى هذا الحد.

- يشير إليكِ أبي في الكتاب بـ «الضابطة

ألكوت». هل كنت مُنضمة حينها إلى قوات الشرطة منذ وقت قريب؟

- كنت مستجدّة كما يكون المستجدين. مُستجدّة إلى درجة أنني دونت كل حرف قاله رجل أبلغ أن بيته مسكون.

- أفترض أنكِ لم تصدقيه.

- أصدق قصة كقصته؟

ترفع كوبها إلى شفتيها وترشف رشفة، ثم تعيده إلى مكانه جوار قبعتها وهي تقول:

- بالطبع لا. لم أصدقه، لكني دونت إفادته لأن هذا عملي. مع هذا، كنت أعرف أن أمورًا غريبة حدثت في المنزل عرفتها في أثناء إقامتي في «تو باينز».

تو باينز اسم نُزل خارج البلدة، مررت به في رحلتي إلى المنزل، ولاحظت اللافتة المضيئة برسم شجرتي الصنوبر. أتذكر انطباعي عن المكان أنه مكان صغير تعيس، بصف أبواب غُرَفه الكالح بفعل الشمس، وساحة انتظاره التي تحوي أعشابا جافة أكثر مما تحوي من سيارات. عانيت لأتخيل عائلتي ورئيسة الشرطة مكدسين داخل واحدة من غُرَفه الشبيهة بالصناديق، يتحدثون عن الأشباح.

- بماذا أخبرك أبي بالضبط تلك الليلة؟

- بأغلب ما ذُكِرَ في كتابه.

- قرأتِه؟

- بالطبع. نحن في بارتلي. كل سكان البلدة قرءوه، ولو أن أحدًا زعم أنه لم يقرؤه، فهو كاذب.

أنصت إليها وأنا أنظر إلى الأجراس المعلقة على الحائط أمامي، الملطخ بطلاء رمادي يغطي لونه الأخضر القديم.

تباغتني ذكرى.. ذكرى مباغِتة أدهشتني.

أنا وأبي. نجلس متجاورين أمام هذا الحائط بالذات. نغمس أسطوانات الطلاء الإسفنجية في دلو من لونٍ رمادي نمحو به الأخضر. أتذكر حتى أنني غمستُ يدي في الطلاء بالخطأ، وطلب مني أبي أن أطبع كفي على الحائط.

هكذا ستصيرين دومًا جزءًا من هذا المنزل..

أعرف أنَّ هذه ذكرى حقيقية، لا صورة من الكتاب لأن أبي لم يكتب هذا المشهد قط. أيضا هي ذكرى حية للغاية حتى أنني توقعت أن أرى أبي يدخل المطبخ وهو يلوح بفرشاة طلاء ويهتف: «هل أنتِ مستعدة لإنهاء العمل يا ماجز؟»

وينفلق قلبي حزنًا.

- هل أنتِ بخير يا ماجي؟

أنتزع نفسي من تحديقي إلى الحائط وأنظر إلى رئيسة الشرطة ألكوت التي ترمقني في اهتمام.

- أنا بخير.

أقولها مع أنني أشعر بدوار وبشيء من التخبُّط. لا بسبب الذكرى والحزن المرافق لها فقط، بل بسبب أني قادرة على تذكر شيء عن هذا المكان. لم أكن أظن هذا ممكنًا، ما يجعلني أتساءل في حماسة ورعب عما سأتذكره تاليًا. ذكرى أبي هذه ليست سعيدة بالكامل بعدما تلطّخت بأعوام تلتها من المعاناة.

أدير كوب الشاي بين راحتيّ وأحاول أن أفكر في أفضل صياغة لسؤالي.

- هل.. هل فكرتِ من قبل في السبب الذي جعل أبي يحكي لكِ تلك الوقائع ليلتها؟ أنتِ قلت أنك لم تصدقيه، إذًا لماذا فعل ذلك؟

تفكر رئيسة الشرطة برويّة ورأسها مائل إلى الخلف وسبابتها تدق ذقنها المربع. تذكرني بالمشاركين في برامج المسابقات عندما يسألون بما لا يستطيعون الإمساك بإجابته. تقول أخيرًا:

- أعتقد أنها لعبة احتيال معقدة، وأن والدك -وربما والدتك- كان يمهد الطريق إلى ما هو آت. البلهاء من أمثالي هم كباش فداء. لا أقول أنهما كانا متأكدين من انتشار الأمر كما حدث، ولا يمكن لأحد أن يتنبأ بشيء كهذا، لكني أعتقد أنهما كانا يأملان في أن تلاحَظ قصتهما الطويلة. لو أنني لم أنصت لهما لكانا قد ذهبا رأسًا إلى

جِريدة بارتلي. الفضل لي في أن الجريدة هي من سعت إليهما.

- هل جئت لِتَقَصّي المنزل بعدما استمعتِ إلى والدي؟

- بالطبع فعلت. البوابة كانت مفتوحة على اتساعها، ولم يكن باب المنزل موصدًا بالمفتاح.

- هل لاحظتِ أي شيء غريب؟

- هل تقصدين الأشباح؟

تطلق ضحكة مبتورة خافتة، تعلن بها أنها ترى الأمر سخيفًا، ثم تضيف:

- كل ما رأيت هو منزل غير مأهول. أغراضك كانت متناثرة في المكان، ما يعني أنكم غادرتم مسرعين، لكن لم يوجد أثر لعنف، أو ما يشير إلى أن شيئًا ما هاجمك أو هاجم أبويكِ. كنت مصابة وثمة ضمادة أسفل عينك. أتذكر هذا لأنني قلت إنها تجعلك أشبه بلاعبي كرة القدم.

في شرود ألمس خدي الأيسر، سبابتي تتحسس البوصة الناتئة عن باقي جلدي.

- ماذا حدث بعدما فحصتِ المنزل؟

- عدت إلى نُزل تو باينز وأخبرت والديك أن كل شيء في مكانه. أخبرتهما أيضًا أن أيًا ما كان هناك قد رحل، ويمكنهما العودة. هنا أخبرني أبوكِ أنكم لا تنوون العودة. اتصلت بوالت هيبنس وطلبت منه غلق المكان، ثم رحلت.

- هذا كل شيء؟

- أنت تسألين أسئلة كثيرة من شخص عاش هذه الأحداث. هلا أخبرتني السبب؟

أشرب جَرعة شنيعة أخرى من الشاي، وأخبرها كل شيء. لا، لا أتذكر الوقت الذي عشته هنا. لا، لا أظن أن بانبيري هول مسكون. أجل، أظن أن والديّ كانا يكذبان. لا، لا أعرف السبب. أجل، أعرف أنهما كانا يخفيان عني شيئًا طَوال الخمسة وعشرين عامًا الماضية. أجل، أنا أنوي البحث عن حقيقة ما كانا يخفيان.

الشيء الوحيد الذي لم أذكره كلمات أبي على فراش موته، فهي أمر شخصي لا يمكن مشاركته.

أنتهي من إجابتي، فتخلل رئيسة الشرطة ألكوت شعرها بأصابعها وهي تقول:

- لهذا أردتِ أن نتكلم.

أعترف مغمغمة:

- هذا هو السبب. أريد أن أتحدث مع أكبر عدد ممكن من الأشخاص الذين ذُكروا في كتاب أبي. أريد أن أسمع وجهة نظرهم في الأحداث، لا وجهة نظره. ربما وقتها سأكون فكرة أفضل عن سبب ما فعله أبواي، وعما أخفياه.

- اعتبريني مجنونة، لكن.. هل سألتِ والدتكِ؟

- حاولت، بلا جدوى.

- حسنًا.. محاولة الضغط على الأهالي هنا لاستخلاص الحقيقة لن تكون سهلة، وبخاصة أن بعضَ مَنْ عاصروا الأحداث قد توفوا.

- سمعت بالفعل عن وفاة والت هيبتس.

- وجيني جُون. لكن براين برنس ما زال حيًا.

أعرف هذا الاسم. صعب أن أنسى اسم كاتب المقال الذي غيَّر مسار حياة عائلتي.

- أما زال يكتب في جريدة «بارتلي جازيت»؟

- أجل، لكنه الآن مالك الجريدة ومراسلها الوحيد. أنا شِبه واثقة بأنه سيتواصل معكِ بمجرد أن يعرف أنكَ هنا.

أسألها:

- هل يوجد أي شيء آخر تتذكرينه من تلك الليلة؟ أي شيء يجب أن أعرفه؟

- أخشى أنَّ هذا كل ما لدي.

تمسك قبعتها وتضيف:

- أحيانًا أفكر في تلك الليلة، وكيف بدا والدك، وكيف بدوتم جميعًا. هل تعرفين تلك العبارة الشهيرة، «تبدون وكأنكم رأيتم شبحًا»؟ كانت تنطبق على ثلاثتكم. من وقت لآخر أتساءل إن كانت ثمة ذرة حقيقة في كتابه.

أشعر بخدر يديّ من المفاجأة، يُجبرني على وضع كوبي فوق الطاولة.

- هل تعتقدين أن بانبيري هول مسكون حقًا؟

- لن أذهب إلى الاعتقاد البعيد، وأنا لا أعرف ما جرى في المنزل تلك الليلة. لكن أيًا كان، فقد أفزعكم بشدة.

تنهي رئيسة الشرطة ألكوت حديثها وتهم بالرحيل. أرافقها إلى الباب، ثم أغلقه خلفها. إحكام غلق الباب فكرة جيدة وبخاصة مع ظهور إلسا ديمتر المباغت، وعلي أن محبي كتّاب «بيت الأهوال» قد نجحوا بالفعل في اقتحام البيت.

أصير وحدي مجددًا، فأكمل جولتي التي بُترت. ألاحظ شيئًا غريبًا ما أن أعود إلى قاعة الاستقبال. بابا المكتب العلويان مغلقان مع أني متأكدة أنني تركتهما مفتوحين.

لكن هذا ليس الشيء الغريب الوحيد.

سكين فتح الخطابات -الذي يحمل نقش أول حرفين من اسم ويليام جارسن على مقبضها- قد اختفى.

27 يونيو

اليوم الثاني

بَدَأ يومنا الكامل الأول في بانبيري هول مُبكرًا، ربما لأننا لم نَنم جيدًا الليلة الماضية. عزوت ذلك إلى أنني أنام في مكان جديد، بأصوات ليلية مُميِّزة له. تكّات مروحة السقف، احتكاك فرع شجرة بجانب نافذة غرفة النوم. كورال الصرير والطنين إذ تؤرجح عاصفة صيفية جدران المنزل.

حتى أنني سمعت ضوضاء في أحلامي. ضوضاء غريبة تأتي من فوقي ومن تحتي في آن. حلمت بأبواب تصفق، وأدراج تُجذَب، وخزانات تُفتَح وتغلق. أعرف أنها مجرد أحلام لأنها تنتهي في كل مرة باستيقاظي فزِعًا، مؤمنًا بأن ثمة دخلاء في المنزل.

ماجي أيضًا حلمت بأصواتٍ مشابهة، لكني لا أظنها أحلامًا، بل خيالها النَشط. دخلت غُرفتنا بعيد منتصفِ الليل، تحمل وسادتها بين ذراعيها كأنها دمية دُب تحبها.

قالت:

- سمعتُ صوتًا.

قلت:

- وأنا أيضًا يا حلوتي. الصوت صادر عن المنزل. هل تتذكرين عندما أخبرتك أن الشقة تغني أغنية

في الليل؟ هذا المنزل مثلها، لكنه يغني أغنية مختلفة عن تلك التي اعتدناها.

- لا أحب هذه الأغنية. هل يمكن أن أنام هنا الليلة؟

كنت أنا وجيس قد ناقشنا احتمال رفض ماجي المبيت في غرفتها، وهو احتمال قوي. هي صغيرة ولن تعتاد سريعا التغيير.

قالت جيس:

- سنسمح لها بليلة واحدة في فراشنا. أعرف أن هذا القرار يبدو قاسياً بعض الشيء، لكنها تحتاج إلى أن تتعلم النوم في غرفتها.

بما أن جيس بدت لي نائمةً، يمكنها النوم في أثناء الزلازل والغزو الفضائي مُجتمعين، فالقرار لي. ستكون هذه الليلة هي الليلة التي نسمح لها فيها بالمبيت معنا.

قلت لماجي:

- بالتأكيد يمكنكِ هذا، لكن الليلة فقط. يجب أن تبقي في غرفتكِ غداً.

اندسّت ماجي إلى جواري تحت الأغطية، وحاولت النوم مرة أخرى، لكن الأحلام عادت بكل ضوضائها التي لا أعرف مصدرها، وهي التي تختفي فور استيقاظي.

المرة الوحيدة التي بدت لي الأصوات أكثر من مجرد أحلام كانت قبيل الفجر. كنت غافيا

عندما سمعتها.

ارتطام

صوت الارتطام قادم من الطابق العلوي، عاليًا حتى أنَّ السقف اهتز بعنف، كأن شيئًا ثقيلًا هوى إلى الأرض.

قمت فزعًا من النوم، وجلست أشهق. أملت رأسي موجهًا أذني صوب السقف، أنصت في انتظار أصواتًا إضافية، لكني لم أسمع سوى الصمت. كان هذا حلمًا مثل باقي الأحلام السابقة.

لأتأكد فقط، نظرت إلى ماجي وجيس لأرى إن كانتا قد سمعتا شيئًا. كلتاهما نائمة، جيس متكوِّرة حول ابنتها، شعرهما متشابك.

نظرت إلى الساعة فوجدتها 4:54 صباحًا.

حاولت أن أنام، لكن الأحلام أثارت أعصابي، وجعلتني أتربص عودتها بمجرد أن أغلق عيني. بحلول الساعة الخامسة استسلمت، وقررت النزول إلى الطابق السفلي.

بينما أنزل الدرج، إذ لاحظت أن الثريًا تُركت مضاءة طوال الليل، وهي الآن تبرق وسط ضوء النهار المبكر الرمادي.

إذًا هذه مشكلة أسلاك كهرباء. لا بُد أن أطلب من هيبس أن يلقي نظرة عليها.

عندما وصلت إلى الطابق السفلي، ضغطت زر

الإنارة لأطفئ الثريا.

- هذا أفضل.

أكملت طريقي إلى المطبخ، وأعددتُ قهوة. استيقظت جيس بعد ساعة، وقبلتني على خدي سريعًا قبل أن تتجه رأسًا إلى إبريق القهوة. قالت لي:

- لم تصدق الأحلام الغريبة التي حلمت بها أمس.

- سأصدق. أنا أيضًا زارتني أحلام غريبة.

- وماجي؟ أعتقد أن لديها سببًا مقنعًا لنومها في فراشنا.

- كانت مذعورة.

ذكّرتني جيس هاتفة:

- أنت تعرف أننا لن نتركها تعتاد هذا.

- أعرف، أعرف. لكن هذا تغيير كبير عليها. تلك الشقة الضيقة كانت كل ما تعرف. الآن نقلناها إلى هنا، حيث المكان أضخم عشرات المرات. أعرف كم قد يربكها هذا. حتى أنا مرتبك. طوال الليل أحلم أنني أسمع أصواتًا.

نظرت إليّ جيس من فوق حافة كوبها في قلق وغمغمت:

- أي نوع من الأصوات؟

- مجرد ضوضاء عشوائية. أبواب، خزانات،

أدراج.

- هذا بالضبط ما حلمت به. هل تظن..

- أن هذه الأصوات كانت حقيقية؟

أجابتني بهزّة رأس عصبية.

- ليست كذلك. أنا متأكدة.

- إذًا كيف سمعناها؟ وربما سمعتها ماجي أيضًا، ولذلك خافت.

ثم ظهرت أمارات الهلع على وجه چيس وهي تهتف:

- اللعنة.. ماذا لو أن هناك متسللًا؟ ربما يكون أحد قد تسلل إلى بيتنا يا إيوان. هل تحققت من أننا لم نُسرَق؟

- نصف حاجياتنا لا تزال في الصناديق. أما الأغراض التي اشتريناها مع المنزل، فلن أستطيع معرفة ما إن كان شيء ينقصها. البوابة الأمامية مُغلقة، والباب أيضًا. لا يُمكن لأحد أن يدخل.

- لكن هذه الأصوات..

جذبتُ چيس إلى صدري. جسدها مُتصلِّب من أثر التوتر. أشعر بسخونة كوبها على ضلوعي.

- لم يحدث شيء. نحن فقط لم نألف المكان مما سمح لخيالنا بالجموح.

هذا تفسير رصين. منطقي. أو هكذا ظننت. إلا أن مخاوف چيس قد فُسِرت لاحقًا، لكني وقتها

كنت مؤمنًا بما أقول.

لكن شيئًا من الغرابة والخلل في المكان، يؤكده ما حدث بعد بضع ساعات مع وصول إلسا ديمتر لاستكمال عملها. هذه المرة جلبت ابنتيها معها.

قالت:

- أظن ماجي ستود عقد بعض الصداقات الجديدة.

كلتا الفتاتين صورة مطابقة لأمهما. الوجه الصبوح المُعبِر. العينان الودودتان. لكنهما مختلفتان في الشخصية.

ليس للصغرى هانا حظ من تحفُّظ أمها. عِندما نزلت ماجي، تفحصتها هانا بطريقة لا يُسمَح بالفرار بها دون محاسبة إلا للأطفال. غالبًا وجدت ابنتي مقبولة، فقالت:

- أنا هانا. سني ست سنوات. هل تودين لعب الغُميضة؟ لأن هذا ما سوف نلعبه. أماكن كثيرة يمكن الاختباء فيها هنا، وأنا أعرفها كلها. أنا أحذرك الآن من أن تفاجئي بفوزي.

بِترا، ابنة ديمتر الكبرى، أكثر هدوءًا. لم ألحظ أي خجل فيها على عكس أمها. كانت متحفظة للغاية، ترمق كل شيء -أنا وجيس والمنزل- بعدم اكتراث.

قالت بِترا بعدما انطلقت أختها وماجي للعب:

- سأضع عينيَّ عليهما لأتأكد من أنهما لن

يسقطا في بئر أو شيء من هذا.

كانت في السادسة عشر، أطول من أمها ونحيلة كعود تقويم نبتات الفول. ملابسها المكونة من قميص وردي بلا أكمام، وبنطال قصير كاكي، جعلت أطرافها تبدو أطول. ذكّرتني بالغزلان. طويلة رشيقة. شعرها معقوص للخلف، في جيدها سلسلة معلق فيها صليب كالذي تعلقه أمها.

قالت إلسا:

- ستكونان بخير مع بِترا. هي جليسة أطفال جيدة.

راقبت بِترا وهي تهرع لتلحق بماجي وهانا، ولم أتمالك نفسي من تذكر ما قالته إلسا أمس عن كون ابنتها قوية حامية. جعلني هذا أشعر بتحسن في ظل ليلة لم أنمها جيدًا.

تحسنت أيضًا لأملي في أن تجد ماجي في هانا صديقة. ازداد قلقي أنا وجيس طوال العام الماضي بسبب عدم وجود أصدقاء لابنتنا. شككنا في أنها أكثر وحدة مما تبدي. ماجي فتاة هادئة. ليست خجولًا بالضبط، لكنها متفحصة، تحب الجلوس ومراقبة كل شيء. تشبه بِترا كثيرًا في هذا.

بعد رحيل الفتيات، انقسمنا نحن البالغين. جيس وإلسا ذهبتا إلى غرفة إنديجو، التي نأمل أنها الآن خالية من الثعابين. عدت أنا إلى المطبخ

حيث شرعتُ في فحص الأواني والأطباق والأدوات التي تركها آل كارفر. رغم ما حدث هنا، ما زلت أعاني كي أفهم سبب زهد السيدة كارفر في الاحتفاظ بأي شيء. ربما كانت تخشى أن كل شيء في المنزل يحمل ذكرى لا تريد استعادتها. لو أن هذا هو التفسير، فأنا سعيد لفرصة الانتقاء من بين كل تلك الأغراض الأنيقة.

بينما أعمل، إذ دق أحد الأجراس على الحائط. جرس غير الذي دق أمس، يحمل بطاقة مُرقّمة تعني أنه متصل بأحد غرف النزلاء من أيام كان هذا البيت نزل مبيت وإفطار. الجرس جرس الغرفة أربعة، والمعروفة الآن باسم غرفة ماجي.

في البداية تجاهلته ظناً أن إحدى الفتيات تلعب. أعددت نفسي لعاصفة من دقات الأجراس إذ تستكشف الفتيات الغرف المختلفة، يجذبن أجراس كل واحدة منها، لكن الجرس الوحيد الذي دق هو المتصل بغرفة ماجي.

ثم دق مرة أخرى.

وأخرى.

دقات قوية محمومة. ليس هذا من فعل فتيات صغيرات يجذبن الحبل لعباً. هذا استدعاء حقيقي.

تركت المطبخ بدافع الفضول، واتجهت إلى الطابق الثاني. في الأعلى لم أعد أسمع الجرس

نفسه، فقط احتكاك الحبل بالحائط.

عرفت عندما دخلت الغرفة أن ماجي هي من يجذب الحبل، وقد ضبطتها وهي تفعل ذلك. قالت وعيناها تلمعان بالذعر:

- ثمة فتاة هنا.

سألتها:

- هل أنتِ واثقة بأنها ليست هانا؟ المفترض أنكما تلعبان الغميضة، هل تتذكرين؟

انضمت إلينا إلسا ديمتر بعدما جذبتها الدقات. ظلت واقفة في الممر، لا يبدو أنها تنوي الدخول إلى الغرفة. قالت:

- ربما هي بِترا.

هتفت ماجي:

- لا. بِترا وهانا مختبئتان.

سمعت الفتاتان اسميهما، فخرجتا من مخبئهما في مكانين مختلفين من الطابق الثاني، ووقفتا إلى جوار أمهما. قالت هانا:

- نحن هنا.

أطلت بِترا برأسها إلى داخل الغرفة وتساءلت:

- ماذا يحدث؟

أجبتها:

- تزعم ماجي أنها رأت أحدًا في غرفتها.

ضربت ماجي الأرض بقدمها وهي تهتف:

- بل رأيت فتاة فعلًا!

- إذًا أين ذهبت؟

أشارت ماجي نحو الخزانة الماثلة أمام الفراش، باباها مغلقان، ففتحتهما كاشفًا عن باطن الخزانة الخالي. تهدل كتفي ماجي إذ ضبطت تكلاب. صاحت:

- لكني رأيتها!

انضمت چيس إلى المشهد، يستحوذ عليها الصبر الذي لا يملكه سوى الأمهات. أخرجت ماجي من الغرفة وهي تقول لها:

- لنتناول الغداء ثم نأخذ قيلولة. لا بُد أنك مُرهَقة بعد ليلة أمس.

تبعتهما خارجًا من الغرفة، فاستوقفتني إلسا وهمست لي:

- ابنتك حساسة، أليس كذلك؟

- أليست كل البنات في هذه السّن حساسات؟

- بعضهن أكثر حساسية من الأخريات. كيتي كانت حساسة أيضًا.

- كيتي ابنة كارفر؟

أومأت سريعًا ثم أكملت:

- الفتيات مثلهن يمكنهن الشعور بأمور تفوت علينا. إن حدث هذا، فالأفضل أن نصدقهن.

ثم تركتنا متراجعة إلى الرواق بهدوء.

في البداية لم أفكر كثيرًا فيما قالت. ماجي ابنتي أنا، لا ابنتها، ولست مستعدًا لتصديق المواقف المُختلَقَة كي أسترضيها. لكني عجزت عن التوقف عن ترديد كلماتها في الليل.

وبخاصة عندما عادت الأصوات.

ليست فقط أصوات البيت ما تهيئ لليلة صيف طويلة، بل الأحلام أيضًا. خبطاتٍ وصفقات الأبواب والخزانات والأدراج إذ تُفتَح وتغلق. ملأ هذا النشاز أحلامي، ولم يتوقف إلا عندما استيقظت قبل منتصف الليل بدقائق.

نظرت إلى باب غرفة النوم وأنا جالسٌ في الفراش، أنصِت إلى تلميح يؤكد أن الأصوات كانت حقيقيَة. كل ما سمعت هو صوت تنفس جيس الثقيل، وكورال صرير الجنادِب من الغابة في الخارج.

فجأة فكرت في ماجي، وكيف أن إلسا دميتر -ولديها حق- نعتتها بـ «الحساسة». فطنت على الفور أن نصيحتها بتصديق مزاعم ماجي تعني أن أرى الأشياء من خلال عيني ابنتي. ما أوقِن أنه أصوات المنزل الطبيعية، يبدو لطفلة شيئًا مرعبًا، وان كانت الأصوات تؤرق نومي، فمن الممكن أن تكون قد منعت عنها النوم. لهذا قررت أن أطمئن عليها.

نزلت عن فراشي وتسللت إلى الممر المؤدي إلى غرفة ماجي. رأيت الباب الذي أصرّت ماجي على تركه مواربًا في أثناء اقترابي، ينغلق فجأة مع صوت تكّة.

إذًا هي مستيقظة.

فتحت الباب قدر فرجة صغيرة، متوقعًا أن أرى ماجي تعود إلى فراشها، وتتهيأ للقراءة في كتابها المصور. بدلًا عن ذلك رأيتها في فراشها بالفعل، متدثرة بالأغطية من أصابع قدميها إلى كتفيها، نائمة بعمقٍ كما يبدو. أنا وجيس قادران على كشف تصنع النوم، وملاحظة الأنفاس السطحية، وحركة الجفنين، وسكون الأوصال وثقلها كالأحجار. هي الآن نائمة بالفعل، مما أظهر على السطح سؤالًا واحدًا مقلقًا: من أغلق باب غرفتها توًا؟

الفتاة. الفتاة التي رأتها ماجي.

كان هذا هو أول ما خطر لي، لكنه تفسير مجنون نحّيته جانبًا على الفور. لا توجد فتاة. أما باب الغرفة الذي انغلق من تلقاء نفسه، فربما ما دفعه لينغلق تيار هواء أو مفصّلات باب مفكوكة أو نخرتها السنوات.

ثم نظرت إلى الخزانة. المكان الذي زعمت ماجي أن فتاتها المتخيلة قد اختفت فيه.

كلا بابيها مفتوح.

الخامس

بَابا الخزانة مغلقان.

لا شيء يستدعي المفاجأة. على الأرجح لم يُفتحا منذ خمسة وعشرين سنة. ما فاجأني أن أحدهم، ربما أبي، قد أغلقهما بلوحين خشبيين مثبتين بالمسامير، يخفيان تماما الفرجة بين البابين، مما منح الخزانة سمت التحريم. كأنها مجسم منزل مسكون.

هذا خيار مناسب كما أظن.

وكذلك سخيف.

يمكن قول الشيء نفسه عن اختياري النوم في غرفة نومي القديمة. يمكنني النوم في أماكن كثيرة وأنا هنا. غرفة والدي أكبر وأكثر راحة.

لكن هذه الغرفة هي من تكلمني منذ حملت أغراضي صاعدة الدرج. رقم 4 على حائط الأجراس في المطبخ. أود أن أفسر اختياري بناء على كونها مألوفة لي فقط، لكني في الحقيقة أعتقد أن الغرفة لطيفة، وأرى الآن سبب اختيار أبي لها لتكون غرفتي. هي حقًا واسعة ساحرة.

فيما عدا الخزانة، التي هي أبعد ما تكون عن السحر. مجرد كتلة عملاقة غليظة تُسيطر على الغرفة بكونها تنتمي إلى مكان آخر. ربما قاعة الاستقبال أو غرفة إنديجو، أو أي مكان سوى هنا.

الطريقة التي أغلقت بها لم تساعدني كثيرًا على

تقبلها. لا أستطيع إلا أن أخمن سبب حاجة أبي إلى فعل هذا. لذا أعود إلى الخارج وأجلب عتلة من الشاحنة، وأخلع لوحي الخشب عن البابين بحركة سريعة.

يسقط اللوحان على الأرض، وينفتح البابان. أجذبهما أكثر فأرى فساتين.

كلها صغيرة، فساتين فتاة صغيرة مصفوفة بألوان بيض عيد الفصح. كلها منقوشة بالأزهار، منتفخة، مربوطة عند الخصر بشريط ستان. لا توجد أي طفلة تحترم نفسها قد تُجبَر على ارتدائهم. أحركهم، فتتموج الأقمشة ويسقط الغبار المتكوم على أكتاف الفساتين. على كتف واحد منها خيط من شبكة عنكبوت يصل بين الكُم وتنورة الفستان. ثم أدركت أن هذه فساتيني في سن أصغر طبعًا. ذُكر في الكتاب أن أمي علقتها هنا على أمل أن أحب ارتداء ملابس تليق بالدمى. على حد علمي، لم أرتدِ أيها. ربما لهذا السبب تُرِكوا في الخزانة، مكروهين، غير مستخدمين.

أفتح باب صوان الملابس تحت نقش الليلاب الممتد، فأجد مجموعة أخرى من ملابسي بداخلها. ملابس ارتديتها بالفعل ومن النوعية التي أحبها. سراويل جينز عملية وقمصان مُخططة وأزواج من الأحذية الرياضية وعلكة عالقة في نعل أحدها. ملابس كثيرة. يبدو أن ملابسي كلها وأنا في الخامسة مكومة في هذه الغرفة.

في لقاء مع برنامج ستون دقيقة -الذي كنت فيه نجلة ذات غرة سخيفة- قال أبواي أننا فررنا من بانيبري هول بملابسنا التي كنا نرتديها فقط. شاهدت اللقاء مرات كثيرة حتى أن عبارتهما حُفِرت في ذاكرتي.

سأل مُقدِّم البرنامج:

- هل صحيح أنكم لم تعودوا قط إلى المنزل؟

أجاب أبي:

- قَط.

وأضافت أمي للتأكيد:

- أبدًا.

سألها مقدم البرنامج:

- ماذا عن أغراضكم؟ ملابسكم؟ مُتعلِّقاتكم؟

أجاب أبي:

- ما زالت كلها موجودة.

مثله كمثل كل شيء متعلق بالكتاب، لم أصدق ما قيل. لا يمكن أن نكون قد تركنا كل شيء خلفنا.

مع ذلك، بدأت أفكر في أن ربما والداي قد قالا الحقيقة وأنا أحدق إلى الخزانة المليئة بالملابس. يزيد شكي وأنا أخرج من الغرفة إلى الأخرى المرافقة لها، المخصصة للعب. الأرض مغطاة بلعبي المتناثرة. مكعبات خشبية. مكعبات دبلو

الصغيرة. دمية باربي عارية ممددة ووجهها إلى أسفل على البساط كأنها جثة قتيل. بدا المشهد كأن فتاة غادرت غرفتها في منتصف لعبها ولم تعد قط.

أحاول أن أفكر في سبب ترك أبويّ ملابس ابنتهما ولعبها. لا بد أنني أحببت بعضها، وربما كان لي قيص مفضّل، أو دمية محشوة محببة، أو كتاب كنت أطلب من أبويّ قراءته لي قبل النوم مرارًا. لماذا حرماني من أغراضي بلا سبب واضح؟

أفضل ما يمكنني استحضاره من أسباب أنهما فعلا ذلك لإحكام الخدعة. لم يكن أحد ليصدقهما لو عادا لاستعادة دمية باربي، أو حذاءً مفضلًا. لا بد أن يتركا أدلة تؤكد زعمهما لرئيسة الشرطة ألكوت أنهما اضطرا لترك كل شيء.

أظن والداي اعتقدا أن هذه تضحية تستحق. تضحية عوضاني عنها بالإغداق عليّ بالهدايا بعد نجاح الكتاب، وبخاصة أبي الذي كان مغرمًا بتدليلي. كنت أول فتاة في مدرستي تمتلك مشغل أقراص مدمجة، وتلفازًا ذا شاشة مسطحة، وهاتف آيفون. عندما بلغت السادسة عشر أهداني سيارة جديدة، وعند السابعة عشر منحني واحدة أخرى. في ذاك الوقت كنت أعزو هذه الهدايا إلى عقدة ما بعد الطلاق. الآن أرى أنها كانت تكفيرًا عن إجباري على الحياة في ظل وجود

الكتاب.

يمكنك أن تعتبرني جاحدة، لكني لفضلتُ الحقيقة على هذا.

أغادر غرفة اللعب وأتجه إلى الممر، ألقي نظرات إلى الغرف الأخرى في الطابق الثاني. أغلبهم تحولوا إلى غرف للنزلاء في أيام بانبيري هول النزل. كلها صغيرة، خالية. واحدة منها تحوي بقايا من تأثيثها كغرفة نزلاء، فراش لشخصين مغطى بملاءة مخططة، وطاولة جانبية مائلة فوقها مصباح رأسي معوج القمة كرأس ثمِل. في الغرف التالية آلة حياكة، وبكرات خيوط مرصوصة على هيئة هرم. على الأرض صندوق من الورق المقوى متخم بمجلات «لايف» من الخمسينيات.

بما أن أغلب هذه الأغراض مرفقة بالمنزل، فمن الطبيعي أن يتركها والداي. لا يبدو أيها ذو قيمة حقيقية، ولا أتصور رابطة عاطفية بينهما وبين مصباح أفقي مكسور أو آلة حياكة من منتصف القرن الماضي.

القصة مختلفة في غرفة نوم أبويّ عند نهاية القاعة. رغم افتراضي أنها المكان الذي كان أبي يبيت فيه في أثناء زياراته السنوية، بدت الغرفة كأن لم تُمس منذ خمسة وعشرين عاما، بالضبط كغرفة الألعاب، تجمد الزمن فيها. جواهر أمي وقتها -الأكثر تواضعًا مما ترتديه الآن- منتثرة على سطح خزانة الزينة، جوارها ربطة عنق مخططة،

ملفوفة حول نفسها كثعبان. ثمة فستان مكوم في الركن، وجزء من فردة حذاء أسود ذي كعب تطل من تحته.

الحقيقة أن الغرفة مليئة بالملابس. خزانة الزينة المرتَّبة بحيث يضع كل منهما أغراضه في قسم منها مكدسة بالأغراض. مع جذب كل درج يكشف عن جوارب أو ملابس داخلية أو أشياء لم يرغب أبواي في أن أراها. علبة واقيات ذكرية، كيس ماريجوانا صغير مخبأ تحت علبة إسعافات أولية، وما إلى ذلك.

مزيد من ملابس أمي معلق في الخزانة، منها فستان صيفي منقوش أتذكره جيداً لأنها كانت ترتديه في الصورة التي يحتفظ بها أبي في شقته. بدت سعيدة في هذه الصورة، مع أبي إلى جوارها، وأنا رضيعة بين ذراعيها.

على ذكر الصورة، أتساءل كيف انتهى بها المطاف في شقة أبي. هل أخذها أبي عندما غادرنا؟ أم سرقها بعد سنوات خلال واحدة من زياراته السرية للمنزل؟

ثم السؤال الأكبر: لماذا أخذ هذه الصورة فقط؟ لقد ترك كل شيء، بدلاته، سراويله الجينز، ملابسه الداخلية، وساعة قيِّمة ما زالت على الطاولة الجانبية للسرير. كما تركا فستان زفاف أمي في الخزانة داخل كيسه البلاستيكي المغلق.

كل شيء ما زال هنا. لم يكذب أبي بهذا الشأن. الآن أتساءل أي جوانب أخرى من الكتاب قد تكون حقيقية؟

كلها؟

ذاك الخاطر لكَزَ عقلي، بغتةً ولم يكن مرحباً به. أغلق عينيَّ وأهز رأسي مبعدة إياه. لا يعني تركنا لكل شيء أن البيت مسكون. بل يعني أن أبي ضحى بكل شيء طواعية -بيته وأغراضه وعائلته- لأجل الكتاب.

أعود إلى غرفة نومي وأفرغ حقائبي، وأعلق ملابسي إلى جوار ملابس طفولتي. أخلع بنطالي الجينز وقميص العمل، ثم أرتدي بنطالا قطنيا قصيرا، وقميصا عليه شعار فيلم صائدي الأشباح، سرقته من صديق قديم أيام الدراسة. لم أستطع مقاومة المفارقة في ارتداء هذا القميص.

بعدها أستلقي على الفراش الأكبر بكثير من حجم طفلة في الخامسة، وأصغر بكثير من حجم امرأة بالغة. تتدلى قدماي خارج حافته. لو انقلبت إلى أي من الاتجاهين سأسقط. لكن الليلة ستمر فوقه على أي حال.

بدلًا عن النوم، أظل مستيقظة في الظلام لمدة ساعة أخرى، أفعل ما أفعل مع كل منزل أعمل فيه.

أنصت.

يبدو أن بانيري هول لديه ما يحكيه، بداية من أزيز مروحة السقف، إلى صرير الحشية تحتي. المنزل صاخب حقًا. في الخارج يعصف هواء الصيف الدافئ بركن السقف فيجعله يئن. يشاركه صوت كورال الجنادب والضفادع والطيور الليلية التي تسكن الغابات المحيطة بالمنزل.

أكاد أنام، يهدهدني ضجيج الطبيعة المستمر، لولا صوت غريب صدح في الخارج.

غصين.

ينكسر نصفين فيُحدث صوتًا عاليًا.

أخرس الصوت المفاجئ همهمات الغابة، وفي الهدوء الوليد شعرت بشيء يزعج تناغم الموجودات.

شيء ما في الخارج.

أنزل عن الفراش وأتجه إلى النافذة التي تبين بزاوية حادة الباحة المسربلة بالظلال تحتي. أمسح بعيني المكان الأقرب إلى البيت، ولا أرى إلا العشب المُضاء بضوء القمر، وفروع شجرة البلوط العُليا. أنقل نظري إلى حدود الباحة حيث يُستبدل بالمرج حدود الغابة. أتوقع رؤية غزال يخطو بحرص على العشب.

بدلًا عن ذلك، أرى شخصًا يقف خلف خط الأشجار.

لا أستطيع أن أتبيَّن تفاصيل كثيرة. الواقف

هناك مختبئ خلف ظلال كثيفة بالإضافة إلى الظلام، لو أنه كان يقف على بعد ثلاثة أقدام أخرى دخل الغابة لما رأيته مطلقا.

لكنني أعلم الآن، أراه، أو أراها،

- يقف في سكون تمثال،

- لا يفعل شيئاً إلا التحديق إلى المنزل،

حتى الآن،

أعيد التفكير فيما قالته رئيسة الشرطة عن محاولات المتطفلين اقتحام المنزل، الغيلان، كما تدعوهم، وكيف أن بعضهم قد نجح،

لكن لن يحدث هذا وأنا هنا،

أبتعد عن النافذة منطلقة من الغرفة، أنزل الدرج ومنه إلى الباب، أدور بالخارج حول المنزل، الحشائش الندية تبلل قدمي الحافيتين، سرعان ما أصل إلى الباحة الخلفية وأنطلق نحو المكان الذي يقف فيه المتسلل،

لا يوجد شيء،

أنصت إلى أصوات الخطوات المتراجعة إلى قلب الغابة، لكن صرير الجنادب ونقيق الضفادع وحفيف أجنحة طيور الليل تعود مجددا، ويصير من الصعب سماع أي شيء،

أقف مكاني بضع دقائق أخرى، أتساءل ما إذا كنت قد رأيت أحدا في الخارج حقا، ثمة

احتمال أن أكون قد رأيت ظل شجرة، أو خدعة من خدع الظلال، أو ربما خيالي المتحفِّز بعد ما قالته رئيسة الشرطة.

كل التفسيرات ممكنة، ولا شيء منها مُرجَّح.

- لأنني واثقة بما رأيت. أنا رأيت شخصًا يقف حيث أقف أنا الآن.

هذا يعني أن عليَّ التحقق من نظام الأمن، وإضافة مصباح كاشف في الباحة الخلفية، لأن رغم إحاطة السور بجزء من الغابة وبالمنزل، بانبيري هول ليس معزولًا كما يبدو.

وأنا لست وحدي كما ظننت.

28 يونيو
اليوم الثالث

بعد يومين من إفراغ الحقائب وتنسيق أثاثنا مع الموجود في البيت، حان وقت إعداد المكتب في الطابق الثالث، ويا له من أمرٍ مُحمّس. لطالما رغبت في مكتب لي وحدي. أمضيتُ فترة عملي في الكتابة كلها داخل مقصورات مكعبة الشكل حوائطها بيضاء، وعلى مكاتب غرَف الفنادق الرخيصة، وعلى منضدة العشاء في شقة برلنجتون. تمنيت الحصول على مكان مخصص لي، يمكنني فيه استعادة الإحساس بأنني كاتب بحق.

مشكلة هذه الغرفة الوحيدة أنها موضع انتحار كُرتس كارفر، وهي حقيقة ظلت تداعب أفكاري وأنا أصعد الدرج الضيق المؤدي إلى الطابق الثالث. خشيت أن موته يظل محسوسا في المكتب. شعوره بالذنب، اليأس، الجنون الذي قد يملأ المكان ويدور في الهواء كذرات غبار.

زالت مخاوفي بمجرد أن دخلت الغرفة. هي رائعة كما أتذكرها، جدرانها عالية، مغطاة بأرفف كتب، ويتوسطها مكتب من خشب البلوط الذي بلا شك كان ملكًا لويليام جارسن. هو ضخم وفخم مثله كمثل بانبيري هول، يليق فقط بذوي المكانة العالية والثراء. وكذا الغرفة بأكملها. لكن بدلًا عن حضور كُرتس كارفر، كان حضور السيد جارسن

هو ما خيّم على أجواء المكتب.

لكن لم أستطع تجاهل الحقيقة القاسية بأن رجلاً بخع نفسه وسط هذه الجدران. لأحوِل هذا المكان ملكًا خالصًا لي يجب أن أتخلص من أي أثر لكُرتس كارفر.

بدأت بالخزانتين اللتين لهما أبواب شبيهة بأبواب الخزانة في غرفة ماجي. وجدت بداخل واحدة منها ألعاب لوحيّة قديمة مكدّسة، بعضها يعود إلى فترة السبعينيات، منها لعبة مونوبولي والسلم والثعبان وكلو، ولوح ويجا في صندوق أركانه بالية. تذكرت ما قالته جيني جون عن إقامة جيبل ولومبارد هنا، وابتسمت عندما تخيلتهما يلعبان بلوح الويجا في قاعة الاستقبال المُضاءة بالشموع.

تحت الألعاب، وفوق الأرضية مباشرة، حقيبتا سفر مربعتان مغطاتان بالغبار. سحبت إحداهما إلى خارج الخزانة، وشعرت بخفة وزنها النسبية.

شيء يتدحرج بداخلها.

اكتشفت بعد فتح الحقيبة الأولى أنها ليست حقيبة على الإطلاق، بل مشغِل أسطوانات داخل علبة محمولة جلدية. وبالتالي تحوي الحقيبة الثانية أسطوانات داخل أظرف تغليفها الأصلية. تفحصتها، وخاب أملي إذ كانت المجموعة تحوي أغاني فرق موسيقية وموسيقى أفلام غنائية.

- «أوكلاهوما»، «جنوب المحيط الهادي».

«الملك وأنا».

يبدو أنَّ أحدًا معجب بموسيقى الأفلام، وأنا واثق تمامًا بأنه ليس كُرِس كارڤر.

حملت مُشغِّل الأسطوانات إلى المكتب، ثم أوصلته بالقابِس، يدفعني الفضول لمعرفة ما إن كان سيعمل. أخرجت أول أسطوانة من ظرفها، تحمل عنوان فيلم «صوت الموسيقى». تركتها تدور على الجهاز. فملأت الموسيقى الغرفة.

بينما تغني جولي أندروز عن التلال الحيَّة، شققت طريقي إلى الخزانة الثانية، مارًا بنافذتين كعينين تماثلان اللتين عند واجهة المنزل. تُطل النافذتان على الباحة الخلفية، ومن خلفها الغابة المنحدرة إلى أسفل التل. نظرت إلى الخارج لأرى ماجي وجيس يدًا بيد عند زاوية المنزل. لمحتني جيس فلوحت لي.

رددتُ إشارتها بالمثل مبتسمًا. مَرَّت أيام قليلة، وجسدي يؤلمني من فك الصناديق ورص الأغراض ونقل الأثاث، ومن ليالي الأرق، ومن القلق على مشكلات تأقلُم ماجي مع المنزل.

على الإفطار هذا الصباح، سألتها عن سبب فتحها لبابي الخزانة عند منتصف الليل، فأقسمت لي أنها لم تفعل. ذاب توتري الآن عندما رأيت زوجتي وابنتي يستمتعان بوقتهما في باحتنا الخلفية الجديدة، كلتاهما سعيدة وهما يستكشفان حدود

الغابة، فأدركت أن شراء هذا المكان كان أفضل قرار يمكنني اتخاذه.

بدأت فحص الخزانة الثانية التي كانت خاوية تقريباً إلا من صندوق حفظ أحذية على الرف العلوي، جواره دستة عبوات أفلام تصوير فوري. صندوق الأحذية أزرق، يحمل شعار «نايكي» على جانبه. بداخله سبب وجود كل عبوات الأفلام المذكورة، كاميرا تصوير فوري ومجموعة صور.

في البداية حملت الكاميرا بين يديّ، ثقيلة، مُكعبة. ضغطت زرها الجانبي فارتفع غطاء العدسة والفلاش. الزر العلوي يلتقط الصور. في الخلف عدّاد يحدد المتبقي من ورق التصوير فوري التحميض داخل الكاميرا، ويخبرني أنه لم يتبق سوى ورقتين.

قررت تجربة الكاميرا كما فعلت مع مُشغّل الأسطوانات. اتجهت إلى النافذة الخلفية فرأيت چيس وماجي بالخارج بعد، يتجهان إلى الغابة. كانت ماجي تجري وچيس في عقبها تناديها وتطلب منها التمهل.

ضغطت على زر التقاط الصورة وهما تدخلان الغابة، بعد لحظات من الأزيز والصرير، خرجت قطعة ورق مربعة من الفتحة في مقدمة الكاميرا. تدريجياً ظهرت الصورة إثر تعرضها للضوء، وتكونت الأشكال المضببة على خلفية بيضاء غائمة.

وضعت الصورة جانبًا حتى تظهر تفصيلها، وعدت إلى الصور المخزنة في الصندوق.

في واحدة منها رأيت كُرتس كارڤر يحدق إلى الكاميرا بنظرة خاوية وتعبير وجه جامد، ضوء الفلاش يحول بشرته إلى لون أبيض ناصع. بالنظر إلى ذراعيه الممدودتين إلى جانبي الكادر، أدركت أنه التقط الصورة بنفسه لنفسه، لكن الكادر نفسه كان معوجا، لا يظهر فيه إلا ثلثا وجهه وجزء من كتفه الأيسر. من خلفه يظهر المكتب بشكله الحالي، خال، مظلم، تجتمع الظلال في ركن سقفه البادي في الصورة.

عند إطار اللقطة الأبيض تاريخ مكتوب بقلم تظليل.

2 يوليو

مددت يدي إلى الصندوق أخرج صورة أخرى لأجد محتواها مماثلا. وجه كُرتس كارفر المنحرف عن منتصف الكادر، ومن خلفه غرفة المكتب، لكنِ التفاصيل مختلفة، فقد كان يرتدي قميصا أحمر غير الأبيض الذي كان يرتديه في الصورة السابقة. شعره أشعث يظلل خديه.

التاريخ المكتوب على الإطار: 3 يوليو.

جذبت ثلاث صور أخرى تحمل التواريخ 5 يوليو، و6 يوليو، و7 يوليو. كانوا مثل السابقتين.

بالتقليب بينهم شعرت كأنني أشاهد لقطات سينما متتالية التزمين. كصور تفتح الأزهار التي كانوا يعرضونها علينا في المدرسة الابتدائية. بدا لي أن زمن الصور بترتيبها الرقي يتوالى. مع كل صورة أرى وجهه يصير أرفع، ولحيته تصير أطول، وتعبير وجهه يزداد كآبة.

عيناه هما الشيء الوحيد الذي لا يتغير.

بالتحديق إليهما لم أرَ شيئاً. لا مشاعر. ولا إنسانية. عينا كُرتس كارفر في كل صورة مجرد خواءين داكنين لا يكشفان عن شيء.

خطرت لي مقولة سمعتها من فترة: «عندما تحدق إلى الهاوية، فالهاوية تحدق إليك.»

أعيد الصور مرة أخرى إلى الصندوق. رغم

وجود مزيد منها فيه، لا أجد في نفسي سعة للنظر إليها. لقد نلت كفايتي اليوم من التحديق إلى الهاوية.

أمسكت الصورة التي التقطتها وقد اكتمل تحميضها. أعجبني ما رأيت فيها. فقد نجحت في التقاط ماجي وجيس موشكتين على الغوص في قلب الغابة.

ماجي تكاد غير مرئية، مجرد لطخة بنية الشعر، حذاؤها الأبيض واضح وهي تجري. جيس كانت أكثر وضوحا وظهرها إلى الكاميرا ورأسها مائل، تمد ذراعها تزيح غصنًا متدليًا عن طريقها.

احتجت إلى لحظات كي أرى شيئًا آخر في الصورة غيرهما. عندما رأيته ارتعد جسدي مفاجأة. ضرب كوعي مشغّل الأسطوانات فأوقف أغنية Sixteen Going on Seventeen، التي كان يعرضها مطلقًا صريرًا حادًا.

تجاهلت كل هذا وركزت نظري على الصورة.

يقف عند حافة اللقطة شيء مسربل بالظلال، ظننته رجلًا، لكني لم أكن متأكدا. التفاصيل شحيحة. كل ما استطعت تبينه هيئة بشرية تقف في الغابة على بعد بضعة أقدام من صف الأشجار الثالث.

مَن -أو ما- هذا؟! لا فكرة لدي. كل ما أعرفه

أن مرآه بث رعدة الذعر في عروقي.

كنت بعد أحدق إلى الشيء في الصورة عندما شقَّت صرخة ظلام الغابة، صرخة عالية مرتعبة حتى أن صداها قد تردد داخل البيت.

وعرفت على الفور أنها صرخة جيس.

على الفور انطلقت من غرفة المكتب إلى الدّرج ومنه إلى الطابق الأول. خرجت ودرت حول المنزل سريعًا حتى وصلت إلى الباحة الخلفية حيث سمعت مزيدا من الصراخ.

صراخ ماجي هذه المرة، مع عويل ألم. أسرعت خطاي مخترقة حدود الغابة، تخبطت في الشجيرات والأغصان حتى وصلت إلى حيث جيس وماجي. رأيتهما على الأرض، جيس راكعة وماجي منبطحة جوارها تصرخ كصافرة سيارة إسعاف.

صحت وأنا أعدو نحوهما:

- ماذا حدث؟

أجابت جيس محاولة أن تُظهر هدوءها، لكنها فشلت:

- لقد سقطت.

خرجت كلماتها مرتعدة واهنة. أردفت:

- كانت تجري ثم تعثرت وسقطت فوق حجر أو ما شابه. إلهي، لكم يبدو الجرح سيئًا يا إيوان.

رأيت بركة دم صغيرة على الأرض جوار رأس ماجي. مرأى الأحمر القاني فوق خضرة طحالب الغابة أرعبني. أدرت ماجي التي تضغط بكفها على خدها الأيسر، والدم ينز من بين أصابعها. همست لها:

- اهدئي يا صغيرتي. دعيني أرَ الجرح.

انتزعت كف ماجي ورأيت أسفله شق تحت عينها اليسرى. لم يكن عريضًا، لكنه بدا عميقًا يستلزم الخياطة. خلعت قميصي وضغطته على الجرح آملًا في إيقاف النزيف، فصرخت ماجي مرة أخرى ألمًا.

قلت:

- يجب أن نذهب إلى الطوارئ.

برزت غريزة الأمومة عند جيس بقوة، فرفضت أن تدعني أحمل ماجي وقالت:

- أستطيع حملها.

رفعتها وأراحت جسدها على كتفها فنزفت الدماء على ملابسها. أضافت:

- الحق بنا عند السيارة.

رحلت، وماجي المنتحبة بين ذراعيها. تخلّفت عنهما حتى أفحص بدقة المكان الذي ارتطمت به ماجي. عثرت عليه بسهولة إذ رأيت الدماء تغطي سطح صخرة مستطيلة تبرز عن سطح الأرض بوصة أو اثنتين.

إلا أنها لم تكن صخرة.

هيئتها المستطيلة ليست بفعل الطبيعة. هذا، لصدمتي العاتية، شاهد قبر.

جثوت على ركبتيّ أمامه وأزلت عنه تراب العقود المتراكم. ظهر لي اسم مألوف، التربة المتراكمة داخل حروفه المحفورة أظهرته أكثر مقارنة بخلفيته الرخامية الفاتحة.

ويليام جارسن اب محبوب 1843 - 1912

السادس

بعدما رأيت هذا الشخص بالخارج، احتجت إلى ساعتين وقرص فاليوم كي أهدأ وأعود إلى الفراش، ناهيك بمشكلة النوم. حتى غزا رعب ليلي نعاسي. وأنا في الفراش أرى الشيء من الغابة يحوم فوقي، داكنًا أمام السقف الأبيض.

أستيقظ وأشهق، جسدي مغطى بغلالة من العرق اللامع في ضوء النهار القادم من النافذة. آخذ قرص فاليوم آخر. حقق مفعوله.

الساعة الآن السادسة صباحًا، ورغم أنني أود أن أظل في الفراش، لا أستطيع. لدي عمل يجب أن يُنجز.

لا توجد قهوة في المنزل، فألجأ إلى حمام بارد بديلًا عن الكافيين، أخرج منه متيقظة تمامًا، لكن في حالة يرثى لها، كأنني صفعت. جسدي وردي نابض. أنظر إلى مرآة الحمام فأرى كيف أظهر الماء البارد ندبتي أكثر في ضوء النهار المبكر. خط أبيض منتفخ الحواف على وجنتي الوردية.

أتناول لوح البروتين، وهو الشيء الوحيد القابل للأكل مما جلبته معي، ثم أتبعه بكوب شاي شنيع المذاق، وأعاهد نفسي على أن أذهب إلى متجر التسوق آخر اليوم.

أراجع ما ورد إلى هاتفي وأنا آكل. أجد رسالة نصية من أمي، أعرف من عنوانها أنها سمعت

رسالتي الصوتية.

خيَّبتِ أملي. لا تبقي هناك، رجاء.

أكتب ردي الذي أعتبره دُرَّة النضج.

حاولي مني.

أضغط أيقونة الإرسال ثم أصعد كي أجوّل في أرجاء غرفة إنديجو وقاعة الاستقبال بحثا عن سكين فتح الخطابات الذي فقد مكانه ليلة أمس خلال زيارة إلسا ديمتر الخرقاء وابنتها. هذا هو التفسير الوحيد. سكاكين فتح الخطابات لا تختفي من تلقاء نفسها، لكن بعد دقائق من البحث بلا جدوى، فقدت الأمل.

أقول لنفسي إنَّه في مكان ما هنا، غالبًا مدفون تحت رسائل البريد التي يعود تاريخها إلى سنوات. سيظهر في وقت ما، وإن لم يفعل، فلا بأس.

أخرج لأفرغ شاحنتي بحلول السابعة، وقبل وصول دين رغم أن المهمة لتكون أسهل في وجوده للمساعدة، لكني أنجزها بنفسي لأنني أولا لدي وقت لن أضيعه في الانتظار، وثانيا أريده أن يعرف أنني قادرة على ذلك وحدي، وأنه هنا للمساعدة لا لرفع حمل أغلب المهام.

يصل دين في الثَّامنة تقريبًا، فيجد أنني أفرغت نصف حمولة الشاحنة، وكدَّست الأدوات عند الممر. يعاين بنظره حاوية المِثقاب جوار السلم، ويبدو منبهرا.

يساعدني في إفراغ باقي الشاحنة وأنا أراجع خططي. سأخلي المنزل وأحتفظ بما يستحق الاقتناء، وأتخلص من الباقي. سنبدأ من الأعلى بمكتب أبي القديم، ثم ننزل إلى الأسفل غرفة فغرفة. لا أعرف بعد ما سأفعل بها جميعًا. أحتاج إلى مزيد من الوقت في المنزل قبل أن أعثر على فكرة تصميم جيدة. أميل إلى استقاء الأفكار مما هو موجود بالفعل. الأخشاب الغنية، النقوش، ألوان الأحجار الكريمة. لو أنني سأمنح كل هذا اسمًا لمنحته اسم الأناقة الفيكتوريّة.

نفرغ الشاحنة، ثم نأخذ صندوقين خاويين من الورق المقوى ونعود إلى الداخل. يبدو المنزل أكبر في ضوء النهار، وأكثر دفئًا. أغلب من لا يعرفون تاريخ المكان قد يصفونه بكونه مريحًا مرحِبا، لكن الماضي يخيم على كل ركن في بانبيري هول حتى أنني أشعر برعدة وأنا أعبر من أمام النافذة التي رأيت من خلفها دخيل ليلة أمس.

أسأل دين ونحن نصعد الدّرج إلى الطابق الثالث:

- معك مفتاح البوابة، أليس كذلك؟

- لن أكون حارسًا جيدًا ما لم يكن معي.

- ألم تجوّل في الأرجاء ليلة أمس؟ الساعة الحادية عشر تقريبًا؟

- كنت نائمًا في تلك الساعة وأنا جالس أمام مباراة فريق ريد سوكس. لماذا تسألين؟

- رأيت شخصًا في الغابة. على بعد بضعة أقدام من الباحة الخلفية.

يستدير دين على الدَّرج لينظر إليَّ في اهتمام متسائلًا:

- هل فعل شيئًا؟

- بحسب علمي فقد ظل واقفًا هناك ينظر إلى المنزل قبل أن يختفي وسط الأشجار.

يقول دين:

- هو على الأغلب غول.

- إذًا فهذا المصطلح ليس حكرًا على الشرطة.

- نحن جميعًا نطلق عليهم هذا الاسم. أغلبهم صبية محليون. سمعت أنهم يتنافسون في أن يتسللوا إلى المكان ويقتربوا من بيت الأهوال. هم غير مؤذيين، لكن ربما الأفضل أن تجعلي أمر تسللهم أصعب. البوابة الأمامية كانت مفتوحة هذا الصباح وكأنها دعوة للتطفل.

لو نحيت تنظير دين الذكوري، فلديه حق. لقد نسيت أمر البوابة ليلة أمس، وقد تعلمت الدرس الآن، ولن أكرر هذا ثانية. أقول وأنا أفتح باب غرفة المكتب:

- فهمت.

الجو حار بالداخل حتى والساعة لم تجاوز التاسعة، والشمس في طريق صعودها بعد من خلف أشجار الغابة. المكان مغبر، ذرات التراب تدور حولنا ونحن ندخل، تضيء بنور الشمس القادم من النافذتين الدائريتين. ينظر دين إلى أرجاء الغرفة مدهوشا ويقول:

- هذا مكان شاسع. ماذا تخططين له؟

- أفكر في تحويله إلى مَضيفَة، أو ربما جناح خاص لأقرباء العائلة.

- ستحتاجين إلى إلحاق حمّام به إذًا.

أجفِل لأنه محُق، وأقول:

- تركيب السِباكة سيكون أمرًا لعينًا.

يقول دين:

- وكذلك تكاليفها. أعرف أن ما سأقول يبدو جنونا، لكن إن أردتِ يمكنك التخلص من الأرضية..

- .. وأجعل الغرفة بالأسفل جناحًا رئيسًا بسقف شاهق..

- .. وإنارة سماوية!

نتوقف عن الحديث مبهوري الأنفاس. نحن نتحدث اللغة ذاتها. هذا جيد.

يقترب دين من أرفف الكتب على امتداد الحائط، وأقصِد أنا مكتب أبي، تراودني ذكريات

إفراغي وآلي شقته بعد أسبوع من وفاته. كان الأمر مؤلمًا، والشقة كلها تفوح برائحته، خليط مهدئ من رائحة الصوف وكولونيا بعد الحلاقة، والكتب القديمة. شعرت بأن جزءًا من وجوده حجب عني كلما وضعت شيئًا من أغراضه داخل الصناديق. كل سترة رثة، كل كتاب مهترئ. أمحو أبي جزءًا جزءًا، وقد صدمني هذا.

والأسوأ بعد هو العثور على صندوق مسودات في خزانة مكتبه، إلى جوار آلة الكتابة القديمة وطاقم من مضارب الجولف لم يستعمل إلا نادرًا. أكتشف أنه قد كتب خمس كتب بعد «بيت الأهوال»، كلها أدبية، وكلها لم تنشر، أحد الصناديق يضم خطابًا من وكيله القديم يخبره فيه أن أحدًا لا يريد قراءة شيئًا إلا قصة أشباح أخرى.

أفتح الآن درج مكتب أبي العلوي ببطء، أنتزع نفسي من علامات إخفاقه. لا أجد شيئًا بدخله سوى الأقلام ومشابك الأوراق، وعدسة مكبرة.

أما الدرج الثاني فيحمل مفاجأة.

نسخة الكتاب إياه.

أحمله وأنفخ عنه التراب. غلافة من الورق المقوى، طبعة أولى. أستطيع أن أعرف هذا لأنها الطبعة الوحيدة التي لا تحمل على غلافها الكلمات التي يتمناها كل الكتّاب. «الكتاب الأكثر مبيعًا

وفقًا لمجلة نيويورك تايمز» كل طبعة تلتها مطبوع عليها شارة الشرف هذه.

الغلاف جيد، يعزي كثير من الناس نجاح الكتاب إليه. على الغلاف رسم لبانيري هول من زاوية غير ممكنة في الحقيقة. منظور عين الطائر يظهر فيه البيت فوق التل، وضوء مخضر يتسلل من خلال نافذتي الطابق الثالث حيث أنا ودين الآن، فيبدو بانيري هول كأنما يراقبك. تحيط الغابة بالمنزل من كل الجهات، أشجارها تميل نحوه كأنها تتربص بتحركاته.

هذه هي الطبعة التي قرأتها في سن التاسعة. عرفت أن أبي قد كتب كتابا، وأنه نجح. أتذكر لقاءات قنوات التلفاز، وأضواء الاستوديو تؤذي عيني.

ما لم أفهمه تمامًا موضوع الكتاب، ولماذا يعامل الناس أبي بطريقة تختلف عن أي شخص آخر. عرفت السبب من زميلة الصف كيلي التي أخبرتني، وسحبت دعوتها لي لحضور حفل عيد ميلادها. قالت: «أمي أخبرتني أن أباكِ كتب كتابًا سيئًا، وأن المفترض ألا نظل صديقتين.»

في عطلة نهاية الأسبوع تلك تسللت إلى مكتب أبي وأخذت نسخته من الطبعة الأولى من فوق الرف. استهلكت صفحاته سرا على مدى شهر كأنه مجلة إباحية. قرأته جالسة تحت الأغطية، أضيء صفحاته بمصباح يدوي صغير.

كنت أقرأه بعد انتهاء اليوم الدراسي، وقبل عودة أبي من محاضرة الكتابة التي يدرسها فقط ليشغل وقته، وفي مرة دسسته في حقيبة المدرسة وأخذتها معي، وفوت الفترة الثانية من اليوم الدراسي لاستكمال قراءته في دورة مياه الفتيات.

كم كان مثيرًا قراءة شيء ممنوع. أخيرًا فهمت سبب حماسة رفيقاتي لسرقة الكتب المتحررة ممن يكبرهن من أخوتهن. لكن رؤية اسمي أبوي واسمي في الكتاب الذي يحكي وقائع لا أتذكرها جعلني أشعر بعدم الراحة.

ما أزعجني أكثر تحويل أبي لي إلى شخصية قصصية لا علاقة لها بحقيقتي، رغم أن أربعة أعوام كانت تفصلني عنها وقتها. لم أر شيئًا من نفسي في ماجي المذكورة في الكتاب. كنت أظنني ذكية جسورًا ذات عزيمة. ماجي في الكتاب خجول، جبانة، وحيدة، غريبة الأطوار، وآلمني للغاية أن أبي هو من رسمني بهذه الطريقة. هل هذا ما يظنه بي؟ هل يرى فتاة مذعورة فقط عندما ينظر إليّ؟ هل الآخرون يرون هذا؟

تركني الكتاب مُنتهكة، مُستغلَّة رغم أنني لم أعرف مسمى لهذه المشاعر وقتها. كل ما فهمته وقتها أنني محتارة، مُهانة، أسيء تقديم شخصيتي.

ولن أذكر هنا الغضب.

الأمر خانق لعين حتى أن نستخق الأصفر

عجزت عن التصرف في حنقي. تطلّبت مواجهة أبي بالأمر أسابيع، خلالها تغيرت وصايتهما عليّ، وسلِّمت لأمي كأنني عصا تمر بين المتسابقين في سباق التناوب.

صحت فيهما وأنا ألوح في وجهيهما بالكتاب:

- لقد كذبتما عليّ! لماذا فعلتما هذا؟

أخبرتني أمي أننا لن نناقش أمر الكتاب، وقال لي أبي لأول مرة إجابته المعدة مسبقًا:

- ما حدث قد حدث يا ماجز. لم أكن لأكذب بشأن شيء كهذا.

صرخت:

- لكنك كذبت! الفتاة في الكتاب ليست أنا!

قالت أمي محاولة إنهاء الجدل:

- بل أنتِ بالطبع.

- لا شيء فيها يشبهني!

ثم بدأت أنتحب، مما زاد شعوري بالمهانة. أردت أن أكون أقوى في مواجهة مقاومتهما.

- إما أنني الفتاة في الكتاب، وإما أنني أنا! أيهما أنا إذًا؟

رفض والداي منحي إجابة. تركتني أمي بعدما قبّلت وجنتي، وأخذني أبي لشراء مثلجات. مهزومة، حاولت ابتلاع غضبي كأنه قرص دواء مر، لكن هذا الموقف حدد مسار حياتي البالغة.

استمر صمت أمي وإنكار أبي، وبدأت رحلتي السرية على مدار سنوات للوصول إلى مزيد من المعلومات.

يعود لي بعض غضب الطفلة في التاسعة من عمرها وأنا أقلب صفحات الكتاب الآن. أقول:

- أنا أمقت هذا الكتاب حقًا.

ينظر إليّ دين نظرة فضولية ويقول:

- سمعت أنه جيد.

- لا.. ليس جيدًا.

ثمة جانب آخر من الكتاب مثير للحنق، النجاح غير المتوقع. لم يكن النقاد رحماء وقالوا إن الكتابة ركيكة، والحبكة غير أصلية. بمراجعات كهذه لم يكن لينجح إلى هذا الحد. لكنه كان مختلفا على صعيد الكتابة غير الروائية في ذاك الوقت، مقارنة مع الرائج من الكتب التي تتكلم عن دور الصلاة في الثراء، ووباء فيرس الإيبولا. نتيجة لهذا صار الكتاب يُقرأ لأن الآخرين يقرؤونه.

استمر في تصفح الكتاب، وأتجمد مكاني عندما ألمح عبارتين لفتتا انتباهي.

«ماجي، لا يوجد أحد هنا.»

«بل ثمة أحد! كلهم هنا! أخبرتك أنهم سيغضبون!»

أغلق الكتاب وأتركه يهوي إلى المكتب. أقول

لدين:

- يمكنك أن تأخذه لو أردت. بل يمكنك أخذ أي شيء من هذه الغرفة، لا شيء فيها ذو قيمة لدي، ولست واثقة بوجود سوق لعرض الخردة من منازل تسكنها العفاريت.

ثمة خزانتان، واحدة عند كل جانب من جوانب الغرفة، أبوابهما مائلة لتناسب ميل السقف. يتولى كل منا أمر خزانة. يفتح دين خزانته بصرير صدئ، يقول:

- لا شيء هنا سوى حقيبتي سفر.

أعبر الغرفة وأطِل من فوق كتفه. في قاع الخزانة حقيبتا سفر مربعتان. نجذبهما إلى الخارج ويفتح كل منا واحدة. داخل حقيبة دين مشغل أسطوانات، وفي حقيبتي مجموعة أسطوانات، الأسطوانة الأولى تحمل عنوانًا مألوفًا: «صوت الموسيقى.»

مرآها أرعدني مثلما حدث معي حين تأكدت أن أبي لم يكذب بشأن ترك كل شيء في البيت. أحاول طرد الخاطر، وجود تلك الأغراض لا يعني أن ما كتبه أبي حقيقي كله. يجب أن أتذكر أن بانبيري مليء بالأغراض المذكورة في الكتاب.

نصيحة أبي المفضلة للكُتاب: «اكتب عما تعرف.»

أقول وأنا أعود إلى خزانتي:

- مجرد خردة أخرى. يجب أن نتخلص منها.

لكن دين يرفع مشغل الأسطوانات إلى المكتب، ويتبعه بحقيبة التسجيلات. يقول وهو يفحص الأظرف:

- لا بُد أن نجربه. تختارين موسيقى الأفلام والعروض المسرحية أم موسيقى الأفلام والعروض المسرحية؟

أقول له بحدة:

- أفضِّل الهدوء.

يتراجع دين عن المكتب وقد فهم التلميح، وينضم إليّ عند الخزانة الأخرى التي فتحتها تواً.

- بداخلها دمية دُب محشوة.

- تجلس على الأرضية وتسند ظهرها إلى الحائط. فراؤها الذي كان بنياً تحول إلى الرمادي بفعل تراكم الغبار لسنوات. إحدى عينيها المصنوعة من الأزرار مفقودة، يتدلى مكانها خيط أسود يبدو كعصب بصري مكشوف. حول عنق الدب ربطة فراشيّة حمراء أطرافها منبعجة. يسألني دين وهو ينفض الغبار عن كتفي الدمية:

- هل هي دميتك؟

- لا. على الأقل لا أظن ذلك. لا أتذكرها.

يخطر لي خاطر حزين. ربما أن الدب كان لكيتي كارفر وقد تركوه هنا مثله كثل باقي

ممتلكات العائلة. لم يعرف أبي ماذا يفعل به، فوضعه في الخزانة ونسيه.

آخذ الدب من دين وأضعه على المكتب جوار مشغِّل الأسطوانات ثم أعود إلى الخزانة. شيء آخر بداخلها على الرف العلوي.

صندوق أحذية أزرق.

- مثل الذي يدعي أبي في الكتاب العثور عليه، وفيه صور غريبة لوالد كيتي.

يعود القلق أقوى من ذي قبل وأكثر إثارة للرعب. أحمل الصندوق بيدين مرتجفتين وأفتحه وأنا أعرف مسبقًا ما سأجد بداخله: كاميرا تصوير فوري ومجموعة صور.

وبالفعل أجدهما.

تحتل الكاميرا جانبًا من الصندوق، ثقيلة، مكعبة، والصور الخمس ملقاة عشوائيًا جوارها، لكن لصدمتي لم تكن أول صورة تحمل وجه كُرتِس كارفر الجامد، بل صورتي، بيني وبينها أقل تشابه، مثل تلك التي وجدتها في الصالون.

في الصورة أرتدي سروال جينز وقميصًا طُبع عليه صورة باتمان، وخلفي بانيري هول كأنه يتنصت علينا. يبدو من شكلي في الصورة أنني في الخامسة وقتها لأنني لم ألمح ندبة على خدي، وأعتقد أيضًا أنها التُقِطت في أول ثلاث أيام من إقامتنا هنا.

لم أجد الندبة أو ما يشير إليها في الصورة التالية

التي أقف فيها مع فتاتين أخريين، واحدة منهما أقرب إليّ في العمر، والأخرى أكبر بكثير. نقف مصطفات أمام خزانة غرفة نومي، تضيء أعيننا بالأحمر بسبب وميض فلاش الكاميرا، ما جعلنا نبدو كبنات الشياطين.

عرفت الفتاة الأصغر. رأيت ملامحها في المرآة التي قابلتها ليلة أمس. الاختلاف الوحيد أن خشونة الوقت الحالي لم تكن قد وجدت طريقها بعد إلى نسختها الأصغر.

هذه هانا ديمتر.

ما يعني أن الأكبر في الصورة هي بِترا.

كانت جميلة حتى أنها أبهرت أنفاسي. ساقاها طويلتان، بشرتها فاتحة، شعرها أشقر مضموم في عقصة فوق رأسها، وعلى عكسي أنا وهانا المتصلبتين في وقفتنا وأذرعنا ملتصقة إلى جنوبنا، تقف بِترا في وضع لعوب. كفّاها على جانبي حوضها، وساقها مثنية إلى الخلف تظهر قدمها الحافية ذات الأظفار المطلية بالأحمر.

كنّا في ملابس النوم، أنا وهانا نرتدي منامتين، وبِترا ترتدي قميصًا أبيض طويلًا وسروالًا قصيرًا. وتعلق أيضًا في جيدها صليبًا صغيرًا يتدلى من سلسلة ذهبية رفيعة.

أتذكر تلك الليلة، أو على الأقل ما ذُكِر عنها في الكتاب. الليلة التي بتنا فيها معًا في غرفتي ثم

انقلبت إلى كارثة. هذه الليلة هي أكثر ما ضايقني وأنا في التاسعة من عمري، إذ لا أتذكر أي شيء عن تلك الأمسية المريعة. أمضيت ليالي تالية مذعورة من أن يكون ما قرأته عنها حقيقي لأنه بالفعل مرعب. نوع من كوابيس أفلام الرعب التي لا يرغب أحد في تجربتها، لكني لم ولا أتذكر أي شيء من تلك الأحداث، ما يعني أن ثمة خطبًا بي وبذاكرتي.

بعد ليالٍ طوال قضيتها أحدق إلى السقف في غرفتي في منزلي أبوي المنفصلين، أدركت أن سبب عدم تذكري أي مما ذُكر في الكتاب أنها لم تقع قط.

ضممت إلى تلك الوقائع مع حدث في ليلة مبيتنا معًا.

لكن استنادًا إلى ما أراه في الصورة الآن أنا مُخطئة. لقد نمنا في غرفة واحدة في وقت ما من العشرين يومًا التي أقمناها في بانبيري هول. على الأقل جزء من الأحداث حقيقي.

بترا في الصورة التالية تقف في المطبخ مع أمي، تحدقان إلى فجوة كبيرة في السقف في وضع مشابه غير متعمد، ترفع كلتيهما رأسها وحنجرة كل منهما مكشوفة، يمكن للمرء أن يظنهما أمًا وابنتها. أتساءل إن كانت أمي قد رأت هذه الصورة، وإن كانت قد رأتها، فماذا كان شعورها وهي متمثلة في فتاة أصغر منها بالطباع والأنوثة

نفسيهما؟ ابنة لم تنجبا؟

ثمة شخصان آخران في خلفية الصورة. في المقدمة رجل مسن يرتدي قميصًا قطنيًا وسروال جينز يصعد سلمًا خشبيًا، ومن خلفه شاب يظهر بصعوبة. كل ما أستطيع تبينه منه نصف وجه، وذراع مثنية، وجزء من قميص أسود.

يبدو هذان والت هيبتس وأبي بعد يومين من واقعة المطبخ.

مثلها كمثل واقعة المبيت من أكثر أحداث الكتاب شهرة، ولو أنني سأصدق هذه الصورة، فالواقعة لها جذور حقيقية.

أمسك كلا الصورتين جنبًا إلى جنب وأفحصهما جيدًا، فتمتلئ معدتي تدريجيًا بشعور ممرض بدأ لحظة اكتشافي لصندوق الأحذية. شعور يتسلل حاملًا أخبارًا سيئة، وآمالًا محطمة، وكسر قلب مباغت.

شعور اكتشافي أن ما ظننته كذبًا حقيقي.

جزء مني يعرف أن هذا سخف بالكامل. الكتاب عمل خيالي حتى لو كان على غلافه عبارة «عن قصة حقيقية» تحت العنوان. رغم تأكيد أمي أن العمل خيالي، ظل صوت في عقلي يردد أنه ربما -ربما- أنا مخطئة. ذلك هو الصوت الذي همس لي ليلة أمس قبل إعلان إلسا ديمتر عن وجودها، وهمس لي أن الشخص في غرفة إنديجو هو السيد

ظِل.

أسمعه الآن يفح في أذني.

- *تعرفين أن هذا حقيقي. لطالما عرفتِ.*

ما أثار أعصابي أنني أدركتُ هذا الصوت العازم.

- صوت أبي قُبيل وفاته. أسمعه مُجددًا وأنا أخرج آخر صورتين من الصندوق. أولهما صورة لأبي التقطها بنفسه لنفسه، ذراعاه ممدودتان، ذقنه إلى أسفل، يظهر جزء من حائط عارٍ خلف كتفه اليسرى. يحدق أبي مباشرة إلى الكاميرا فيبدو كأنما ينظر إلى ما ورائها، إلى المستقبل، إلى عيني من مسافة طولها خمس وعشرون عاما.

يردد صوته:

لا تعودي إلى هناك أبدًا. المكان ليس آمنًا. لن تكوني آمنة فيه..

آمل أن تتوقف همسات أبي إن أشحت عن وجهه وتفحصت الصورة الأخرى التي تبين لقطة بزاوية مائلة من مكان عالٍ يطل على الباحة الخلفية. بالأسفل شخصان يدخلان الغابة.

أحدهما أمي.

- الآخر أنا في سن الخامسة.

هذه هي الصورة التي وصفها أبي في الكتاب، تلك التي التقطها بعدما عثر على كاميرا التصوير

الفوري مباشرة. انتقلت عيناي رغمًا عني إلى يسار اللقطة وأنا متأكدة أنني سأرى ما أخشى رؤيته.

ثمة هيئة ضبابية داكنة تختبئ خلف الأشجار.

ربما جذع شجرة مسربل بالظلال.

ربما شخص.

لا أستطيع أن أجزم لأن جودة الصورة متدنية، ما يظهر فيها مهتز خارج تركيز العدسة، يحيل كل شيء إلى صورة ضبابية تثير الغضب. عدا ذلك، الشيء خلف الظلال يبدو بشريًا.

- أسوأ ما في الأمر أن هذا الشيء كان يقف قرب المكان نفسه الذي رأيت فيه متسللًا ليلة أمس. قد يكون هذا مصادفة، لكن اضطراب معدتي يخبرني أنه ليس كذلك.

تعود همسات أبي مرة أخرى.

هذا هو السيد ظِل، تعرفين أنه هو.

لكن السيد ظِل ليس حقيقيًا. ما ذُكِر في الكتاب ليس حقيقيًا.

أستمر في التحديق إلى الصورة وأنا أفكر فيما حدث بعدها بلحظات. يدي تضغط خدي، أطراف أصابعي تلمس الجرح تحت عيني. أذكر أن الندبة دليل آخر على أن الكتاب مهما بدا خياليًا، يحوي شيئًا من الحقيقة.

تسقط من يدي الصور وتنتثر على سطح المكتب، تعلوها صورة أبي التي صورها لنفسه، عيناه تنظران إلى عينيّ كأنه يعرف ما أنويه تاليًا.

- الخروج من المكتب وترك دين وحده.

أخرج من المنزل كله، وأعبر إلى جوار المُعدات والشاحنة. أدور حول المنزل إلى الباحة الخلفية، ومنها إلى حدود الغابة.

- أرى نبتة لبلاب عظيمة تغطي حائط المنزل خلفي وتصل حتى الطابق الثاني.

أدلف إلى الغابة مُجسّدة صورة أبي. أهبط التل وأنا أنزل مهشمة العشب البري بخطواتي، وأعبر شجيرات التوت الأحمر الملتفة حول جذوع الأشجار.

أتوقف أخيرًا عند صف أحجار رخامية، تبرز من الأرض كأنها أسنان نخرة.

المقابر.

شيء آخر لم يكذب أبي بشأنه.

يناديني دين، يصل إليّ صوته من خلفي. هو في الغابة الآن يلحق بي، ثم يتجمد في مكانه عندما يرى شواهد القبور. يصيح:

- عجبًا.

- هذا ما أفكر فيه بالضبط.

أجثو جوار أقربها إليّ وأمسح عنها الغبار فأرى

الاسم المحفور على الرخام، وأضحك.

لا أصدق أنني ظننت ولو للحظة واحدة أن ما في الكتاب حقيقي. هذا يظهر براعة أبي في الكذب وكيف أنني سفهت من قدراته وموهبته. رصع أبي «بيت الأهوال» بشظايا من أماكن وأحداث حقيقية. لو أن قبورا قرب بيتك فطبيعي أن تذكرها. عندما تضيف حقائق كافية إلى قصتك الخيالية، وتخلطها بها حتى تصير كجحر ثعابين، ستجبر كثيرين على تصديقها. السياسيون يفعلون هذا طوال الوقت.

وللحظات كدت أصدق كل هذا. صعب أن أكذب أبي بعدما رأيت كل هذه الشواهد التي ذكرها في الكتاب. مشغل الأسطوانات. صورتي مع أمي. ليلة المبيت في غرفتي مع هانا وبترا. سقف المطبخ، المقابر. كل هذا جعلني أومن أن الكتاب حقيقي.

لكني الآن أنظر إلى شاهد القبر أمامي، وأدرك أنني كنت على صواب طوال حياتي والكتاب محض هراء.

روفر

كان كلبًا طيبًا.

يقف دين إلى جواري ينظر إلى الحجر ويقول:

- هذه مقابر حيوانات أليفة لعينة؟

- تبدو كذلك. إن لم تكن، يمكننا اعتبار أن آل

جارسن كانوا عائلة مخابيل.

نجوِّل بين القبور التي رغم قدمِها وغرابتها، لا تقارن أبدا بالمكان الذي كتب عنه أبي. ثمة شواهد قبور لعدد من الكلاب، وكثير من القطط التي فاقت قدرتي على الإحصاء، وأيضا قبر لحصان يدعى ويندي.

يشير دين تجاه قبر الأخير ويقول:

- ربما لهذا شبح حصان رآه والدكِ.

أغمغم:

- ليس للأشباح وجود. سواء أشباح خيول أو غيرها.

- لا تتسرعي في الحكم على وجود الأشباح.

- أنت لا تصدق كل هذا الهراء، أليس كذلك؟

تساءل دين متأمِّلًا:

- هل أومن بوجود الأشباح؟ ليس بالضبط، على الأقل ليس كما يظنه الناس من حيث كونهم ظواهر ما ورائية. لكني أومن أن أمورًا تقع ونعجز عن تفسيرها مهما حاولنا. الخوارق. كما تقول عنها جدتي.

- هل هي مؤمنة؟

- آه، أجل. كانت أيرلندية من الجيل القديم، تربّت على سماع قصص الأشباح ومخلوقات

البانشي الصارخة. لطالما رأيت اعتناقها هذه الأفكار سخفًا.

يخفض صوته حتى يصير همسات وهو يضيف:

- ثم رأيت شيئًا وأنا في العاشرة. ربما لم يكن شبحًا، لكنه شيء.

- شيء خوارقي؟

تحمر وجنتاه قليلًا ويحك ما خلف عنقه. حركة صبيانية -للغرابة- راقتني. من بين كل شخصيات دين هيبتس التي رأيتها خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية؛ الوسيم الساخر، الحارس، الموظف الشغوف، ذي الخبرة، هذه هي أكثر شخصية أحببتها.

يقول دين:

- كنا نعيش في بيت قديم على بعد عدة بلدات من هنا. كان شاهقًا ضيقًا، وغرفتي فيه في الطابق الأخير، منعزلة عن باقي المنزل. لم أهتم لهذا كثيرًا. كنت في العاشرة ورغبت في شيء من الخصوصية. في ليلة من ليالي أكتوبر استيقظت على صوت باب غرفتي يفتح، ورأيت رأس جدتي يطل من الفرجة. قالت لي: «أردت فقط أن أتمنى لك ليلة سعيدة يا ولدي»، ودائمًا ما كانت تناديني «ولدي». ثم غادرت مغلقة الباب خلفها. قبل أن أغوص في النوم، رأيت الساعة على الطاولة الجانبية للسرير تعلن الثانية

والنصف مساء. نزلت في الصباح إلى الطابق السفلي لأجد والدي يجلسان إلى الطاولة في المطبخ وأمي تبكي. بدا أبي مهموماً. سألتهما: «أين نانا؟ ولماذا لم يخبرني أحد أنها جاءت لزيارتنا؟» فأخبراني أن جدتي توفيت في الليل، بالضبط في الثانية والنصف صباحاً.

نقف صامتين بعد ما قال، فالكلام قد يقطع التواصل الغريب المفاجئ بيننا. الأمر يشبه ما حدث في غرفة المكتب لكنه أكثر حميمية لأنه حكى ذكريات شخصية.

أفكر في حكاية دين وسط الصمت، وكيف أنها عذبة أكثر منها مخيفة. جعلتني أتمنى لو أن أبي قال شيئاً مشابهاً قبل موته، لكن بدلاً عن هذا تلقيت تحذيراً غامضاً من بانبيري هول، واعتذاراً عن تصرف لم يعترف به، وهذا بالضبط ما قادني إلى هنا.

أقول بهدوء:

- لدي اعتراف.

فيقول مازحاً:

- دعيني أخمن. اسمك الحقيقي ويندي.

- تقريباً. أنا لم آت فقط لتجديد بانبيري هول. سبب عودتي الحقيقي محاولة اكتشاف سبب مغادرتنا بالطريقة التي غادرناه بها.

- هل تعتقدين أن ثمة ما لم يرو بعد؟

- أنا موقنة.

أخبره بكل شيء عن حكايتي مع الكتاب، وكلمات أبي الأخيرة الغامضة، ويقيني أن أبوي يخفيان الحقيقة عني طوال خمسة وعشرين عاما.

أضيف وأنا أومي تجاه قبر الكلب روفو:

- أعرف أن أبي كان كذّابًا، وأريد أن أعرف عمّا كذب ولماذا.

- لكنك تعرفين بالفعل أنه لم يقل الحقيقة، فلماذا تخوضين كل هذه المتاعب لتعرفي التفاصيل؟

- لأن..

أتوقف وأحاول أن أجد طريقة أصيغ بها ما أشعر به وتعجز الكلمات عن وصفه.

- لأن حياتي كلها بُنِيَت على محتوى الكتاب، ومع ذلك رفض والداي إخباري أي شيء عنه. لذا كبرت وأنا وحيدة حائرة، أشعر كأنني مِسخ لأن الجميع يظنونني ضحية شيء خوارقي.

يهز دين رأسه موافقًا، مستحسنًا استخدامي لمصطلح جدته.

- كلمة دقيقة.

أقول مبتسمة رغم الدموع المحتشدة في عيني:

- هذا صحيح.

أمسح عيني بظهر كفي قبل أن تفر عَبرة منها

وأضيف:

- لكني لم أمر بشيء خوارق، ولم يحدث أي مما زعمه أبي. الآن أريد أن أعرف القصة الحقيقية. ها هي الإجابة الشخصية المشوشة المُحرجة التي تريد.

يقول لي:

- شكرًا لصراحتك. لا بُد أن هذا صعب عليكِ.

- حقًا، لكن بانيري هول محاط بالأكاذيب، ويجب أن يعلن أحد الحقيقة.

29 يونيو
اليوم الرابع

عدت اليوم التالي إلى الغابة، هذه المرة مع هيبس. كانت جيس مع ماجي داخل المنزل تحاول تهدئة ألم ابنتها بأسبيرين الأطفال والإلهاء بالرسوم المتحركة. انتهت رحلتها إلى الطوارئ نهاية أفضل مما توقعت رغم أنها استغرقت ثلاث ساعات منذ وصولنا حتى مغادرتنا، واستنزفت كثيرًا من المال. لكن جرح ماجي لم يحتج إلى خياطة، وهو خبر جيد.

أما الخبر السيئ فهو المقابر داخل حدود ضيعتنا، ولهذا طلبتُ من هيبتس أن يرافقني، فقد احتجت إلى مَن يساعدني في إحصاء عدد شواهد القبور.

قال هيبتس بينما نمسح المكان بحثًا عن مزيد:

- سمعت شائعات حول وجود مقبرة هنا، لكني لم أصدقها.

كنا قد وجدنا ثلاثة عشر قبرًا، اثنين مخصصين لابن ويليام جارسن الأكبر، وحفيده -ويليام الأصغر وويليام الثالث- وقبر ثالث تحت السنين المكتوب عليه.

سألته:

- ألا يعرف أحد بأمر هذا المكان؟

أجاب هيبتس:

- أحدهم كان يعرف في الماضي، لكن بمرور الوقت وتغيير الأيدي العاملة واستمرار نمو نباتات الغابة اختفى كل شيء. الأمر محزن لو فكّرت فيه. مرقد أبناء عائلة كانت عظيمة قد تحول إلى جزء منسي من الغابة. ها هو قبر آخر.

وأشار إلى حجر آخر ناتئ عن الأرض، محفور عليه اسم وتاريخ.

إنديجو جارسن
ابنة محبوبة
1889 - 1873

قال هيبس:

- كانت بارعة الحسن. لوحتها داخل المنزل تشبهها في الحقيقة، أو هكذا قيل لي.

- هل تعرف كثيرًا عن آل جارسن؟

- آه.. سمعت عنهم كثيرًا عبر السنوات. جدي كان يعرفها في صباه وقال لي إنها نسخة اللوحة المطابقة، لذا كان طبيعيا أن يقع رسامها في حبها.

سألته:

- وهل أحبته هي؟

- أحبته. يقال إن الاثنين خططا للهرب

والزواج، وثارت ثائرة ويليام جارسن عندما اكتشف الأمر وقال لإنديجو إنها صغيرة للغاية بعد، رغم أن الزواج في سن السادسة عشر كان شائعًا وقتها. منع إنديجو من رؤية الرسّام مرة أخرى، فانتحرت حزنًا على فراقه.

ارتعدت لسماع أن ساكنًا آخر من سُكان بانبيري هول قد انتحر.

- كيف؟

- سممت نفسها.

ثم أشار هيبتس إلى موضع آخر أسفل التل حيث تجمع شجيرات توت ذات ثمار حمراء وقال:

- تناولت هذه.

- أكلت توت البانبيري؟

أومأ هيبتس إيماءة حزينة وأجاب:

- مأساة حقيقية. انفطر قلب جارسن العجوز. يقال إنه جلب ذلك الرسّام لرسم لوحته الشخصية على الجهة الأخرى من حائط المدفأة كي يظل هو وابنته إلى الأبد في البيت نفسه معًا. لم يشأ الفنان أن يفعل هذا، لكنه كان مفلسًا ولم يكن لديه خيار إلا الإذعان.

الآن أعرف سبب بشاعة ويليام جارسن في لوحته فوق مدفأة الغرفة الكبرى، فقد كرهه الرسام وأظهر كراهيته في اللوحة.

اقتربتُ من قبر السيد جارسن. ما زال شاهده مخضبا بدم ماجي الذي جف وتحول لونه إلى الأحمر الداكن. سألت هيبس:

- هذه القصة معروفة على أي نطاق؟ هل تعرف بها باقي البلدة؟

ابتسم ابتسامته الكاشفة عن سنّه الذهبية وأجاب:

- أظن الكل يعرفها. على الأقل كبار السن.

- ماذا تعرف أيضًا عن هذا المكان؟

أجاب في فخر ملحوظ:

- أعتقد أنني أعرف أكثر من الباقين.

- سألتني في يوم لقائنا الأول إن كانت جيني جون قد أخبرتني بالحكاية كاملة. وقتها ظننت أنها أخبرتني، لكن الآن..

- الآن تشك أنها أخفت عنك شيئًا.

- أجل، وأكون شاكرًا لك لو ملأت لي فجوات القصة.

قال هيبس وهو يتظاهر بالبحث عن مزيد من القبور:

- لست متأكدًا من أنك تريد معرفة هذا حقًا يا إيوان. ربما تظن أنك تبغي المعرفة، لكن أحيانًا ما يكون الجهل أفضل.

تصاعد الغضب في صدري حارًا مفاجئًا قويًا،

وساء الوضع عندما نظرت إلى أسفل لأرى دماء ابنتي على شاهد قبر ويليام جارسن. كنت حانقًا حتى أنني قطعت المسافة بيني وبين هيبس وقبضت على ياقة قميصه وأنا أصيح:

- أنت نصحتني أن أتهيأ لهذا المكان، لكني لست متهيئًا. لذا، إن كان ثمة ما لا تخبرني به، فالأفضل أن تقوله حالًا.

لم يدفعني هيبس، وهو أمر أشك في أنه قد يعجز عنه. رغم سنه فهو قوي ككلب بلدوج. انتزع أصابعي برفق عن ياقته وقال:

- هل تريد الحقيقة؟ سأعطيك إياها. أحداث مأسوية وقعت في هذا المنزل. ما حدث لإنديجو جارسن وآل كارفر.. لكن يوجد سواها، وكل هذه الأحداث.. تبقى.

أرعدتني الكلمة الأخيرة، ربما بسبب الطريقة التي نطقها بها هيبس. مطَّ حروفها ببطء، كأنه رباط مطاطي مشدود على وشك التمزق.

- هل تحاول أن تخبرني أن بانبيري هول مسكون؟

- أحاول أن أقول أن بانبيري هول يتذكَّر. يتذكر كل ما حدث فيه منذ ابتلعت إنديجو جارسن حبات التوت الأحمر. أحيانًا يجد التاريخ طريقة لتكرار نفسه.

احتجت إلى لحظات كي أستوعب كلامه بدقة.

كان غريبًا حتى صار عصيًا على الفهم، وعندما فهمت شعرت بدوار وكأنني سأهوي فوق قبر ويليام جارسن.

قال هيبس:

- لا أقول إن مكروهًا مشابهًا سيحدث لك، أنا فقط أقول إنَّ هذا وارد مثله كمثل احتمالية ضربِ البرق لبيتك. هل تريد نصيحتي؟ كن سعيدًا قدر ما تستطيع في هذا البيت. أحبب عائلتك. عانق ابنتك. قبِّل زوجتك. عرفت مما سمعت أن البيت لم يشهد كثيرًا من الحب، لذا لا يتذكر سوى الألم. كل ما تحتاج إلى فعله أن تنسيه.

***

عدت من الغابة لأجد ماجي ممددة على الأريكة في قاعة الاستقبال تتوسد رأس جيس. نصف خدها مغطى بضمادة كبيرة، والجلد من حولها محمر، وسرعان ما سيتحول إلى كدمة زرقاء.

سألتني جيس:

- كم وجدت؟

- نحو اثني عشر. هذا ما استطعنا العثور عليه على أي حال. لن أفاجأ إن وجدنا مزيدًا من القبور المخفية تحت النباتات.

- أريد خنق جيني جون اللعينة هذه. كان عليها أن تخبرنا أنه يوجد مدافن في باحتنا الخلفية.

- ربما لم تكن تعرف. القبور مخفية.

- هي سمسارة عقارات، وظيفتها أن تعرف كل شيء عما تبيع. أعتقد أنها كانت متأكدة من أنها لو أخبرتنا لخفنا، ولن تجد زوجين من الحمقى غيرنا تحتال عليهما.

- لم يحتل علينا أحد.

أقولها وقد بدأت أظن أننا حقًا وقعنا فريسة احتيال، وإن لم يكن احتيالًا فعلى الأقل ضللنا. لا بد لسمسار العقارات أن يعرف بوجود مقابر في المكان الذي يعرضه للبيع.

- ماذا قال هيبتس عن الأمر؟

في طريق عودتنا إلى المنزل قررت ألا أخبر جيس بطريقة موت إنديجو جارسن المأسوية، فهي تكاد لا تحتمل الوفاتين اللتين تعرف بأمر وقوعهما في بانبيري هول، وقصة موت ثالثة ستدفعها للهرب من المنزل بلا عودة. وبصراحة شديدة، لن نستطيع تحمل تكلفة هذا، فقد كلفنا شراء المنزل كل ما نملك ولم يتبق لنا مقدم لشراء منزل آخر أو حتى ما يكفي لإيجار شقة.

نحن -مهما كان الوضع- أسرى في هذا المكان.

ما يعني أن عليّ اتباع نصيحة هيبتس وجعل حياتنا في هذا المنزل سعيدة قدر الإمكان حتى ولو يعني هذا ألا أكون صريحًا مع زوجتي. لا يوجد خيار آخر.

قلت لها:

- لم يقل كثيرًا.

رفعت ماجي عن الأريكة وأنا أضيف:

- والآن لنذهب لتناول بعض المثلجات. ثلاث كُرات لكل منا. أظننا نستحقها!

***

رغم كل ما أخبرني به هيبنس صباحًا، فوجئت بإرهاقي الشديد قرب وقت النوم. كنت قد توقعت أنني سأظل متيقظا نصف الليل، خائف مما سمعت عن المقابر وإنديجو جارسن، والطريقة التي يتذكر بها بانبيري هول ما حدث فيه. بدلًا عن الأرق المُتوقع غصت في النوم لحظة وضعت رأسي على الوسادة.

لكن النوم لم يدُم طويلًا.

بعد خمس دقائق من منتصف الليل استيقظت على صوت غريب.

موسيقى.

أحدهم في مكان ما يغني.

رجل. صوته مخملي طروب. يصل إليَّ غناؤه من مكان بعيد من المنزل.

نظرت إلى الجهة الأخرى من الفراش لأرى إن كانت الموسيقى قد أيقظت جيس أيضًا، لكنها نائمة بعمق. أمِلت أن تظل هكذا، وتسللت من

الفراش خارجًا من الغرفة.

الموسيقى أعلى في الرواق حتى أنني عرفت الأغنية.

«*أنت في السادسة عشر، تعبرين إلى السابعة عشر..*»

الموسيقى تصدح من الطابق العلوي، وهي حقيقة اكتشفتها عندما وصلت إلى الجهة المقابلة من الممر. يمكنني سماعها تتردد عبر الدّرج المؤدي إلى غرفة مكتبي. صاحبت الموسيقى برودة قوية أرجفت جسدي.

«*يا صغيرتي، حان وقت التفكير..*»

صعدت الدرج ببطء متوتر. يرتفع صوت الأغنية مع كل خطوة، وتزيد البرودة. كنت واثقًا بأني لرأيت بخار الماء يتصاعد مع أنفاسي لو توافر ضوء كاف.

«*الأفضل أن تحذري..*»

عندما فتحت باب غرفة المكتب انطلق صوت الأغنية مدويًا كالانفجار. الظلام دامس بالدخل. نوعية الظلام التي تجمِّد المرء في مكانه. والبرودة عنيفة حتى انتصبت الشعيرات على جلد ساعدي المكشوفين.

«*.. كوني حكيمة..*»

خطوت إلى داخل الغرفة، أضم جسدي بذراعي من شدة البرد. ضغطت زر الإنارة على

الحائط فغمر الضوء المكان.

«.. وحذرة..»

مشغل الأسطوانات على المكتب حيث تركته، والقرص فوقه يدور بأقصى سرعة، وبأعلى صوت.

«صغيرتي، أنت في..»

رفعت الإبرة عن الأسطوانة، فدثّر الصمت المنزل كغطاء صوفي، وزال البرد فوراً، بل وتسلل الدفء إلى الغرفة. أو هكذا ظننت. يخطر لي وأنا أقف وسط الهدوء الجديد والدفء، أن ما حدث ربما من رسم خيالي.

لكن ليست الموسيقى.

- كانت واقعية للغاية.

الأسطوانة ما زالت تدور فوق القرص، الحُزوز على سطحها تعكس ضوء المصباح أعلاها. أغلقت المُشغِّل ولم أنقل بصري عنه حتى توقفت الأسطوانة عن الدوران تماماً. افترضت أن هذا من فعل جيس، وأنها صعدت إلى هنا في أثناء نوبةِ أرق، واستمعت إلى بعض الموسيقى قبل أن ترهق وتنزل لتنام.

أما البرد، فلا مُسبب له، ولا بُد أنني توهمته بطريقة ما. أي تفسير آخر مِثل تيار هواء، أو هبة ريح باردة من نافذة مفتوحة، ليس مقنعاً إن لم يكن مستحيلاً من الأساس. لذا، لا بُد أن خيالي صور لي هذا، وقد حرّكه ما ذكر هيبس

سابقًا. ها هو الهلع غير العقلاني الذي كنت أنتظره يباغتني بعد ساعات.

وهو بالضبط كما ذكرت، غير عقلاني.

البيوت لا تتذكر الأحداث. لا وجود للخوارق. لا سبب لخوفي من هذا المكان.

بعودتي إلى الفراش، كنت قد أقنعت نفسي أن كل هذا وهم، وأن كل شيء طبيعي، ولا شيء غريب يحدث في بانبري هول.

لكني اكتشفت أنني مخطئ.

مخطئ تمامًا.

السَّابع

أطلب من دين أن يظل في بيته في اليوم الذي تلا فحصنا المقابر. أشعر أن هذا قرار صائب بغض النظر عن أننا لم نُنجِز شيئًا. بعدما زُرنا ماضينا المسكون، استحق كلانا راحة.

أما أنا، فتضمنت فترة الراحة الذهاب إلى البلدة لشراء ما أحتاج إليه من بِقالة.

رحلتي بالسيارة إلى المتجر تقودني إلى شارع ميبل الشارع الرئيس في بارتلبي. أمر بمنازل مبنية بألواح الخشب، بالتأكيد قاسية صلبة كمن يسكنونها. واجهات المتاجر ضخمة، فوقها لافتات تعلن بيع شراب القَيقَب المحلّي الأصلي. أرى الكنيسة ببرجها العاجي الممتد نحو السماء. للبلدة أيضًا ميدان، رقعة مزروعة يتوسطها مقصورة وصارية علم.

على الرغم من كون البلدة لطيفة في المُجمل، ثمة دكنة تخيم عليها على عكس البلدات الصغيرة المُشابهة. شعور بأن الزمن مر بها ولم يتوقف عندها. على أنني لاحظت بعض علامات التمدن. مطعم سوشي، حانة للنباتيين. متجر يعرض ملابس من علامات تجارية عالمية، داخل واجهة عرضه فستان شِبه شفاف من تصميم جوتشي.

وأرى مخبزًا، ما يدفعني لضغط المكابح وسط شارع ميبل. بحسب خبرتي، أينما وجدت

المخبوزات، وُجِدت القهوة، وغالبًا ما تكون قهوة جيدة. المكان يستحق ضغطة المكابح المباغتة نظرا إلى حالة نقص الكافيين التي أعانيها.

أوقفِ السيارة إلى جانب الطريق، وأدخل إلى المخبز المزيّن بطريقة حديثة ممزوجة بالتراث القديم. من السقف تتدلى وحدات إضاءة نحاسية، وطاولات مكسوة بمربعاتٍ من السيراميك، حولها مقاعد غير متماثلة. معلق على الحوائط المطلية بالأزرق الداكن لوحات لطيور داخل إطارات مزخرفة. عند نهاية المتجر وِحدة عرض على طراز عتيق، تمتد من الحائط إلى الحائط، ممتلئة بالكعك بزينة السكّر والفطائر ذات الحواف العالية المموجة التي تليق بصورة إنستجرام. من مظهر المكان ومحتوياته أعرف أن صاحبه يعرف جيدا ما يفعل.

أتجه نحو وِحدة العرض وأنا أنوي أن أخبر السيدة خلفها كَم أنا معجبة بالتصميم. ماتت مجاملتي على شفتيّ عندما انتصبت المرأة المنحنية لأتبين مَن تكون.

مارثا كارڤر.

عرفتها من خلال الصورة التي رأيتها عندما كنت مهووسة بكتاب بيت الأهوال، أبحث في جوجل عما يسد فراغات معرفتي. هي الآن أكبر وأكثر ليناً. في الخمسينيات، ذات شعرٍ بني يبزغ الشيب من جذوره. تبدو أمومية نوعا بقميصها

الأصفر والمريول الأبيض فوقه. فوق عينيها النظّارة نفسها التي رأيتها في الصور من قبل.

يبدو أنني لست الوحيدة التي قامت ببعض البحث على جوجل، لأنني أرى أنها تعرف من أكون. تتسع عيناها كفاية لتفشي مفاجأتها، وتتقلص عضلات فكيها. تُجلي حنجرتها، فأهيئ نفسي لتلقي عاصفة غضب بشأن ما كتب أبي. تصرفها مبرر. من بين كارهي الكتّاب في بارتلبي، لمارتا كارفر العذر الأكبر لكراهيته.

وعلى عكس ما توقّعت، أجبرت شفتيها على الابتسام وهي تقول:

- ماذا أحضِر لك يا آنسة هولت؟

- أنا.

أردت أن أقول: «أنا آسفة».. « أنا آسفة لما فعله أبي بمأساة عائلتك في كتابه. آسفة لأنه بسببه عرف العالم كله بما فعل زوجك.»

لكن انتهى بي الأمر أقول:

- قهوة لو سمحتِ.

أختنق بالكلمات وأنا أضيف:

- سآخذها معي.

لم تقل مارتا شيئًا وهي تصب القهوة وتناولها لي. أجذب كلمة شكر من فمي، وأدفع لها ورقة نقدية بعشر دولارات، ثم أضع باقي ثمن القهوة في علبة

الإكراميات على السطح، وكأن السبع دولارات التي تركتها لها قد تعوض ألم خمسة وعشرين عاماً.
أقول لنفسي أن لا داعي للاعتذار. هذه فعلة أبي، وهو من أساء إليها. أنا ضحية مثلي كمثلها.
وأنا أغادر المخبز، أدرك أمرين.
- أولهما أنني جبانة.
- وآخرهما أنني آمل ألا أقابل مارتا كارفر طالما حييت.

***

أعود من متجر البقالة محملة بالأكياس الورقية في صندوق سيارتي. سأكدس مطبخ بانيري هول بالأطعمة المحفوظة سهلة التحضير. علب حساء، حبوب الإفطار، عبوات وجبات يمكن تسخينها في المايكرويف العتيق.
أتوقف أمام المنزل فأجد سيارة «تويوتا كامري» متوقفة في الممر الدائري أمام المدخل. سرعان ما يظهر رجل عند جانب البيت كأنه كان يجول في المكان. الرجل في أوائل خمسينياته، مهذب المظهر ذو لحية مشذبة، يرتدي سترة بنقش المربعات مع ربطة عنق مماثلة. ملابسه تعطي انطباعاً أنه مندوب مبيعات من زمن قديم، لا ينقصه لاستكمال الصورة سوى قبعة من القش وزجاجة دهن حيات. أدرك من يكون وهو يقترب مني بذراع ممدودة نحوي، وفي يده الأخرى دفتر من

دفاتر المُراسلين الصحافيين.

هذا براين برنس.

- لا أستطيع أن أقول إن أحدًا لم يُنذرني.

يهتف كأننا صديقان قديمان:

- سعيد لرؤيتك يا ماجي.

أقفز خارجة من الشاحنة وأنا أقول عابسة:

- أنت تتعدى على ممتلكاتي يا سيد برنس.

ينحني نصف انحناءة وهو يقول:

- تقبلي اعتذاري. سمعت بعودتك إلى البلدة، فقررت أن أقود سيارتي إلى هنا لأتأكد بنفسي. أدركت أنّ ما يقال حقيقي عندما وجدت البوابة الحديدية مفتوحة. أتمنى ألا يكون دخولي قد ضايقك.

أجذب كيس بقالة من الشاحنة وأحمله إلى الشرفة الأمامية وأنا أقول:

- هل سترحل لو كنت قد تضايقت؟

- بالتأكيد. لكني أنوي أن أعود مرة أخرى، لذا فالأفضل أن ننهي الأمر الآن.

- ننهي أي أمر؟

- حوارنا الصحافي بالطبع.

أعود إلى الشاحنة وأجلب مزيدًا من الأكياس وأنا أغمغم:

- أخشى أنني لا أستحق الظهور على صفحات الجرائد يا سيد برنس.

- لا، أختلف معك. أومن أن الناس سيهتمون لمعرفة أن أحد أعضَاء عائلة هولت قد انتقل للسكن في بانبيري هول.

- أنا لم أنتقل للسكن. في الحقيقية أنا أنتقل خارجة منه. ها هو خبرك في جملتين.

- ما خططك للمنزل؟

أجيب وأنا أومئ تجاه المُعدَّات جوار المنزل:

- سأصلحه ثم أبيعه آملة في مكسب منه.

- فكرة عودة بانبيري هول إلى سوق العقارات قريبًا خبر في حد ذاته.

أعرف أن براين برنس غير مُلام. لقد سمع قصة مغرية عن بيت مسكون، وحاور أبي ثم كتب ما قال. هو فقط يؤدي عمله كما أدت تيس ألكوت عملها. أبواي هما المسؤولان الوحيدان عمّا حدث، حتى لو لم يكونا على علم بما ستحدثه قصة بانبيري هول من ظاهرة لا تخفى. لكن كل هذا لا يستطيع كبح رغبتي في الإمساك بالمطرقة ومطاردة براين برنس حتى يخرج من أملاكي.

أقول له:

- سواء يستحق الأمر أو لا، أنا لا أريد الحديث معك.

- أبوك فعلها من قبل، لكن للأسف لم تواتِهِ الفرصة لإتمام الحوار.

أنزل الحقائب على أرضية الشرفة الأمامية وساقاي ترتجفان من المفاجأة. أسأله:

- أنت تواصلت مع أبي؟

- ليس كثيراً، كنا نتواصل من وقت لآخر خلال السنوات الماضية، ومن الأمور التي ناقشناها مؤخراً قبل تدهور حالته المرضية هو عودته إلى هنا وإجراء حوار صحافي معي.

- هذه فكرتك كما أفترض.

- في الواقع، كانت فكرة والدك. صاغ الأمر على هيئة حوار حصري تتحدث فيه من داخل المنزل بعد خمسة وعشرين عاماً من هجركم له.

هذا شيء آخر لم يذكره لي أبي، ربما لأنه كان يعرف أنني سأحاول إقناعه بالعدول عن الفكرة.

أسأله محاولة تبين ما إن كان أبي قد حاول استغلال الحوار في المصارحة بحقيقة الأمر أخيراً:

- ألم يُخبرك عن موضوع حواركما؟

آمل أن يكون الحوار اعترافاً بالجريمة التي ارتكبها، لكن براين برنس وأد الأمل حين يقول:

- أراد والدك إعادة التأكيد على ما ذكره في كتابه.

- وكُنت ستجاريه في هذا؟!

فكرتي عن براين برنس تتغير، وأرى أنه ربما يحمل شيئًا من ذنب ما حدث. أضيف:

- كنت ستُنصِت لأكاذيب أبي ثم تنشرها على أنها حقائق؟

يجيب في ارتباك وهو يُعدِّل من وضع ربطة عنقه:

- لم أكن لأجعل الحوارِ سهلًا عليه، ولوجهتُ إليه أسئلة صعبة وحاولت استخلاص الحقيقة منه.

- الحقيقة هي أنه اختلق كل هذا. الكُل يعرف.

- لا أظن الأمر بهذه البساطة.

لا يظهر على براين برنس أنه ينوي الرحيل قريبًا، فأجلس على درج الشرفة الأمامية. يجلس براين إلى جواري، لكني متعبة إلى درجة أنني لا أنهره، دعك من الفضول لمعرفة ما يظنه السبب الحقيقي لمغادرتنا بانيبري هول.

أسأله:

- هل تحققت من مزاعمه؟

يعترف قائلًا:

- ليس في وقتها. لم يكن مسموحًا لي بالدخول إلى هذا البيت، بالإضافة إلى الأخبار الأخرى التي وجب تغطيتها.

أرفع عينيّ إلى الأعلى وأقول:

- بالطبع لم يكن تقصي الحقيقة مهمًا، لجريدة «بارتلي جازيت» وضعت هراء أبي على صفحتها الأولى.

أريد أن أضيف أيضًا أن مقال برنس على الصفحات الأولى مع صور مرعبة لبانيبري هول هو ما جذب نظر باقي الصحف إلى الواقعة، ومنح أكاذيب أبي المصداقية. لو أن مقاله قد دفِن داخل الجريدة لماتت القصة معه.

- لو كنا تأخرنا في تسليم المقال يومًا واحدًا، لما نُشرت قصة عائلتك. لكني لم أسمع بخبر اختفاء ابنة ديمتر حتى الصباح، وكان مقالي عن المنزل قد وصل إلى المطبعة.

يتصلب جسدي لدى سماع اسم بِترا.

- كنت أظنها هربت.

يقول براين بابتسامة مراوغة:

- أرى أنكِ قد تحدثتِ مع رئيسة الشرطة ألكوت بالفعل. تقرير الشرطة الرسمي يذكر أن بِترا ديمتر هربت. أظن هذا أفضل من إعلان اختفاء فتاة في السادسة عشر في ظروف غامضة. خشوا جميعًا البحث عنها أو تقصي ما وراء اختفائها.

- ماذا تظنه حدث؟

- هذا من الأمور التي أردت سؤال والدك عنها.

تفيض أحشائي بشعور مقيت. رغم أنني لست واثقة بما ستقودني إليه عبارات براين، أعرف أن

نبرة صوته تشي بأنني لن أحب ما سيقول.

- ولماذا تسأله؟ أبي لم يدفع بِترا للهرب و...

يقاطعني براين:

- .. للاختفاء.

- للاختفاء، للتلاشي.. أيًا كان.

أقوم واقفة، أقصد الشاحنة، رافضة سماع ما يريد براين قوله بعد. أهتف:

- أبي ليس متورطًا في أيٍ من هذا.

يقول براين وهو جالس على الدرجات، يبتسم ويتظاهر بأنه زائر ودود:

- أنا أيضًا ظننت هذا، لكنني شككت لاحقًا -بعد صدور كتاب أبيك بسنوات- أن اختفاءها ربما يكون ذا صلة به.

- كيف؟

- بدايةً، شوهدت بِترا ديمتر آخر مرة يوم الخامس عشر من يوليو، الليلة نفسها التي هجرت فيها عائلتك هذا المكان. هذه مصادفة غريبة بعض الشيء، ألا ترين هذا؟

تضربني الأخبار بقوة، وللحظة أظن أنني سأفقد الوعي. أميل مستندة إلى الشاحنة كي لا أهوي.

بِترا ديمتر اختفت يوم فررنا من بانبيري هول. براين محق. الموضوع يبدو أكثر من مجرد مصادفة. بالتأكيد لم تفر بِترا مع عائلتي، وهو أمر لا بُد أنني

كنت لأتذكره، بالإضافة إلى زيارة رئيسة الشرطة إلى غرفتنا في الفندق. للاحظتُ وجودها لو كانت معنا.

أقول له:

- أراكَ تُبالغ.

- حقًا؟ قرأت كتاب أبيكِ عدة مرات، وقد ذكر فيه كثيرًا عن بِترا ديمتر. بَديا لي مقربين نوعًا على فارق العمر بينهما.

ضغط على كلمة «مقربين» ما جعل دمائي تغلي. ذُكرت بِترا كثيرًا في الكتاب، هذه حقيقي، غالبا في مواقف محورية. لا ينكر أحد هذا، وبخاصة ومعي الآن الصور التي تؤكد الأمر. لكن هذا لا يعني أنها وأبي كانا مقربين كما يزعم براين، بل ويؤكِد.

أعرف أبي أكثر مما يعرفه هو. ربما كان كذّابًا، فاتنًا. لكنه لم يكن مخبولًا أو زير نساء. أعرف هذا كما أعرف أن أمي لجردته من كل سِنت لو أنها اكتشفت خيانته، ولصارت الخيانة سبب طلاقهما. بما أنها لم تفعل هذا، فلا حيلة لي سوى الإيمان بأن بانبري هول هو ما فرق بينهما.

- أغلب ما في كتاب أبي أكاذيب، ولا يمكنك تصديق كلمة واحدة كتبها، بما في ذلك كل لحظة زعم أنه قضاها مع بِترا. لم يكن أبي أحمق يا سيد برنس. ما كان ليذكر بِترا بهذه الكثافة في كتاب

سيقرؤه مئات الآلاف لو كان هو المُتسبب في اختفائها.

- أنت الآن مَن يبالغ. أنا لم أقل قَط إنه السبب في اختفائها. أنا فقط أقترح أن بين فراركم واختفائها صلة. هربت عائلتك من بانبيري هول في توقيت اختفائها نفسه دون أثر. ليس هذا طبيعياً يا ماجي. ليس في مكان مثل بارتلي.

يقف براين وينفض الغبار عن سرواله وكأن الجلوس على عتبة بانبيري هول قد نجسه. يضيف في غموض:

- شيء غريب وقع يوم مغادرة عائلتك، وأنا عازم على معرفته. والآن، هل ستساعدني أم تعرقلني..

- متأكدة أنني لن أساعدك.

مع أنني وبراين برنس نتشارك الهدف نفسه، يبدو أننا نقصد نتائج مختلفة. يقول براين:

- على الرغم من أن جوابك ليس مما أحب سماعه، أنا أحترمه. لكن لعلمك، سأكشف حقيقة تلك الليلة.

- سيكون عليك أن تكشف ما تريد لكن خارج أملاكي، ما يعني أن ترحل، الآن.

يعدل براين ربطة عنقه مرة أخيرة قبل أن يركب سيارته ويبتعد بها. أتبعه سيرا على الممر الطويل المنحني حتى البوابة الأمامية. بمجرد أن

تأكدت أنه رحل، أغلقها بالقفل.

أعود إلى البيت بعدها وأحمل مشترياتي إلى الداخل. أعبر المدخل محمَّلة بالأكياس الثقيلة قبل أن ألاحظ شيئًا غريبًا.

الإضاءة عالية هنا جدًا.

أنظر إلى السقف، فأرى الثريا متوهجة. الغريب هنا أنها كانت مطفأة عندما غادرت المنزل. أحدهم أضاءها في غيابي.

30 يونيو
اليوم الخامس

صوت ارتطام

كما حدث منذ ثلاث ليالي، الصوت يرُج المنزل وينتزعني من نومي. انقلبت إلى جانبي ونظرت إلى الساعة الرقية على الطاولة الجانبية للسرير. الأرقام المتوهجة بالأخضر وسط الظلام تعلن الساعة 4:54.

الوقت نفسه الذي سمعت فيه الضجة من قبل.

الأمر مُقلِق، لكنه أيضًا مفيد، لأنه أكد لي أن ما حدث لم يكن حلمًا. هذا الصوت حقيقي ويصل إليّ من الطابق الثالث.

أنزل عن فراشي رغم السَّاعة المُبكِّرة وأصعد إلى المكتب بالأعلى. لم أر شيئًا غريبًا بالداخل. بابا الخزانة مغلقان ومشغل الأسطوانات ساكن.

ليس لديَّ فكرة عن مصدر الصوت. شككت أن السبب المنزل نفسه، شيء له علاقة بنظام التدفئة الذي يعيد تشغيل نفسه في الوقت ذاته كل ليلة. الخامسة إلا ست دقائق بدا توقيت غريب، لكني لم أجد سببًا آخر للأصوات.

بدلًا عن العودة إلى الفراش، نزلت إلى الطابق الثاني قبل الشروق للمرة الثانية منذ انتقلنا إلى المنزل. وللمرة الثانية أجد الثريا مضاءة. لظللت

أظن أن السبب مشكلة كهرباء لولا أنني سمعت مشغل الأسطوانات الليلة السابقة. واضح أن ما يحدث من فعل زوجتي الأرِقة المرهقة.

لحقت بي زوجتي إلى المطبخ في السادسة. حييتها بقولي:

- لم أكن أعرف أنكِ من محبي فيلم «صوت الموسيقى.»

- لست من محبيه..

وامتد الحرف الأخير متحولًا إلى تثاؤب ممطوط. قلت لها:

- ربما كنتِ كذلك ليلة أمس. لا أمانع في دخولك المكتب. فقط تذكري أن تغلقي مشغل الأسطوانات قبل مغادرة الغرفة.

نظرتْ إليَّ زوجتي نظرة حيرة ناعسة وتساءلت:

- أي مشغل أسطوانات؟

- ذاك الذي على المكتب. كان يدور ليلة أمس. أعتقد أنك وجدتِ صعوبة في النوم فصعدتِ واستمعتِ إلى بعض الموسيقى.

قالت جيس وهي تتجه إلى دورق القهوة:

- ليست لدي فكرة عما تتحدث عنه. لقد نمت طوال الليل.

ظهرت عليَّ الحيرة بدوري وسألتها:

- لم تدخلي مكتبي قط؟

- لا.

- ولِمَ تستخدمي المُشغِّل؟

صبّت جيس لنفسها القهوة وهي تقول:

- لو فعلتُ، لما اخترت أسطوانة «صوت الموسيقى». هل سألت ماجي؟ هي تحب هذا الفيلم. ربما كانت تستكشف المكان.

- عند منتصف الليل؟

أجابت وهي تجلس إلى طاولة المطبخ:

- لا أعرف ماذا أقول لك يا إيوان. هل شغلت الجهاز في وقت سابق؟

- أجل، لكن منذ يومين. قبل أن تُصاب ماجي.

- وهل أغلقته؟

لا أعرف. كل ما أتذكره أنني سمعت صوت الصرخات قادم من جهة الغابة، وأنني ارتطمت بالجهاز قبل أن أهرع مغادرًا الغرفة. وبين ذهابنا بماجي إلى الطوارئ، وبين استكشافنا المقابر في الغابة لم أعد إلى المكتب قبل ليلة أمس.

- لا أتذكر. أعتقد أنني لم أغلقه.

قالت جيس في نخر بعد رشفة كبيرة من القهوة:

- ها هو الحل. أنت تركته يدور، وشيء ما أنزل الإبرة على الأسطوانة، فصار البيت حيا بصوت

الموسيقى!

- وما الذي أنزل الإبرة؟

- فأر؟ ربما وطواط. المنزل عتيق وأنا متأكدة من وجود ما يعشش داخل هذه الحوائط.

أجفلت وقلت:

- لا أريد حتى أن أفكر في الأمر.

لكنني فكّرت. وارد أنْ حيوانًا يعيش في المكتب، وقد وجدت ثعبانًا من قبل في غرفة إنديجو. لكني أرى أن احتمال تشغيل حيوان لأسطوانة بعيد بعض الشيء.

بعد الإفطار عدت إلى الطابق الثالث وفحصت مشغل الأسطوانات. بدا كل شيء طبيعيًا. الجهاز مغلق والأسطوانة فوق القرص الدوّار، ولا أثر لوجود قارضٍ في أي مكان. دفعت الذراع لأرى إن كانَ سهلًا التحريكُ على حيوان.

ليس كذلك.

فرضية جيس غير دقيقة، وهذا يشير إلى أن ماجي هي الفاعلة. قبل أن أرحل نزعت قابس الجهاز على سبيل الاحتياط، ثم قصدت جناح ماجي وأنا مستعد لإخبارها أن عليها طلب الإذن قبل دخول المكتب. لم أرَ طريقة لمنع تكرار ما حدث إلا هذا.

وجدت ماجي وحدها في غرفة اللعب المجاورة لغرفتها. إلا أنها لم تكن تتصرف كأنها بمفردها.

كانت جالسة على الأرض وأمامها صف ألعاب، وبدت كأنها تحدث إلى شخص خيالي قبالتها.

قالت ماجي عبارة لطالما سمعتنا نقولها لها ونحن نتسوق:

- يمكنك المشاهدة، لكن لا تلمسي شيئًا. إن أردت اللعب فستحتاجين إلى البحث عن لعبك الخاصة.

أسألها وأنا واقف عند الباب:

- مع من تتكلمين؟

في شقة برلنجتون لم تُظهر ماجي علامات على وجود صديق خيالي، والصديق الخيالي الذي تحدثه الآن يجعلني أتساءل إن كان قد ظهر بسبب وجود ابنتي إلسا ديمتر قبل ثلاثة أيام. بما أنها خبرت اللعب مع آخرين، ربما تاقت مزيدا من الرفقة. قالت ماجي:

- مجرد فتاة.

- صديقة جديدة؟

هزت ماجي كتفيها وهي تقول:

- ليس بالضبط.

خطوتُ إلى داخل الغرفة محدقًا إلى الرقعة التي يُفترض أن صديقتها الخيالية جالسة عليها. رغم عدم وجود أحد، أرى أن ماجي أخلت مكانًا خصيصا لها.

- هل لها اسم؟

- لا أعرف. هي لا تستطيع الكلام.

جلست معها على الأرض، أنتبه لكي لا أغزو موضع صديقتها الخيالية. ما زلت أشعر بالذنب لاتهامي ماجي بالكذب عندما تحدثت عن الفتاة داخل الخزانة. لم تكن تكذب بل تراها بالفعل.

- فهمت. إذًا، أي واحدة منكما كانت في مكتبي ليلة أمس؟

نظرت إليّ ماجي النظرة الحيرى نفسها التي تلقيتها من جيس في المطبخ. أمالت رأسها ورفعت حاجبها الأيمن. الأم والابنة متماثلتان، الفارق الوحيد الضمادة التي تجمدت على جبين ماجي إذ رفعت حاجبها وهي تسألني:

- أي مكتب؟

- الغرفة في الطابق الثالث. أنتِ لم تصعدي إليها، أليس كذلك؟

- لم أفعل.

قالتها بطريقة جعلتني أظنها تقول الحقيقة. صوتها يحوي نبرة خواء غير معتادة عندما تكذب. التفتت إلى الفراغ أمامها وسألت:

- هل كنت بالأعلى؟

صمتت نتلقى إجابة صديقتها التي لن يسمعها سواها، ثم قالت:

- لم تصعد. لقد قضت الليلة الماضية في صندوق خشبي.

هاتان الكلمتان الأخيرتان -البريئتان في حد ذاتهما- اتخذتا معنى مشئومًا جديدًا عندما انضمتا إلى السياق. دفعتني الكلمتان إلى التفكير في تابوت ترقد فيه الفتاة الصغيرة. ابتسمت لماجي مخفيًا قلقي المفاجئ.

- أي صندوق خشبي يا حلوتي؟

- ذاك في الغرفة. الذي تعلق فيه أمي الملابس.

الخزانة. مرة أخرى. كم تركّز ماجي تفكيرها على هذه القطعة من الأثاث. قلت لنفسي إن ماجي في الخامسة فقط، وتفعل كل ما يفعله أغلب الأطفال في سنّها. تلعب. تتظاهر. لكنها لا تكذب.

ثم تذكرت تلك الأصوات التي ما أنفك أسمعها في أحلامي، والطرقة القوية التي ليست حلمًا بالتأكيد. كل هذا حثّني على التفكير فيما قال هيبس عن المنزل الذي يتذكر.

الطريقة التي انغلق بها باب غرفة ماجي تلك الليلة كأن قوة غير مرئية جذبته.. زحف الذعر على جسدي، وفقدت الرغبة في مسايرة خيال ابنتي. الحقيقة أنني لم أعد أريد شيئًا إلا مغادرة الغرفة.

- ليس لديَّ فكرة. لنخرج ونلعب معًا.

ثم صمت هنيهة أفكر في استفزاز خيال ماجي مرّة أخرى.

- يمكن لصديقتك الجديدة أن تخرج معنا.

قالت ماجي وهي تُمسك بيدي لتقوم:

- غير مسموح لها بالخروج.

قبل أن نغادر غرفة اللعب، التفتُّ نحو المكان الذي يفترض أن تكون صديقتها الخيالية جالسة فيه وهتفت:

- يمكنك البقاء في الغرفة، لكن قولي للآخرين إنني لا أريدهم هنا.

تصلَّبت مكاني بتأثير كلمة واحدة نطقتها ابنتي.

- الآخرين.

الفتاة غير المرئية التي كانت تكلمها ماجي وتلعب معها ليست صديقتها الخيالية الوحيدة.

***

قلت لجيس ونحن نتهيأ للنوم:

- أنا قلق على ماجي. أرى أنها معزولة أكثر مما ينبغي. هل تعرفين أن لديها صديقة خيالية؟

أطلّت جيس برأسها من حمام الغرفة، فرشاة الأسنان في يدها والرغوة تملأ فمها مثل كوجو(١):

- كان لدي صديق خيالي وأنا في سنها.

- أكثر من صديق واحد؟

- لا.

ثم اختفى رأسها خلف الباب وأضافت:

- ميني فقط.

انتظرت حتى أنهت غسل أسنانها وخرجت قبل أن أكمل:

- عندما قلت إنه كان لك صديقة خيالية اسمها ميني، فهل تقصدين ميني ماوس(١)؟

- لا. ميني مختلفة.

- وهل كانت فأرة؟

أجابت في خجل حتى أن كتفيها احمرَّا:

- نعم. لكنها مختلفة. أقسم لك. ميني صديقتي كانت في مثل طولي، ومغطاة بالفراء. كأنها فأرة حقيقية لكن عملاقة.

اقتربت من خلفها وضممتها بين ذراعيّ مُقبِّلًا كتفها قرب حمالة رداء نومها. بشرتها دافئة بعد. همست:

- أعتقد أنك تكذبين.

اعترفت جيس:

- حسنًا.. صديقتي الخيالية كانت ميني ماوس. خيالي سيئ للغاية. أعترف بهذا. هل أنت مسرور الآن؟

- مسرور دائمًا طالما أنا بجوارك.

اندسسنا فِي الفراش، وتكوَّرت جيس بين ذراعيّ. أردفتْ:

- خيال ابنتنا أفضل من خيالك. أعتقد أنها تعاني الوحدة.

- ستلتحق بالمدرسة الخريف المُقبل، وستقيم صداقات.

- ماذا عن باقِي الصيف؟ لن نتوقع أن تقضيه بسلام وسط أصدقاء خياليين داخل جدران المنزل.

- ما البديل؟

لا أرى إلا بديلًا واحدًا يعيش خارج سور بانبيري هول. أجبتها:

- أعتقد أن علينا دعوة ابنتي ديمتر للعب معها.

- تعنِي أن نحاول التوفيق بينهما وبينها؟

لا بُد أن هذه هي الطريقة الوحيدة بما أن رفاق لعبها السابقين غير متاحين هنا. لكن مع شخصية هانا المتزعِّمة، وخجل ماجي الطبيعي، لن يتوافقا كما ينبغي. علينا أن نوجِد علاقة أقوى بينهما أكثر من لعبة الغميضة.

- أفكر في ليلة يبيتن فيها معًا.

- كلتا الفتاتين وماجي؟ ألا ترى أن بِترا أكبر من أن تستمتع بمرافقتهما؟

- إلا لو دفعنا لها أجر مجالستهما، يمكنها أن تعتني بماجي وهانا يا حبيبتي، بينما نستمتع نحن بمواعدة خاصة.

قبّلت كتفها مرة أخرى، ثم جانب عُنقها، فذابت جيس هياما وقالت:

- كيف قد أرفض وقد صغت الأمر بهذه الطريقة؟

قلت وأنا أجذبها أكثر نحوي:

- عظيم. سأتصل بإلسا غداً.

هكذا استقر القرار وستحصل ماجي على أول مبيت مع رفيقاتها، ثم تكشَّف لنا أن هذا قرار سنندم عليه لاحقاً.

الثّامن

تصل إليّ رسالة من آلي في المساء.

«فقط أطمئن عليكِ. كيف حال المنزل؟»

أكتب لها:

«به إمكانات جيدة»

ترد آلي عليّ برمز رفع الإبهام التعبيريّ، ثم تكتب:

«لا أشباح، كما أظن.»

«ولا أي شبح»

لكن كثيرًا مما يجري في البيت لا يتوافق معي. الشخص الذي يقف خلف المنزل ليلا على سبيل المثال، أو الثريا التي تُضاء من تلقاء نفسها، والتي أقلقتني حتى أنني سألت دين إن كان قد دخل المنزل في غيابي، فأقسم لي أنه لم يفعل.

كل ما أخبرني به براين برنس دفعني إلى الجلوس في المطبخ ومعي نسخة الكتاب، وصور أبي الفورية مصفوفة أمامي. أقلِّب صفحات الكتاب بحثًا عن تفسير لما يلمِّح له براين، على الرغم من أن تورط أبي في علاقة غير لائقة من هذا النوع مع بترا، أمر مرفوض، وبصراحة مقزز.

بُعيد زواج أمي وكارل، سافرت وأبي إلى باريس في رحلة. لم أشأ أن أفعل، فقد كنت في الرابعة عشر وهي السن التي لا ترغب فيها الفتيات في

الظهور برفقة أبويها في أي مكان. لكني أدركتُ أن أبي لم يبدُ في حال جيدة مع قرار أمي بالزواج من بعده، وأنه يحتاج إلى هذه الرحلة أكثر مما أحتاج أنا.

سافرنا قبل بضعة أشهر من توقفي عن السؤال عن الكآب، وقد عرفت أنني لن أحصل على إجابة صريحة. سألت عنه مرة واحدة فقط خلال الرحلة -سألته ونحن أمام الموناليزا وقد اتبعت طريقتي في السؤال المفاجئ- وتلقيت إجابة أبي المحفوظة. لذا، لا أتذكر من الرحلة أكثر من شطيرة الكروك مسيو، ومن نادل المطعم الحالم المتغزِل جان بول، ولحظة الصراحة النادرة خلال نزهة مسائية تحت ظل برج أيفل. سألته:

- هل تعتقد أنك قد تتزوج مرة أخرى كما فعلت أمي؟

مضغ أبي قضمة من خبز الباجيت مفكرًا ثم قال:

- غالبًا لا.

- لماذا؟

- لأن أمك هي المرأة الوحيدة التي أحببت.

- أما زلت تحبها؟

أجاب أبي:

- كحقيقة راسخة؟ أجل.

- لماذا انفصلتما إذًا؟

- أحيانًا يا ماجز يمر الزوجان بأمور شنيعة لا يقدر الحب حتى على إصلاحها.

صمت بعدها، وتمدد على العشب يشاهد غروب الشمس من خلف برج أيفل. رغم أني أعرف أنه يشير في إجابته إلى الكتاب، لم أجرؤ على سؤاله عنه. لقد خلع عنه درعه توًا، ولا أريد الضغط عليه.

ربما لو فعلت، لحصلت على إجابة حقيقية.

أضع الكتاب جانبًا وأمسك الصور، أولي اهتمامًا أكبر لتلك التي تظهر فيها بِترا. لأول وهلة أرى الصور بريئة. مجرد مراهقة على طبيعتها. لكن معاني أخرى تَسللت إلى الصور كلما حدَّقت إليها. الصورة المُلتقطة في المطبخ دون معرفة أمي وبِترا بوجود مصوِر تعطني شعورا غير مريح، كأن المصوِر يتلصص.

الأسوأ بعد في صورة الليلة التي بِتنا فيها معًا. بِترا في منتصف اللقطة. واضحة مسيطرة، كأنني وهانا غير موجودتين. تدرك بِترا فيها -على عكس صورة المطبخ- أنها تصوِر، ويعجبها هذا. تضع يديها على خصرها، وتقدِم ساقًا مثنية أمام الأخرى كما وضعية التصوير في الأربعينيات. كأنها تغازل المصوِر، الذي هو أبي.

أرمي الصور مقلوبة على الطاولة، شاعرة بخيبة أمل من نفسي لأنني استسلمت لشائعات

وحكايات.

من خلفي يدق أحد الأجراس المُعلَّقة على الحائط.

دقة واحدة، رنّانة.

يفزعني الصوت فأقفز عن مقعدي الذي ينقلب ويسقط على الأرض. أستند إلى الطاولة، حافتها تدفع أسفل ظهري وأنا أنظر إلى الأجراس. لا صوت في المطبخ سوى صوت دقات قلبي الشبيه بقرع الطبول داخل صدري.

أريد أن أصدق أنني لم أسمع شيئًا. وأن ما سمعت ليس سوى أوهام سمعية عابرة مما تصيب الجميع. طنين أذنين ربما. أو مثلما تسمع اسمك ينادى وسط شارع مزدحم جراء تفسير عقلك غير الدقيق لضوضاء عشوائية.

لكن قلبي الواجف يخبرني أنني سمعت ما سمعت ولا أتخيل.

أحد هذه الأجراس دق توًا.

ما يؤدي بي إلى حقيقة واحدة لا يمكن إنكارها، ثمة شخص آخر في المنزل.

أدور حول الطاولة ولا أرفع عينيّ عن الأجراس في حال دق واحد منها مرة أخرى. أتحرك إلى الخلف حتى أصل إلى طاولة المطبخ، يداي تنزلقان على سطحها حتى تجدا ما كانتا تبحثان عنه.

- حمّالة السكاكين تحمل ستة منها.

أنتزع أكبرها، ذات النصل الذي يزيد طوله عن سبع بوصات. أرى انعكاسي يرتجف على معدنها اللامع.

أبدو مذعورة.

بل أنا مذعورة.

أرفع السكين أمامي، أتسلل خارجة من المطبخ، ثم أعتلي الدرجات. لا أسمع الموسيقى إلا عندما وصلت إلى الغرفة الكبرى. نغمة حالمة عرفتها فورا قبل أن أسمع الكلمات تطفو من مكان ما بالأعلى..

«أنت في السادسة عشر، تعبرين إلى السابعة عشر..»

يتوقف قلبي -الذي كان يدق بعنف حتى ثوان مضت- ما يجعل صوت الأغنية يبدو أعلى.

«يا صغيرتي، حان وقت التفكير..»

أسير عبر الغرفة الضخمة على ساقين خدرتين من أثر الخوف، حتى أنني أشعر كأنما أطفو. عندما أصل إلى مقدمة البيت ألاحظ أن الثريا تتأرجح كأن أحدهم يقفز على أرضية الطابق الذي يعلوها.

«الأفضل أن تحذري..»

لدي خياران هنا.. الفرار أو مواجهة أيًا كان

في المنزل، أريد أن أفر. جسدي يرجوني ويرتجف بلا انقطاع. أختار المواجهة على أنها ليست أحكم الخيارات. الهرب يؤدي فقط إلى مزيد من الأسئلة، أما المواجهة فلن تؤدي إلا إلى الحصول على إجابات.

«.. كوني حكيمة..»

يستقر عقلي أخيرًا، فأتحرك ولا أعطي لجسدي فرصة الاحتجاج. أهرع صاعدة الدرج، أعبر ردهة الطابق الثاني ومنها إلى الدرج الصاعد. أجري وأرى أخيرا باب غرفة المكتب مغلقًا أمامي.

«.. وحذرة..»

أنطلق نحو الباب، يدي تقبض على مقبض السكين، أصرخ وأنا أتقدم. شيء من هذه صرخة دفاع عن النفس، وشيء منها محاولة لضبط من بالداخل متلبسا، والباقي ذعر انطلق مني كما أنطلق أنا إلى الغرفة.

«صغيرتي أنتِ على حافة الهاوية..»

الغرفة خاوية، لكنَّ المَصابيح مُضاءة ومُشغِل الأسطوانات يدور، وبأعلى صوت.

«أنت في السادسة عشر...»

أنفض الإبرة بعيدًا عن القرص الدوَّار. نبضي ما زال يطرق صدري. أمسح الغرفة لأتأكد أنها خالية بالفعل. لا بد أن أيًا من كان هنا قد

غادر بمجرد أن شغّل الموسيقى وضرب الجرس في طريقه إلى الخارج.

هذا يعني أن المتسلل غول. أحد الصبية الحمقى ممن قرأوا الكتاب سمع أنني هنا وأراد أن يعيد تمثيل أحد المشاهد منه. العيب الوحيد في نظريتي أنني أغلقت وأقفلت البوابة بعد مغادرة براين برنس، كما أوصدت الباب عندما عدت إلى المنزل. كيف دخل مجنون «بيت الأهوال» هذا؟

تحجَّر السؤال وأنا أنظر مرة أخرى إلى المكتب وألاحظ أمرًا. كما اختفت فتّاحة الخطابات من قاعة الاستقبال، اختفت دمية الدب التي وجدتها أنا ودين.

1 يوليو
اليوم السادس

«يقول إننا سنموت هنا.»

حتى وقت نطق هذه العبارة لم يميز اليوم شيء إلا أنه غير مميز. لم تدق الأجراس، ولم تخرج علينا الأفاعي، ولم نكتشف شيئًا مقلقًا. لو أن الطرقة اليومية في الساعة الخامسة إلا ست دقائق قد حدثت، فقد نمت ولم أسمعها.

كان اليوم يومًا عاديًا، أول يوم عادي لنا في بانبيري هول.

ثم نطقت ابنتي تلك العبارة، وكل شيء تدهور.

استدعيتُ چيس على الفور عالمًا أن الأمر يحتاج إلى كلينا للتعامل معه. وقتها لم أعرف ما علينا فعله. واحد من أصدقاء ابنتنا الخياليين أخبرها أننا سنموت. لم يناقش أحد هذا في أي كتاب تربوي.

قالت چيس وهي تجلس على الفراش وتحيط ماجي بذراعيها:

- السيد ظِل ليس حقيقيًا، وليس شبحًا. هو مجرد جزء من خيالك، له صوت شرير يخبرك أمورًا غير حقيقية.

ظلت ماجي غير مقتنعة. هتفت:

- لكنه حقيقيّ! يخرج بالليل ويخبرني أننا سنموت.

- هل يخبرك باقي أصدقائك أمورًا مشابهة؟

- ليسوا أصدقائي.

قالتها ماجي بطريقة فطرت قلبي، كأنها تخبرنا أن ليس لديها أصدقاء، ولا حتى أصدقاء خيالية. أضافت:

- هم فقط أشخاص يدخلون غرفتي.

سألتها جيس:

- كم قابلتِ منهم؟

- ثلاثة.

ثم رفعت يدها تُحصي على أصابعها وهي تقول:

- السيد ظِل، والفتاة بلا اسم، والسيدة وجه القِرشَين.

تبادلت وجيس نظرة مهتمَّة. أيًا كان ما يجري فهو ليس طبيعيا. سألتها زوجتي:

- وجه القِرشَين؟ لماذا تطلقين عليها هذا الاسم؟

- لأنها تضع قرشين على عينيها، لكنها تستطيع رؤيتي رغم هذا. هي تراقبنا الآن.

ثم أشارت ماجي نحو الركن المجاور للخزانة ذات البابين المائلين. لم أرَ شيئًا سوى مكان خالٍ حيث زاوية التقاء السقف المائل بالحائط. لم ترَ جيس شيئا أيضًا لأنها قالت:

- ليس من أحد هنا يا حلوتي.

صاحت ماجي وهي على شفير البكاء:

- بل ثمة أحد! هي تنظر إلينا الآن!

يقينها مُقنع للغاية حتى أنني ظللت أحدق إلى الركن بحثاً عن أحد وسط الظلال هناك. أبحث بلا طائل عمّا لا أستطيع رؤيته، لكن ابنتي تراه حتى ولو بعيني خيالها.

ثم سمعنا ضوضاء.

طرقة.

- تأتنا من مكان ما عند الرواق. طرقة واحدة على الأرضية الخشبية. سألت جيس:

- ما هذا بحق الجحيم؟

- لا أعرف.

ثم دوت طرقة أخرى.

- بصوت أعلى هذه المرة، كأن الفاعل قد تحرك إلى مكان أقرب من غرفة ماجي.

طرقة ثالثة ورابعة.

ما زال الصوتُ يدوي، الطرقة الرابعة أعلى صوتاً من سابقاتها. سألتني جيس:

- هل تظنها أصواتاً من المواسير؟

- إن كانت كذلك، فلماذا لم نسمعها من قبل؟

طرقة.. طرقة.. طرقة..

ثلاث طرقات ترتفع أصواتها تدريجياً حتى كأن آخرها يأتي من خارج الغرفة مباشرة. التصقت

ماجي بأمها، وقالت بعينين متسعتين لا تطرفان:

- هذا هو السيد ظِل.

هدهدتها چيس وهي تهمس:

- ماجي، كفى. هو ليس حقيقيًا.

ربما السيد ظِل ليس حقيقيًا، لكن الطرقات بالخارج حقيقية. التفسير الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه هو التفسير الأوضح: ثمة من تسلل إلى بانبيري هول.

همست:

- يوجد شخص في المنزل.

الجلَبة الآن لا تتقطع، مدوية، لصيقة. بدت أنها تعبر من أمام باب الغرفة رغم عدم وجود مؤشرات على حركة مرافقة للصوت.

طرقة.. طرقة.. طرقة.. طرقة..

وبدأ الصوت يتراجع مبتعدًا، يبدو وكأنه يتجه إلى نهاية الممر المؤدي إلى درج الطابق الثالث.

قمت من الفراش عازمًا على تتبعه.

- امكثي أنتِ وماجي هنا.

احتجّت چيس هاتفةً:

- إيوان، انتظر..

لو أنها قالت شيئًا آخر فأنا لم أسمعه، إذ كنت أهرع بالفعل عبر الممر محاولًا تحديد مصدر الـ..

طرقة.. طرقة.. طرقة..

نظرت نحو كلا اتجاهَي الممر. لا شيء هنا قد يُحدِث صوتًا غريبًا كـ..

طرقة.. طرقة.. طرقة..

الصوت صار أهدأ كأنه انتقل إلى جزء آخر من المنزل. سمعت طرقة أخيرة قبل أن يختفي الصوت تمامًا، تاركًا إياي واقفًا وسط سكون الممر.

لكن الهدوء لم يستمر مطولًا.

خلال ثوان سمعت صوتًا آخر.

- موسيقى.

- تصدر من الطابق العلوي.

«أنت في السادسة عشر، تعبرين إلى السابعة عشر..»

اندفعت صاعدًا الدَّرج إلى الطابق الثالث، أصعد درجتين فدرجتين حتى بزغ باب مكتبي أمامي، ورأيته مغلقًا وخطًا منيرا رفيع يظهر من فرجته.

- *«يا صغيرتي، حان وقت التفكير..»*

شعرت أن الأفضل أن أستدير عائدًا إلى حيث أتيت، لكن الأوان قد فات. أيًا من كان خلف الباب قد سمعني أقترب، واندفاعي أجبرني على التقدم. صعدت باقي الدرجات وعبرت الباب إلى داخل المكتب.

«الأفضل أن تحذري..»

المكتب خاوٍ كما كان تلك الليلة، ليس فيه سواي ومشغِل الأسطوانات يدور ويدور..

«.. كوني حكيمة..»

أغلقت الجهاز، فتشوّهت الأغنية إذ يبطئ القرص الدوّار حتى يتوقف. فحصت المكتب بعد ذلك وأنا أتساءل: أين اختفى الدخيل؟

وكيف تسبب في صوت الطرقات؟

وما إن كان الأمر سيتكرر مرة أخرى.

لقد حدث هذا من قبل منذ ليلتين، ولم يكن المتسبب فيه چيس أو ماجي أو فأر لعين.

إدراكي أن منزلنا اقتُحم أرعدني. بيدين راجفتين أزلت الأسطوانة عن القرص الدوّار ووضعتها في مظروفها. رأيتُ ألا أدع للمتسلل فرصة أخرى ليشغلها للمرة الثالثة، ثم انتزعت القابس وأعدت الجهاز إلى حقيبته، ثم وضعت الحقيبتين في الخزانة حيث وجدتهما.

ثم نزلت لأتصل بالشرطة.

***

الشرطية التي جاءتنا هي الضابطة تيس ألكوت. كانت صغيرة السن ولأول وهلة لم أصدق أنها شرطية. بدت كأنها خريجة المصباح اليدوية لا أكاديمية الشرطة. أظن أن الضابطة ألكوت قد تلقّت الملاحظة ذاتها كثيرًا، حتى أنها قدّمت نفسها إليّ في عجرفة مفتعلة.

سألتني وسِن قلمها يضغط على صفحة دفترها الصغير:

- هل سُرِق شيء؟ هل فُقِد شيء ثمين؟ أي أموال؟

- لم ألحظ اختفاء شيء محدد، فأغلب هذه الأغراض ليست أغراضنا، وقد ورثناها بشراء المنزل. لذا من المحتمل أن فُقِد شيء ونحن لا نعرف ما هو.

كنا ثلاثتنا في قاعة الاستقبال. أنا، وجيس المستندة إلى حافة الأريكة في عصبية، والضابطة ألكوت تقف أمامنا تنظر إلى أرجاء الغرفة. سألتنا:

- كُرتس كارفر وزوجته سكنا هذا المنزل من قبلكما، أليس كذلك؟

أجابت جيس:

- نعم. هل تظنين أن لهذا علاقة بحادث الاقتحام؟

- لا أرى مانعًا عن هذا.

ضيقت عينيّ وأنا أسألها في فضول:

- إذًا لماذا تسألين؟

- لكي أمشط سجلاتنا وأرى إن كانت قد وقعت اقتحامات خلال فترة إقامتهما هنا. كيف دخل المتسلل؟ أفترض أن الباب الأمامي لم يكن

موصدًا.

قلتُ:

- بل أوصدته بالرتاج قبل أن أصعد لأضع ابنتي في فراشها، وظل موصدًا حتى بعد دخول المتسلل.

- إذًا هل يمكن أن يكون قد دخل من نافذة؟

قالت جيس:

- كلها مغلقة.

رفعت الضابطة ألكوت عينيها فجأة عن الدفتر الذي تكتب فيها وسألت:

- هل أنتما واثقان بوجود متسلل من الأساس؟

أجبتها وأنا مدرك مدى سخف ما سأقول، وكأنني طفل مرتعب من خياله مثل ماجي:

- لقد سمعنا أصواتًا..

قالت الضابطة ألكوت:

- كل البيوت تصدر أصواتًا.

- ليس هذا النوع من الأصوات.

حاولت جاهدًا وصف صوت الطرقات وكيف تحركت عبر الممر، حتى أنني ضربت الأرض بقدمي محاكيًا. عندما بدت الضابطة غير مقتنعة، أضفت:

- سمعتُ موسيقى أيضًا. أحدهم شغّل جهاز الأسطوانات في مكتبي. حدث هذا مرتين حتى

الآن.

التفتت الضابطة ألكوت إلى جيس وسألتها:

- هل سمعتِ صوت الموسيقى؟

أجابت وهي تنظر إليَّ نظرة معتذرة:

- لم أسمعه في المرتين.

أعادت الضابطة الدفتر إلى جيبها وهي تقول:

- اسمعا، لو أن شيئًا لم يُسرق ولا علامة على اقتحام، وواحد منكما فقط سمع..

قاطعتها:

- سمع كلانا صوت الطرقات.

رفعت الضابطة ألكوت كفها لتُهدئني وقالت:

- لست واثقة بما تريدني أن أفعل هنا.

- أريدك أن تصدقينا.

- سيدي، أنا أصدقك بالفعل. أصدق أنك سمعت شيئًا وظننته بالفعل متسللًا، لكني أرى أن ما سمعت ليس كما ظننت أنك سمعته.

فهمت وقتها شيئًا من حنق ماجي كلما تحدثنا عن أصدقائها الخياليين. التكذيب يثير الجنون. أنا أقول الحقيقية، وما حدث قد حدث بالفعل.

- إذًا المفترض أن ندع هذا يحدث مجددًا؟

أجابت الضابطة ألكوت:

- لا. أتوقع أن تتصرف بذكاء، وتتصل بنا فور

رؤيتك أي شيء مريب.

لم يفُتني اختيارها للكلمات.

رؤيتك أي شيء مريب، لا سماعك.

غادرت الضابطة ألكوت بإيماءة تحية، وتركتني وجيس لحيرتنا. فعلت ما يمكنني فعله، بحثت في أرجاء المنزل عما يمكنني استخدامه لصنع نظام أمن.

- مجموعة بطاقات لعِب.

عدة بكرات من الخيوط.

علبة طبشور.

- سألتني جيس وأنا أمزق قطعة ورق مقوى:

- ماذا ستفعل بكل هذا؟

- سأتأكد من أن أحدًا يتسلل إلى بيتنا.

دسست قطعة الورق بين الباب وإطاره لتسقط إن فتحه أحدهم. أضفت بعدها:

- لو دخل أحد، فسيخبرنا هذا إلى أين اتجه الدخيل.

ثم انحنيتُ أرسم على الأرض بالطبشور خطًا رفيعًا أمام الباب، ثم مددت خيطًا عبر المدخل بارتفاع كاحل الإنسان. لو دخل أحد فسأستطيع أن أتأكد، فالخيط سينقطع وخط الطبشور سيتلطّخ.

سألتني جيس:

- كم عدد الأماكن التي ستفعل فيها هذا؟

أجبت:

- الباب الأمامي وعند كل نافذة.

بحلول الوقت الذي آويت فيه إلى الفراش كنت قد مددت خيطًا أمام كل نافذة يمكن فتحها في المنزل، ودسست قطعة ورق مقوى بين مصراعيها والإطار.

أيًا كان المتسلل، أنا مستعد لزيارته القادمة.

أو هكذا ظننت.

اتضح لي لاحقًا أنني لم أكن مستعدًا لأي شيء تخبئه لنا الأقدار.

التّاسع

كنت أنظر بعد إلى المساحة الخالية على سطح المكتب عندما جذب شيء آخر انتباهي. عند طرف مجال إبصاري، استشعرت حركة عند إحدى نوافذ الغرفة. أهرع نحو الزجاج، فأرى عبره ظلًا حالكًا يختفي داخل الغابة خلف البيت.

في لمح البصر، اتخذتُ طريقي عدوًا، عكس طريقي صعودًا إلى هنا. أهبط الدّرج، أعبر الردهة، أنزل مزيدًا من الدرجات. أتخذ طريقي إلى الباب الأمامي، أتوقف لحظة لآخذ المصباح اليدوي من صندوق المعدات في الغرفة الكبرى.

ثم أخرج، أدور حول المنزل وأندفع إلى الغابة. المكان شديد الظلمة هنا وقد خسفت الأشجار ضوء القمر. أضيء المصباح اليدوي. يرتعش الضوء على العشب أمامي، ينير رقعًا عشوائيّة من شجيرات التوت الأحمر.

أصيح في الظلام:

- أعرف أنك هنا! رأيتك!

لا أتلقَّ ردًا. ولا أتوقّع واحدًا. أنا فقط أريد أن أعلم من هنا أنني رأيته، آملة أن هذا وحده قد يمنعه من زيارته تالية.

أكمل طريقي إلى الغابة، أهبط جانب التل، فتسرع خطواتي، وسرعان ما أصل إلى مقبرة الحيوانات الأليفة. شواهد القبور المتآكلة يضفي

عليها ضوء المصباح اليدوي ضبابًا. أتركها خلفي وأتجه إلى السور الحجري على قاعدة التل. يبدو مخيفًا في الظلام، بارتفاع عشرة أقدام، وبسمك جدار حصن.

الوقوف جواره يجعلني قزمة، والمفترض أن يُشعرني هذا بالأمان. لا يمكن لأحد أن يعبر من فوق ذلك المانع، ولا حتى باستخدام سلم. هذا الاستنتاج يدفع إلي بسؤال مقلق: كيف دخل هذا الغول إلى أملاكي؟

تصل إليَّ الإجابة بعد دقيقة، عندما أقرر أن أخرج من الغابة متبعة امتداد السور نحو البوابة الأمامية. أمشي قرابة خمسين ياردة قبل أن أرى جزءًا في الجدار متهدمًا. ليست فجوة كبيرة، بل فتحة بعرض قدم بطول الجدار، كما لو أن شخصًا يستخدم إصبعه ليقطع شريحة من الزبدة. لو أردت العبور منها يجب أن أدخلها بجانب جسدي. بمجرد أن أخرج إلى الجهة الأخرى منها، ولم أعد داخل حيز بانبيري هول، ألمح كوخًا عبر الأشجار، لونه أصفر في نور النهار لكنه يبدو الآن أبيض تحت ضوء القمر. نافذة واحدة مضاءة خلفها تتراقص صور بألوان الأزرق والأخضر على شاشة تلفاز.

هذا كوخ دين أو آل ديمتر، لا أعرف يقينًا من يعيش على أي جانب من الطريق. لا بد أن أعرف، بما أن المدخل الجانبي لمنزلي ليس بعيدًا

عن الفناء الخلفي لمنزل هذا الشخص.

كل من دين وهانا ديمتر لا يحتاجان إلى التسلل لدخول ملكيتي. كلاهما معه مفاتيح البوابة والباب الأمامي. يُمكنهما التجول مباشرة بداخله وقتما يشاءان.

هذا ما يؤكد أن من دخل إلى المنزل تسلل ورحل من هذهِ الفجوة. كل ما يحتاج إليه هو عبور الفتحة المُهدمة. الأمر الصعب هنا هو معرفة وجود هذا المدخل، ولن يدهشني لو أن أهل بارتلي وما حولها يعرفون بشأنه.

أعود إلى المنزل، بخُطى مُسرعة، وقد اقتنع عقلي فجأة بوجود مزيد من الغيلان على الطريق، وبأنني أحتاج إلى أن أحمي نفسي منهم. أعود إلى الداخل وأحمل السكين، وأفتش بانبيري هول. مهمة تثير الأعصاب. أفتح كل باب ولا أعرف ما قد يختبئ خلفه. أضغط كل مفتاح إنارة وأتوقع الأسوأ في كل نانو ثانية من الظلام قبل إضاءة المصابيح مرة أخرى.

في النهاية أتأكد أن بانبيري هول خالٍ.

أما إلى كم من الوقت، فليس لدي فكرة.

- لهذا آخذ صفحة من كتاب أبي.

حرفيًا.

- نزعت الصفحة مباشرة من نسخة الكتاب على طاولة المطبخ، ومزقتها إلى أجزاء صغيرة. شعور

طيب يغمرني، أنا لم أشوّه كتاب أبي من قبل، والرضا الذي أشعر به الآن جعلني أتمنى لو أنني فعلت ذلك منذ سنوات.

أفكر في أبي وأنا أدس وُريقَة تحت عتبة الباب، وأتساءل ما إن كان سيسعَد لو رآني أفعل ما كتب في الكتاب. غالبًا لا. لو أنه سيشعر بشيء لشعر بخيبة الأمل لخيانتي لوعدي بعدم العودة إلى بانبيري هول.

حاولت بكل طريقة ألا أخذله. رغم أنني أنعته بالكاذب منذ كنت في التاسعة، لكني سعيت إلى رضاه عن كل خطوة أخطوها. ربما نبع هذا من اعتقادي أنني لو أكدت له أنني ابنة جيدة فسيمنحني أخيرًا إجابات شافية، ويخبرني بالحقيقة وراء الكتاب. أو ربما ما أفعل ناتج عن تمرد العيش وسط عائلة مفككة. بما أنني أعرف أنني لن أرقى إلى مستوى توقعات أمي العالية، قصدت معايير أبي الأكثر تواضعًا.

لا يعني هذا أنه لم يكن أبًا جيدًا. بل كان رائعًا على عدة أصعدة، ليس فقط لأنه أفسدني بالتدليل، إنما لأنه كان مراعيا عطوفًا، ولم يهِنِّي أو يقلل مني مثلما تفعل أمي. ولم يستهن بي قط.

منحني قائمة من الكتب لأقرأها خلال سنوات طفولتي ومراهقتي. واقترح عليّ أفلامًا أشاهدها وموسيقى أستمع إليها. نوعيات فنية لا يرشحها أحد لمراهقة. أفلام بيرجمان. ألبومات مايلز ديفيز.

روايات تولستوي وجويس وبينشون. كل شيء مما ذكرت كان علامة على أنه ظن أنني قادرة على فتح عقلي وتوسيع آفاقي. ورغم أنني لم أكن أهتم بموسيقى الجاز أو رواية «قوس قزح الجاذبية»، بذلت جهدي لتقدير ذائقة أبي. آمن أبي بي، ولم أرد أن أخذله.

لكنني خذلته على أي حال. عندما التحقت بالجامعة وقررت أن أدرس التصميم، لا الصحافة أو الأدب الإنجليزي، فدست أحلامه عن نشوء كاتب آخر في العائلة. وخذلته مرة أخرى عندما استقلت من وظيفتي المملة المستقرة في مجال التصميم وبدأت شركتي الخاصة مع آلي.

تلك الأخيرة بدأت فترة علاقة متذبذبة بيننا حتى وفاة أبي. قال لي في مرة إن علاقتنا كزهرة جميلة لكن تحوطها الأشواك. أشبهها أنا بالجو دائمة التقلب. مرت فصول ثلجية. أوقات دافئة. وشهور تهاتفنا فيها يوميًا، وأخرى صمتنا فيها تمامًا.

أغلب هذه التقلبات بسبب تأثري بالكتاب وعلاقته به. لو مرت علي فترة لم يربطني فيها أحد بـ «بيت الأهوال»، أعامل أبي على أنه أفضل أصدقائي. لكن لحظة أن تقربني الأقدار إلى الكتاب وتوثقنا معًا، أصير باردة، لدودًا.

في هذه الأثناء، أخذ أبي ينعزل عن العالم، فأغلق على نفسه شقته مع كتبه الحبيبة وأفلامه الكلاسيكية. ذات مرة في موضوع لبرنامج

حواري ذائع الصيت، كان عازمًا على التحدث عن أي شيء له صلة بالماورائيات حتى صناعة النشر، لكنه قطع اتصاله بكل وسائل الإعلام. لمدة طويلة ظننته سئم الحياة مع الأكاذيب التي خلقها، ولم يعد يرغب في أي صلة بها. تواصله مع براين برنس يقول عكس كل هذا.

تغيرت علاقتنا عندما مَرِض. كان سرطانه عنيفًا، يُنشب أنيابه فيه بسرعة ودون رحمة. لم يكن مِن وقت للشفقة من جانبي. أردت فقط أن أبقى بجواره حتى النهاية.

بحلول الليل، كنت قد وضعت قصاصة من الكتاب تحت إطار كل نافذة وعند رتاج الباب الأمامي.

أذهب إلى غرفتي.

أغلق رتاج بابها.

أضع السكين الذي كنت أحمله على أقرب منضدة جوار الفراش. آخر ما سأفعل الليلة تناول قرص فاليوم، ثم الاندساس تحت الأغطية ومحاولة النوم حتى وأنا أعرف أنه سيجافيني.

2 يوليو

اليوم السابع

لم أنم طَوال الليل. تمر الدقائق وتجتمع على شكل ساعات. ظللت متيقِّظًا أحدق إلى السقف، أفكر في التوقيت وكيفية دخول أي شخص إلى المنزل. الليل مليء بالضوضاء، كلها أصوات بريئة. لكن علمي بهذا لا يمنعني من التفكير في أنه المتسلل وقد عاد لجولة أخرى. أفكر في الحائط الحجري والبوابة المصنوعة من الحديد المطاوع عند نهاية ممر السيارات، وكيف سخرت في مرة من وجودهما. الآن أتمنى لو كانا أعلى.

بحلول الوقت الذي خفَّت فيه ظلمة الليل قُرب الفجر، تحولت أفكاري إلى أمر آخر.

صوت طَرقَة.

ها قد بدأنا.

نظرت إلى الساعة فوجدتها 4:54. التوقيت مضبوط.

هجرت نيَّة النوم، ونزلت عن الفراش بهدوء كي لا أوقظ جيس وماجي التي قضت الليلة معنا. تسللت إلى الأسفل وقوبِلت على الفور بمنظر الثُريا المُضاءة، وهو أمر مستحيل. لقد تأكدت من أنها مُطفأة قبل النوم ليلة أمس.

خشيت أن يكون متسللًا آخر قد دخل إلى

البيت، فهرعت إلى الباب. الخيط مشدود كما هو أمامه. خط الطبشور لم يمسح. قصاصة الورق المقوى محشورة بين الباب وإطاره.

اطمأننت إلى أن الباب لم يُقتَحم، فنزلت إلى المطبخ لتحضير قهوة عالية التركيز، ثم صببتها في كوب ضخم بحجم صحن الحساء. بعدما رشفت منه بضع رشفات أيقظتني، عدت لأفحص باقي أرجاء المنزل ونوافذه بصورة منهجية، كل شيء كما الباب، لا أثر لشيء إطلاقًا.

لم يدخل أحد.

لا أحد سوانا نحن الدجاجات.

استخدمت جدتي تلك العبارة كثيرًا عندما كنت صبيًا، وأبناء أعمامي يلعبون الغميضة في الحظيرة الهائلة خلف المنزل. كنت أصغرهم سنًا وحجمًا، لذا كانت جدتي تختبئ معي، وتضمني بين ذراعيها، ثم تكوِّر جسدها الرشيق خلف كومة قش، أو داخل مكان مقفل مظلم يفوح برائحة الجلد وزيت المحركات. عندما يقترب أحد أبناء عمومتي بحثًا عني، وينادي متسائلًا إن كان أحد هنا، كانت جدتي تجيبه: لا أحد سوانا نحن الدجاجات!

تأكدت من تأمين المكان، وعدت إلى المطبخ لجلب كوب قهوتي. بينما أرتشف منه مرة أخرى إذ لاحظت غبارًا منتثرًا على سطح الطاولة.

يختلط بقطع كُسارة رمادية صغيرة.

ثم شعرت به.

شيء داخل الكوب.

شيء صغير رفيع كالسّوط.

- مسحت شفتي العلوية قبل أن أحك أسناني متقززًا من الطعم الغريب والملمس الزّلِق.

أبعدت الكوب عن فمي. سالتِ القهوة التي لم أستطع ابتلاعها على ذقني. ورحت أغرغر وأختنق بما تبقى منها في حلقي.

نظرت إلى الكوب. موجة دائرية انتشرت فوق سطح القهوة وانتثرت على حافة الكوب. أملت الكوب، فوصل الشيء بالداخل إلى السطح؛ شيء رمادي يطفو ويغطس داخل السائل البني بنية الوحل.

أسقطتُ الكوب وتراجعت عن الطاولة فتناثرت القهوة في كل مكان. يركب أمواجها كائن، مثل ثعبان بحر صغير يجرف إلى الشاطئ، كان فَرخ ثعبان.

تلوى عبر المنضدة متخذًا طريقه وسط القهوة المسكوبة. حدقت إليه مذهولًا متقززًا. انقلبت معدتي وتقلّصت فوضعت كفي على فمي في أغالِب القيء.

نظرت إلى أعلى فرأيت فجوة في السقف في حجم فوهة كوب صغير. يطِل منها فرخا ثعبان

صغيران، ثم يسقطان على الطاولة. صوت ارتطامهما بالسطح أشبه بصوت قطرتي مطر كبيرتين يرتطمان بزجاج واجهة سيارة.

تخبطت بحثًا عن شيء أضعهم فيه. وعاء، علبة تخزين. أي شيء.. كنت أبحث داخل الخزانة وظهري للطاولة عندما سمعت صوت ارتطام آخر أعلى.

استدرت ببطء، مرتعبًا من رؤية ما كنت أعرف مسبقًا أنني سأراه.

ثعبان رابع.

- لكنه ليس فرخًا.

- ثعبان بالغ بطول قدم مُنطرح على ظهره، بطنه أحمر بلون التوت الأحمر. انقلب فلمحت خطين طويلين بطول جسده بلون الصدأ، مماثل لما وجدته في غرفة إنديجو يوم انتقالنا إلى هنا.

زحف الثعبان الأكبر نحو الكوب المقلوب، وحاول لف جسده بداخله. لجأ. خوفًا أو غضبًا، لا أستطيع الجزم.

ظللت أحدق إليه وقد شلّني الرعب حتى أمطر السقف فرخين آخرين سقطا على الطاولة.

نظرت إلى الفتحة في السقف حيث يخرج ثعبان بالغ سابع، يطل برأسه أولًا. حاول الالتفاف وثني جسده والعودة إلى حيث أتى، لكن محاولته أسفرت عن انزلاقه.

- عندما هبط، أحدث زلزلة كأنه كيس ماء ثقيل ضرب هدفًا، فاهتزت الطاولة. هوت شذرات من مصيص السقف كندف ثلج بينما تسقط أفراخ الثعابين عن حافة الطاولة ثم ينطلقون في كل اتجاه. واحد منها اتجه نحوي، ما دفعني للالتصاق بالخزانة خلفي.

صدر صوت انهيار من أعلى. انتشرت الشقوق على سطح السقف كومضات البرق. ألقيت بنفسي نحو الخزانات إذ تهوي كتلة ضخمة منه وتتحطم فوق الطاولة.

ملأت المطبخ سحابةٍ غبار. أغلقتٍ عينيّ وغطيت في مرة أخرى مخرِسًا صرخة تكونت في حلقي. ضربتني موجة الغبارِ خشن كالرمال. التصقت الحبيبات بجلدي وغطت شعري.

عندما فتحت عينيٍّ رأيت الغبار معلّقًا بعد، لكنه خفّ فكشف عن الدمار الذي حدث في السقف فبدا كبطن مبقور. الفتحة المستطيلة في السقف، تماثل تلك القطعة التي هوت على الطاولة، والتي تفتت الآن إلى أجزاء أصغر.

مزيد من الثعابين.

- دزينة. ربما أكثر.

- ترحف وتفح في كومة هائلة خشيت أن تنهار الطاولة من ثقلها. في خلال ثوان راح كل منها يزحف في اتجاه مختلف.

عبر الطاولة،

على الأرض.

بضع ثعابين أخرى تسقط من أعلى، تثير دوامات غبار خاصة بها.

تحررت الصرخة التي كنت أكبحها أخيرًا، وتردد صداها في المطبخ.

صرخت أنادي جيس.

صرخت طلبًا للنجدة.

صرخت بصوت لم أدرك أنني قادر على إصداره لأنه لم يكن ثمة طريقة أخرى للتعبير عن الهلع والتقزز والخوف الذين يجتاحونني.

عندما هدأت صرخاتي كما هدأت عاصفة الغبار المتساقط من السقف، فطنت إلى أن أي صراخ لن يساعدني فيما أواجه الآن. عليَّ أن أقفز من فوق سطح المشرب لأهرب. ليس لدي خيار آخر.

صرخت صرخة أخرى وأنا أقفز. ما إن نزلت قدماي الحافيتان الأرض حتى هاجمتني الثعابين. هاجمني ثعبان، أنشب أنيابه في طرفِ سروال المنامة، ولأنه أمسك بالقماش، حركتُ ساقي حتى تحررت.

- واحد آخر قصد قدمي اليُمنى. لكني قفزت في الوقت المناسب مفوِّتًا عليه اللدغة. باغتني ثالث عند قدمي اليُسرى، نجوت منه بأعجوبة.

عبرت المطبخ، متقافزًا على الأرضية. إحدى المرات دست ثعبانًا. فرخ. شعرت بجسده العضلي يتملص تحت قدمي.

وصلت إلى الدرج وصعدت حتى قابلت جيس وماجي في طريقهما إلي. لقد سمعا صراخي وأتيتا مهرولتين.

ولكم تمنيت لو لم تفعلا.

لأن هذا يعني أنهما ستلمحان شيئًا من الهول في المطبخ.

صرخت ماجي عندما رأت الثعابين، صرخات مماثلة لما أطلقتها. أما جيس فأصدرت قرقرة مرعوبة. ظننت أنها كادت تقيء، فأمسكت يدها وجررتها إلى الأعلى. بالذراع الأخرى حملت ماجي التي كانت واقفة خلفها ببضعة أقدام.

صعدنا الدرج معًا وعدونا عبر غرفة الطعام. انتظرت جيس وماجي عند الشرفة الأمامية بينما ذهبت أنا إلى غرفة النوم لأحضر مفاتيحي ومحفظتي وحذائي.

ثم فررنا نحن الثلاثة من المنزل، لا نعرف إلى أين نذهب، لكننا نعرف جيدًا أننا لن نمكث بالداخل.

بعد أسبوعين فعلنا الشيء نفسه.

لكن تلك المرة لم نعد مرة أخرى.

العاشر

قلب الليل، وأنا في الفراش. لست نائمة، لكني لست مستيقظة.

صاغ أبي هذه الحالة في مصطلح.

- *في الرمادية*.

- ذلك العالم السفلي بين النوم العميق واليقظة الكاملة.

لذا، أنا في الحالة الرمادية الآن.

أو على الأقل أظنني كذلك.

ربما أحلم لأنني أسمع وسط حالتي الرمادية الغامضة صوت بابي الخزانة ينفتحان.

أفتح عينيَّ وأرفع رأسي عن الوسادة، ثم أنظر تجاه الخزانة التي تغطي ارتفاع الحائط المقابل للفراش.

البابان مواربان بالفعل. قدر بوصة. بينهما شق مظلم أرى من خلاله باطن الخزانة.

بداخلها رجل.

- يُحدق بعينين لا تطرفان.

- وشفتين مُسطحتين.

السيد ظِل.

هذا ليس حقيقيًا. أردد العبارة لنفسي كأنها تعويذة. *هذا ليس حقيقيًا. هذا ليس حقيقيًا*.

لكن السيد ظِل يقبع داخل الخزانة بعد. لا يتحرك. فقط يحدِق.

ثم يُفتح بابا الخزانة فيصدران صريرًا وأراه فجأة عند الفراش، يميل نحوي، يقبض على ذراعيّ ويهمس:

- ستموتين!

تنفتح عيناي سريعًا، أفتحهما حقًّا هذه المرّة. أجلس في الفراش، تقفز صرخة مرتعبة من حنجرتي كنباح كلبٍ. أنظر خائفة نحو الخزانة. البابان مغلقان ولا وجود للسيد ظِل. كان هذا حلمًا.

كلا، ليس حلمًا.

هلع ليليّ.

يرافقني وأنا أقوم من الفراش وأتسلل على أطراف أصابعي نحو الخزانة. رغم أنني أعترف بسخفي وارتيابي الزائد، أضغط أذني إلى أحد البابين، أنصت إلى أي صوت قد يكون خلفها.

لا يوجد شيء.

علمتُ ذلك.

التفكير في شيء غير هذا سيجعلني ساذجة مثل ويندي ديفينبورت وأولئ

ك الذين قرؤوا الكتاب وصدقوا ما ورد فيه.

لكنّ الخوف يضيق صدري وأنا أشدُّ البابين

للخارج لأفتحهما قدر شق. أخبر نفسي أن الحرص هو ما يدفعني لإلقاء نظرة. أحدهم اقتحم المنزل ليلة أمس، وطبيعي أن أتأكد من أنه لم يعد.

لكني أعرف الحقيقة.

أنا أبحث عن السيد ظِل.

لا أرى داخل الخزانة إلا الفساتين المعلقة، مسربلة بالظلام. تظهر ألوانهم عندما أفتح البابين على اتساعهما، سامحة ببعض الضوء الرمادي المتسلل من النافذة بالنفاذ إليها.

الخزانة فارغة. بالطبع فارغة.

رغم ذلك يتبعني الكابوس، يجبرني على بدء يومي مبكرًا قبيل الشروق. كل صوت يصدر عن المواسير في الحمام يبدو لي كأنه صوت السيد ظِل إذ يقترب. كل مرة أغمض فيها عينيَّ أمام زخات الماء أتوقع أن أفتحهما لأجده أمامي.

ما يزعجني في الكوابيس أنها لا تبدو كذلك. بل أحسها شيئًا اختبرته من قبل. شيئًا حقيقيًا.

ذكرى.

كتلك الذكرى التي رأيت فيها أبي يطلي جدار المطبخ.

لكن هذا مستحيل.

لا أتذكر أن شيئًا كهذا قد حدث قط.

ما يعني أنني أتذكر الكتاب وما فيه. نظرية جيدة لو أن أبي لم يكتبه بصيغة المتكلم، فيرى القارئ كل شيء من خلال عينيه، وقد قرأت «بيت الأهوال» مرارا، وأجزم أن أبي لم يكتب مشهدا كهذا.

أنجو من حمامي الصباحي بلا خدش بالطبع، وأنزل إلى الطابق السفلي. قصاصة الورق ما زالت في مكانها بين الباب والإطار، وكذا الأمر مع النوافذ.

لم يتحرك شيء من مكانه.

أنا وحدي تمامًا.

لا أحد هنا إلا نحن الدجاجات.

عندما وصل دين في الثامنة كنت أشرب ثالث كوب قهوة، وأرتجف من جرعة الكافيين الهائلة. يغمرني الشك. أعرف جيدا أن ليس لدين دخل بما حدث ليلة أمس، لكن رؤيته يدخل بانبيري هول دون أن أفتح له قفل البوابة أو الباب يذكرني بالفجوة في جدار السور والكوخ خلفه. لن أنسى أيضًا أمر مشغِّل الموسيقى. لا يعرف أحد أننا عثرنا عليه أمس إلا أنا ودين الذي أصر على إخراجه من الحقيبة ووضعه على الطاولة.

أسأله:

- أي كوخ كوخك؟ الأصفر أم البني؟

- البني.

هذا يعني أن الذي رأيته الليلة الماضية هو كوخ آل ديمتر، أما كوخ دين فعلى الجهة الأخرى من الطريق.

يقول لي وهو ينظر إلى كوب القهوة في يدي:

- الآن، لدي سؤال. هل لديكِ مزيد من هذا؟ هل يمكنني شرب بعض القهوة؟

- بالداخل نصف إبريق عليه اسمك.

نذهب إلى المطبخ وأصب كوبًا ضخمًا أعطِه لدين. يرشف منه ثم يقول:

- لماذا سألتِ عن كوخي؟ هل تخططين لزيارتي؟

ألاحظ الغزل في صوته. وهو أمر لا يمكن تفويته. هذه المرة ليست كتلك التي غازلني فيها يوم وصلت. لم أفاجأ أو أرفض، لكن توقيته غير مناسب. لدي أمور أخرى تشغلني.

أقول:

- اقتحم أحد المنزل الليلة الماضية.

- حقًا؟

- حقًا.

أحكي له أحداث الليلة بالتفصيل وينصت هو إلى كل شيء، الجرس، الموسيقى، الدب المفقود، صراخي فيمن فر إلى الغابة.

يقول:

- وظننته أنا؟

- بالطبع لا.

أحاول تخفيف الحقيقة كي لا أضايقه. أضيف:

- كنت فقط أتساءل إن كنت رأيت شيئًا مريبًا ليلة أمس.

- لا شيء.. هل سألتِ هانا إن كانت قد رأت شيئًا؟

- لم تُتح لي الفرصة، لكن هل تعرف بأمر الفتحة في الجدار؟ ذلك الجزء المنهار.

- هي هنا منذ عقود على ما أعتقد. كتبت لوالدك العام الماضي أسأله إن كان يريد أن أصلحها، لكنه لم يرسل إليّ الرد.

هذا لأنه كان يتلقى جرعات عالية من العلاج الكيماوي، ولم يكن لدينا أملٌ في نفعها. تلقيها مجرد تأخير للتدهور، طريقة لمد حياة أبي بضعة أشهر أخرى.

أقول:

- حسنًا، لقد استخدمها أحدهم للدخول إلى ملكيتي والتسلل إلى البيت، على أنني لا أعرف كيف فعلها.

يجذب دين مقعدًا ويجلس عليه بالعكس، تتشابك ساقاه عند ظهر الكرسي. يسألني:

- هل أنتِ متأكدة؟ ربما سقطت دمية الدب

خلف المكتب، لقد كدَّسنا أغراضًا كثيرة هناك.

- هذا لا يفسر أمر مُشغل الأسطوانات. لا يمكن أن يكون قد شغَّل نفسه.

- إلا لو عطِل ما أصاب الأسلاك. هل لاحظت شيئًا غريبًا آخر؟

أستعيد ذكرى وصولي وأقول:

- أجل. مفتاح الكهرباء في غرفة إنديجو لا يعمل، والثريا كانت مضاءة عندما عدت أمس من الخارج.

- ماذا عن هنا؟

ينظر دين إلى سقف المطبخ، ويفحص وحدات الإضاءة المكونة من الزجاج المعتم والمعدن الذهبي الذي كسائر المطبخ تفوح برائحة الثمانينيات. سرعان ما توقفت عيناه عند الجزء المنتفخ الملطَّخ فوق الطاولة. يقول لي:

- يبدو أن السقف تضرر من تسريب مائي.

- أضفت هذا إلى القائمة الطويلة للغاية التي تحوي ما أريد إصلاحه في المطبخ.

يعتلي دين الطاولة ويقف أسفل الانتفاخ، يحاول أن يتحقق عن كثب.

- ماذا تفعل؟

- أتحقق من خطورة الوضع. ربما تحتاجين إلى إصلاحه في أقرب وقت.

وخز الانتفاخ بإصبعه، ثم ضغط عليه بكفه بالكامل. رؤية السقف يتحرك فوق يده يذكرني بأمر آخر من الكآب. تقلصت معدتي وأنا أتخيل السقف ينهار وتنهمر الثعابين منه.

أقول في قلق أكبر مما أردت إظهاره:

- دين، لا تفعل. اتركه كما هو الآن.

يقول وهو مستمر في الضغط، فيتمدد انتفاخ السقف وينكمش باستمرار كأنه صدر يتنفس:

- الجبس ضعيف جداً.

يهمس الصوت الذي سمعته أمس. صوت أبي. *إنها الثعابين. أنت تعرفين أنها هناك يا ماجي.*

لو أن ثعابين ملفوفة داخل السقف، فأنا أريد أن أتظاهر بأنني لا أعرف أنها هناك، كما تظاهر والداي أن الكآب لم يمزق شمل عائلتنا.

أهتف غاضبة:

- أنا أعني ما أقول يا دين. كُف عن فعل ذلك.

- أنا فقط..

اخترقت قبضة دين السقف حتى رسغه، فسبَّ وسحبها بسرعة. اهتز السقف بينما تنهال قطع الجبس حوله. تزيد دكنة حواف الرقعة وتظهرها أكثر. نفثات من غبار الجبس تخرج من الشقوق الجديدة وتنزل على الطاولة.

يتبع ذلك صوت عميق.

صوت سقف يتداعى.

ثم يهوي.

تأرجح جزء مستطيل كأبواب المصيدة. تأرجح دين الذي حاول الابتعاد عن مساره. ضربه السقف وأسقطه على أي حال.

يرتطم دين بالأرض ثم تحرّك بسرعة إلى الخلف مبتعدًا بصعوبة عن الجزء الضخم الذي ينفصل أخيرًا من السقف ويتهشم على حافة الطاولة. يتعالى الغبار والردم، وتفوح رائحة عفنة في أنحاء المطبخ.

أغمض عينيّ وألتصق بسطح المطبخ، يداي تقبضان على حافته، أستعد في أي لحظة لانهمار الثعابين التي أثق بوجودها.

لا أفاجأ حين يسقط شيء من أعلى.

كنت أتوقع هذا.

لا أجفل حتى عندما أسمعه يحُط على الطاولة بصوت صفقة مكتوم.

ينقشع الغبار وأفتح أنا ودين أعيننا لنرى الشيء عديم الشكل المتكوِم في المنتصف. يرمش دين في شك وهو يهتف:

- ما هذا الشيء اللعين؟!

يبتعد دين عن الطاولة، لكني أفعل العكس وأقترب أكثر. أرى أن ما على الطاولة زكيبة من

الخيش أو القماش ربما. أنكزها بسبابتي فيتحرك ما بداخله مطلقًا صوتًا لا يصدر إلا عن مربعات لعبة سكرابل يحتك بعضها ببعض داخل كيسها القماشي.

يقول دين بصوت ذاهل فلا أعرف إن كان جادًا أو يمزح:

- ربما هذا كنز مخفي.

أرفع الزكيبة وأفرغها، فيسقط ما فيها كشلال مترب ويستقر على الطاولة في كومة رمادية كئيبة.

عظام. عظام بشرية.

أعرف هذا لأن آخر ما يخرج من الكيس جمجمة تهوي على رأس الكومة، ملتصق بها بقايا أنسجة وخصلات شعر. محجري عينيها كأنهما فجوتان سوداوان.

أحدق إليها مشدوهة مرتعبة، شيء بداخلي -في مكان أخفي فيه أحلك أفكاري ومخاوفي- يعرف أن هذا هو سبب فرار عائلتي من بانيبري هول.

3 يوليو

اليوم الثامن

- أخبرينا الآن وفوراً، أي مشكلات لعينة أخرى تختبئ داخل هذا المنزل أو أقسم بالرب أنني سأفقدك ترخيص ممارسة السمسرة.

علا صوت جيس الغاضب وتزايد حنقها وهي تحدث جيني جون عبر الهاتف. صاحت رداً على شيء قالته جيني:

- أنتِ على حق، وأنا جادة تماماً! كما أنني جادة بشأن مقاضاتك حتى أجردك من كل ما تملكين.

كلها تهديدات فارغة. لا يمكن فعل شيء استناداً إلى القانون. عندما وافقنا على شراء بانبيري هول على حالته، صارت مشكلاته مشكلاتنا. ثم أننا عاينا المنزل ولم نجد ما يشير إلى وجود أسرة ثعابين داخل السقف. هذا حال تصرفات الطبيعة الأم اللعينة لا أكثر.

مع ذلك استمرت جيس في الصياح لمدة خمس عشرة دقيقة، يصدح صوتها بين حوائط غرفتنا المبطنة بالخشب.

حتى في النُزل الرخيصة على الطريق، شهد نُزل توبايز أياماً أفضل.

الغُرَف ضيقة، الإضاءة سيئة، ورائحة السجائر والمنظفات الرخيصة ملتصقة بكل شيء. لو توافر

مكان آخر في بارتلي يمكننا قضاء اليوم فيه لما ترددنا في الذهاب إليه، لكن توبايتز هو الملجأ الوحيد لنا في البلدة، وبما أن الثعابين غزت بيتنا، فلا يمكننا التذمر.

مع هذا حاولنا استخلاص الأفضل من موقف سيئ. بعد انتقالنا إلى النزل خرجت جيس إلى آلات البيع وعادت محمَّلة بأكياس البسكويت المملح، والحلوى، والمشروبات الغازية الفاترة. أكلنا كل هذا جلوسًا على الأرض، وماجي سعيدة للغاية لتناولها الحلوى على الغداء. بعد العشاء الذي تناولناه في مطعمٍ صغير على بعد نصف ميل، قضينا الليلة مكومين في فراش مزدوج نشاهد التلفاز المشوش دائمًا مهما غيرت القناة.

ثم جاء الصباح، وكل محاولتنا للاستمتاع وسط الظرف القاسي هربت من النافذة، ولا أقول هنا إن أيًا من نوافذ توبايتز قابلة للفتح بالطبع. كلها محكمة الغلق ما جعل الغرفة خانقة صاخبة بصوت جيس التي لم تكف عن تقريع السمسارة.

ارتحنا عندما طرقت الضابطة ألكوت على بابانا قبل موعد مغادرتنا وأخبرتنا أنهم أزالوا كل الثعابين وأن في إمكاننا العودة إلى البيت.

سألت جيس بعدما أغلقت الخط مع جيني جون:

- أي نوع هي من الثعابين؟

- مجموعة من ذوات البطن الأحمر. غير مؤذية.

قلت:

- لأنك لم تجدي واحدًا منها يسبح في قهوتك.

- حسنًا، لقد أزالتهم قوة من مكتب مراقبة الحيوان، لكن يجب أن أحذرك من أن مطبخك الآن يبدو كمنطقة منكوبة. رأيت أن أنبهك كي تكون مستعدًا.

- أقدِر هذا.

بعد رحيل الضابطة ألكوت، ودَّعنا توبايز وعدنا قلقين إلى المنزل، غير واثقين بأننا نريد العودة حقًا. قدت بعائلتي إلى المنزل مدركًا مدى حماقتي التي صورت لي حلم اقتناء بانيري هول ووهم معيشتنا السعيدة فيه. الآن نواجه الواقع. لقد تحوَّل حلم بانيري هول إلى كابوس خلال أسبوع.

وبالفعل شعرتِ كأنني أعيش كابوسًا عندما نزلت وجيس درج المطبخ.

الضابطة ألكوت مخطئة. المكان لا يبدو كمنطقة منكوبة، بل مسرح حرب. كلندن في أثناء الغارات. اختفت الثعابين، لكن الأنقاض في مكانها. كُل من السقف. شظايا خشب. قطع من النسيج العازِل المكون من الأسبستوس الضار. غطيت أنفي وفمي وطلبت من جيس أن تفعل

مثلي قبل أن نخطو داخل رقعة الفوضى.

اتضح لي أنها فكرة جيدة، فالرائحة القوية السيئة تُعمم المكان. رائحة الغبار والعفن والكبريت الذي لم يكن له أثر في اليوم السابق.

سرت بين الأنقاض بشعور مُمرِض في معدتي. تنظيف هذا صعب. ومكلف. أردت أن أجذب ذراع جيس وأفر مبتعدًا بها، هاجرًا بانبيري هول للأبد. المنزل ضخم ومشكلاته كثيرة وتاريخه ممتد مظلم.

لكننا لم نستطع. لقد أنفقنا كل مالنا تقريبًا لشراء هذا المكان، وأعرف أننا لن نتحمل عبء رهن، ولن نتمكن من بيعه بسرعة. ليس وهو على هذا الحال.

نحن حبائس بانبيري هول.

لخصت جيس مشاعري ببراعة وهي تنظر إلى الفجوة التي كانت سقف مطبخنا وقالت:

- سحقًا لهذا المنزل.

الحادي عشر

أجلس في الشرفة الأمامية، غير واثقة بأنه مسموح لي بالعودة إلى دخل بانيبري هول. حتى لو سمح لي، لا أريد ذلك، رغم حاجتي الماسة إلى الاستحمام. شعري معفّر بالغبار، ووجهي غارق في فوضى قذرة. وكذلك رائحتي. تفوح بما يشبه رائحة العرق، والغبار، والقيء، لأنني تقيأت بالفعل بعد دقائق من رؤيتي ما في الزكيبة القماشية. عرفت أنها مصنوعة من القماش منذ ساعات، وأن الجثة أخفيت فيها منذ زمن.

عرفت كثيرًا خلال الست ساعات الماضية التي قضيتها في الشرفة الأمامية. عرفت مثلًا أن بانيبري الآن يعتبر مسرح جريمة، وقد أحاطت الشرطة بابه بشرائط صفراء، وأوقفت سيارتها أمامه.

عرفت أنه لو سقط هيكل آدميّ من السقف على منضدتك ستُسأل كثيرًا. ستجيب عن بعض الأسئلة مثل: «ما الذي تسبب في انهيار السقف؟» أو «هل فعلت أي شيء بالعظام بعدما وجدتها؟» وأسئلة أخرى تعجز عن إجابتها مثل: «كيف وصل الهيكل إلى داخل السقف؟»

وعرفت أن في حال وجود شاهدَين على سقوط الهيكل من السقف، يستجوب كل منهما على حدة لمقارنة شهادتيهما. هذا بالضبط ما حدث

معي ودين الذي أخذوه إلى ما وراء المنزل لاستجوابه.

سمحت رئيسة الشرطة ألكوت لدين بالعودة إلى بيته، ومكثت أنا هنا لأن هذا بيتي نظريا. وعندما يعثر على جثة في منزل، تطالب الشرطة مالكه بالبقاء على مقربة حتى حين.

تخرج ألكوت، التي ظلت تدخل وتخرج من وإلى المنزل لساعات، تغطي كفيها بقفازين مطاطيين، وتنتعل حذاءين ورقيين، وتنضم إلي في الشرفة الأمامية. تخلع قفازيها ثم تمسح كفيها في صدر بدلتها وهي تقول:

- أقترح أن تفكري في مكان تقضي فيه الليل. سيستمر الأمر فترة. انتهى مختصو مسرح الجريمة من جمع كل الرفات، لكن علينا فحص المكان وجمع الأدلة وكتابة التقارير. أتمنى أن نتمكن بعد كل هذا من معرفة صاحب الهيكل.

أقول:

- هي بترا ديمتر.

لا يمكن أن يكون أحد سواها. الفتاة التي اختفت منذ خمسة وعشرين عاما. الفتاة التي لم تعد قط إلى بيتها في الليلة نفسها التي فرت فيها عائلتي من بيتهم.

الفتاة التي على الأرجح لم تهرب.

تقول رئيسة الشرطة:

- أنا لا أقفز إلى أي استنتاج، ولا يجب أن تفعلي هذا. لم نصل إلى أية معلومات خلال يوم أو اثنين. سنرسل الرفات إلى معمل الفحص الجنائي في وتربري. سيبحثون جيدًا ويفحصون سجلات الأسنان ويحاولون الوصول إلى هوية مؤكدة.

لكم تمنيت لو أنني مخطئة، وأن هذه عظام شخص آخر، لا فتاة في السادسة عشر. ربما هي جثة أحد أفراد عائلة جارسن، أو ضحية مجهولة لكُرتس كارفر.

لكنني واثقة بأنها بِترا.

أسألها:

- هل تعرفون كيف وصلت الجثة إلى السقف؟

- من أعلى. عثرنا على رقعة مُخلخلة في أرضية الطابق الأول، مساحتها أربعة أقدام في ثلاث. يمكن أن تُحمل الجثة إلى أعلى وتُدفن في الأرضية دون أن يلاحظ أحد هذا. أضيفي إلى هذا البساط الذي يخفي الموضع.

أعرف. ذكر أبي هذا في الكتاب. حتى الآن كنت أظنه اختلق الأمر.

تجوِّل الأفكار فِي رأسي، كلها مريعة. ثمة جثة مدفونة في المنزل طوال الوقت الذي مكثته فيه. لن أقتنع بنظرية انتظار النتائج التي طرحتها رئيسة الشرطة ألكوت. هذه جثة بِترا وقد دست في

كيس قماشي كبير ودُفنت تحت ألواح الأرضية. لقد خطوت فوقها عشرات المرات!

أسألها:

- في أي غرفة دُفِنت؟

- ثاني واحدة من بداية الممر. الغرفة ذات الحوائط الخضراء والمدفأة.

غرفة إنديجو.

المكان نفسه الذي كانت إلسا ديمتر تجوِّل فيه عندما عدت إلى بانبيري هول. ربما ليست مرتبكة كما نظنها. رغم مرضها، ثمة احتمال أنها تعرف أكثر من أي شخص آخر، وتحاول العثور على طريقة لإخبارنا.

تقول رئيسة الشرطة ألكوت:

- اسمعي يا ماجي، سأكون صريحة معكِ. لو اتضح أنها بِترا ديمتر..

- هي بِترا ديمتر..

- لو أنها هي، فلن يبدو وضع والدك جيدًا أبدًا.

تقولها بلطف كأنني لم أفكر في الأمر نفسه خلال الست ساعات الماضية. ظلت آخر كلمات أبي تتردد في عقلي طوال الوقت كأنها صدى يأبى أن ينقطع.

أنا آسف..

أقول لها:

- أفهم هذا.

- سأضطر لإلقاء هذا السؤال آجلًا أو عاجلًا عليك، والأفضل أن أسأله الآن. هل تظنين أن والدك قادر على القتل؟

- لا أعرف.

هذه إجابة مريعة، ليس فقط لأنها مائعة، إنما لكونها تُشعِرني أنني ابنة جاحدة. أريد أن أكون مثل أبناء المتهمين في جرائم القتل الذين أقرأ عنهم في الجرائد وأراهم في البرامج الحوارية. أريد أن أكون في مثل ثقتهم ببراءة آبائهم.

أبي لا يستطيع أن يؤذي ذبابة.

أبي روحه نقية.

لعرفتُ لو أنه قادر على القتل.

لم يصدقهم أحد قَط. أنا لم أصدقهم.

لا يمكن أن أجبر نفسي على الإصرار على براءة أبي. ثمة جثة داخل سقفنا بحق الله! ثم أيضًا آخر كلماته اللعينة التي سررت أنني لم أخبر بها رئيسة الشرطة. لا أريدها أن تدين أبي قبل أن يتضح لنا كل شيء، خاصة أن الحقائق التي نعرفها تجعله يبدو مدانًا كشيطان.

ثم أفكر في حديثي مع براين برنس عندما اتهم أبي بالتسبب في اختفاء بِترا. في تلك اللحظة كنت واثقة أكثر ببراءته ومستعدةً للدفاع عنه. ما قلته له وقتها ما زال صامدًا مقنعًا. لقد غادرنا بانيبري

هول معًا. هذه حقيقة لا تقبل الشك. لا يمكن أن يكون أبي قد قتل بِترا وأخفى جثتها بينما أنا وأمي معه في المنزل، ولم يكن لديه فرصة للعودة بمجرد أن اختبأنا في نزل توباينز.

لكنه عاد. ليس وقتها، بل لاحقًا، واعتاد العودة إلى المنزل في اليوم نفسه من كل عام.

الخامس عشر من يوليو.

ليلة فررنا واختفت بِترا.

لا أعرف ما يمكنني استنتاجه من هذا.

أكاد أخبر رئيسة الشرطة بأمر زياراته على أمل أن تجد لها تفسيرًا، لولا ينفتح الباب الأمامي ويخرج منه محققو شرطة الولاية يحملون الجثة. مع أن شيئًا لم يبقَ من هيئتها البشرية، تخرج الجثة من البيت كأي ضحية قتل أخرى محفوظة في حقيبة جثث، محمولة على محفة.

أسمع جلَبة آتية من ناحية ممر السيارات وهم ينزلون بحمولتهم على درجات الشرفة الأمامية. ألتفت نحو الصوت فأرى هانا ديمتر تشق طريقها عبر حشد رجال الشرطة، وتسأل كل شخص وأي شخص:

- هل هذا صحيح؟ هل عثروا على أختي؟

تنظر إلى المحفة التي تحمل حقيبة الجثث ويجمد وجهها. تقول وهي تتجه نحوها رأسًا:

- أريد أن أراها.

وضع أحد الشرطيين -فتى يافع يحضر أول مسرح جريمة في حياته غالبا- يديه على كتفيها ويقول:

- لم يتبق شيئًا ترينه.

- لكني أحتاج إلى التأكد من أنها هي، رجاء.

نبرة الصوت التي نطقت بها كلمتها الأخيرة تضج بالإصرار والحزن، تدفع رئيسة الشرطة ألكوت إلى نزول الدرج وهي تقول:

- افتحوا الحقيبة. لن يضر أن تلقي نظرة.

تتجه هانا إلى جانب المحفّة، تغطي حلقها بكفها. يفتح الشرطي اليافع سحّاب الحقيبة برفق، يجذب الصوت الجميع كما يجذب العسل الذباب.

يجذبني شخصيًا فأقف على بعد عدّة ياردات. أعرف أنني شخص غير مرحب به. لكني مثل هانا، أريد أن أرى.

يفتح الشرطي الحقيبة ويكشف عن العظام المرتبة بداخلها على النحو الطبيعي كما لو كان الهيكل كاملا. الجمجمة في الأعلى، الضلوع في المنتصف والذراعين الطويلتين على جانبيها. بعض العظام ما زالت متصلة بأربطة مسودّة متحللة، وبعضها أكثر نظافة، يطغى عليها اللون البرونزي.

تفحص هانا الرفات بتركيز شديد. لا تبكي ولا تصرخ. فقط تحدق إليها هنية ثم تقول:

- هل وجدتم شيئًا آخر هناك؟

يخطو شرطي آخر يرتدي ملابسًا مدنية وقبعة شرطة الولاية ليقترب منها. يقول وهو يرفع عدة أكياس حفظ أدلة:

- كانت هذه في الركيبة التي حوَت الجثة.

داخل الأكياس قطع قماشية تحولَّت إلى أسمال. خرقة من قماش قطني، وأخرى من قميص ملطَّخ، وكيس فيه ملابس تحتية عبارة عن خيوط مهترئة متصلة بشريط مطاطي، وحمالة صدر لم يتبق منها إلا الأسلاك. في كيس آخر كُتل مطاطية على الأغلب كانت حذائين رياضيين.

تقول هانا في أسى:

- إنها هي. بِتراء.

تسألها رئيسة الشرطة:

- كيف عرفتِ؟

تومئ هانا نحو أصغر أكياس الأدلة الذي يحوي صليبًا ذهبيًا واضحًا كالنهار.

4 يوليو

اليوم التاسع

ظهرت سن والت هيبتس الذهبية في واجهة عرض فمه المفتوح وهو يحدق إلى الفجوة في سقف المطبخ.

- هل تسببت الثعابين في كل هذا؟

أجبته:

- لو كنت رأيتها أمس. بدت أسوأ.

قضينا عصر اليوم السابق أنا وجيس وإلسا ديمتر في تنظيف المطبخ بينما تجالس بترا ماجي بعد الظهر. جلست بترا مع ماجي، أما نحن فكنسنا الركام ومسحنا الأرضيات ونظفنا أسطح المطبخ. انتهينا أخيرًا منهكين، تغطي جسدنا الأوساخ كما لم تفعل طوال حياتنا.

والآن جاء وقت إصلاح الرقعة الهائلة في السقف. جلبت هيبتس لإصلاحها، فاستأجر هو صبي من البلدة لمساعدته لأن الأمر أكبر من قدرته منفردا. نقلا طاولة المطبخ معا، ووضعا سلّما مكانها تحت الفجوة. ارتقاه هيبتس حتى اختفى رأسه وكتفاه داخل الفتحة في السقف. قال لمساعده:

- ناولني المصباح اليدوي.

أمسك هيبتس المصباح اليدوي، وحرّك شعاع

الضوء داخل عُمق سقفنا.

- مكثنا أنا والمُساعد وجيس وماجي وبِترا ديمتر نشاهد بوجوه مرفوعة ما يجري. جاءت الأخيرة ظاهريًا لمعرفة ما إذا كنّا بحاجة مرة أخرى إلى شخص ما لمجالسة ماجي في أثناء عملية التنظيف. يبدو أن الفضول المَرَضي جذبها إلى هنا. لم تُجالس ماجي كما اتفقنا.

كنت قد أحضرت الكاميرا من المكتب في اليوم السابق، والتقطت عدة صور في حال احتاجت شركة التأمين إلى إثبات على التدمير الذي وقع. اليوم التقطت بها صورة لبِترا وجيس وهما يحدقان إلى هيبتس وسلّمه. سمعت جيس صوت غالق الكاميرا فنظرت نحوي ثم نحو بِترا ثم إليّ مرة أخرى. همّت بقول شيء لكن هيبتس أعلن أولًا:

- حسنًا، النبأ الجيد أنني لا أرى تلفيات أخرى. أخشاب السقف تبدو جيدة. الأسلاك بخير. لكن هنا بواقي جحر بالأعلى.

أنزل ما تبقي من الجُحر على الأرض. أغلبه تراب، على أنني لاحظت خيوط العناكب، وجلد الثعابين الجاف المجعد، والغالبية العظمى عظام فئران تثير القلق.

قال هيبتس:

- غريب هذا. ثمة شيء آخر بالأعلى.

نزل السُلّم حاملًا علبة صفيحية في قدَم المنزل نفسه. أعطاها لجيس فوضعتها على طاولة المطبخ واستخدمت خرقة لمسح التراب عنها. قالت وهي تقلّبها بين يديها:

- علبة بسكويت. تبدو وكأنّها من نهايات القرن التاسع عشر.

عاصرت العلبة أيامًا أفضل قبل أن تجد طريقًا بشكل ما إلى سقف بيتنا. يشوب غطاءها انبعاج ملحوظ، والصدأ أكل حواف قاعدتها. لكن ألوانها لطيفة، خضراء داكنة مُزينة بخطوط ملتوية ذهبية. سألت بِترا:

- هل تظنونها عالية القيمة؟

أجابت جيس:

- لا أظن. باع والدي علبًا مشابهة في متجره مقابل خمس دولارات للعلبة.

سألتُ أنا:

- وكيف تتصورين أنها وصلت إلى الأعلى؟

قال هيبنَس:

- عبر ألواح الأرضية. أي غرفة فوقنا؟

دُرت في المكان محاولًا تحديد موضعنا في بانبري هول. بما أن المطبخ يشغل عرض المنزل، فهذا يعني أن فوقنا الغرفة الكبرى أو غرفة إنديجو.

اتضح لنا أنا وهيبتس أن ما يعلونا الغرفة المذكورة آخِرًا، وقد تأكدنا من ذلك عندما صعدنا لأعلى لنتحقق من الأمر. تجولنا عشوائيًّا في الغرفتين، وطرقنا الأرض بأطراف أحذيتنا، حتى وصلنا إلى رقعة من أرضية غرفة إنديجو ذات صوت أجوف.

هوينا على رُكَبِنا وأيدينا على الألواح، المُغطاة جزئيًا ببساط شرقي الطراز يحتل منتصف الأرضية. لففنا البساط معًا وأزحناه عن طريقنا، فكشفنا عن جزء من الأخشاب بطول أربعة أقدام وعرض ثلاث منفصل عن باقي الأرضية. من خلاله رأينا المطبخ حيث تقف چيس وبِترا بعد جوار العلبة الصفيحية.

فسَّر هذا الكثير، ليس فقط سر وجود العلبة داخل السقف، بل وجود الثعابين في غرفة إنديجو في أول يوم لنا في المنزل. يبدو أنها تسللت بشكل ما من بين فجوات الأخشاب المخلخلة.

أجفلت چيس إذ رأتنا نُطل عليهما من أعلى وقالت:

- انزلا. ثمة شيء داخل العلبة.

حين عدنا أنا وهِيبتس إلى المطبخ وجدنا العلبة مفتوحة ومحتواها مفرغ على الطاولة. أربع أظرف مُصفرَّة بفعل الزمن.

أمسكت چيس أحدها وأخرجت ورقة مطوية

منه، صدر عنها وهي تفتحها صوت حفيف جاف كصوت سحق أوراق الشجر في الخريف.

أجلَت حنجرتها وقالت:

- هذا خطاب. عزيزتي إنديجو. أكتب إليكِ بفؤاد مُثقَل وقد تحادثت مع والدك.

جذبت بِترا الخطاب من يدها، أصدرت الورقة صوت خشخشة. هتفت:

- اللعنة! هذه خطابات غرامية.

قالت جيس:

- يبدو أنها مُرسَلة إلى إنديجو جارسن.

قالت بِترا تُصحح لها:

- إلى أعز الأعزاء إنديجو. هل يمكن آخذها؟

كدت أرفض طلبها إذ أردت أن ألقي عليها نظرة أولًا، لكن جيس منعتني بنظرة محذِرة، تذكرني بالعهد الذي قطعته على نفسي.

- الماضي سيظل في الماضي.

قالت بِترا:

- رجاءً؟ أنا نوعًا ما مهووسة بالأشياء القديمة المشابهة.

قلت وأنا أتلقى إيماءة رضا من جيس:

- لا بأس. أعلميني فقط إن وجدت شيئًا فيها له صلة بتاريخ البيت.

غمزت بِترا وهي تهتف:

- أعدِك أن أخبرك إن وجدت شيئًا يثير الشهية.

***

حلمت في تلك الليلة بأظرف قديمة ملقاة أمامي. كل واحد يحوي ثعبانًا يتسلل زحفًا إلى يدي ويلتف حول أصابعي. على ذلك عكفت على فتح الأظرف داعيًا أن يكون أيها خاويًا. لكن كلها كذلك. بمجرد أن فتحت آخرها، غطتني الثعابين. كملاءة تفح وتتلوى فوقي ولا يمكنني الخلاص منها.

استيقظت غارقًا في العرق البارد، وفي الوقت المناسب لأسمع صوتًا مألوفًا يصدح في أرجاء المنزل.

طرقة.

نظرت إلى جيس فوجدتها نائمة بعمق إلى جواري.

ثم صوت طرقتين.

جلست أنصت إلى الصوت الذي يقترب عبر الردهة.

طرقات، طرقات، طرقات متتالية.

سيل منها يعبر من أمام باب غرفة نومنا.

- ثم يختفي وأسمع بدلًا عنه صوت موسيقى، قادمًا من بعيد ولا يمكنني أن أخطئه.

«أنت في السادسة عشر، تعبرين إلى السابعة عشر..»

جلستُ فوق السرير، اختفى أثر أي لذاك الحلُم المروّع من عقلي. كل ما أفكر فيها الآن الأغنية التي تدور مع أنني وضعت مشغل الأسطوانات والأسطوانات ذاتها في الخزانة.

«يا صغيرتي، حان وقت التفكير..»

ما تلا ذلك بدا كحُلم. حلم متكرر لا يزول مهما أردت أن أصحو منه.

نزلت عن الفراش.

شققت طريقي عبر الردهة حافي القدمين على الأرضية الخشبية الصلبة.

تسلّقت الدَّرج إلى الطابق الثالث نحو برودة غريبة تشع من غرفة المكتب.

استمر شعور أنني رأيت كل هذا من قبل وأنا أدخل الغرفة وأرى مشغّل الأسطوانات على المكتب كأنني لم أعده إلى مكانه.

«الأفضل أن تحذري..»

أبعدت الإبرة عن الأسطوانة وأغلقت المُشغّل. وقفت مكاني متجمدًا أتساءل إن كنت أحلم ومتى قد ينتهي هذا الحلم.

الثاني عشر

لافتة نُزُل «توباينز» تضوي حين أصل إلى ساحة الانتظار، تلقي الشجرتان المضيئتان على اللافتة ضوءًا أخضر يفترش الأسفلت كالعفن. أدخل إلى ردهة الاستقبال فلا ترفع الموظفة عينيها عن مجلتها. وهذه نعمة خاصة وأنا مبللة بالعرق ومغطاة بالغبار بعد.

تقول:

- الغرفة بخمسين دولارًا في الليلة.

أشدُّ محفظتي وأضع ورقتي نقد بعشرين دولار وواحدة بعشر على المكتب. لا أظنه من نوعية الأماكن التي تطلب بطاقات ائتمان. أتأكد من صحة استنتاجي عندما تأخذ النقدية وتنتزع مفتاحا من المفاتيح المعلقة على لوحة خلفها، ثم تمرره لي وهي تقول دون أن تتلاقى أعيننا:

- غرفة رقم أربعة. آلات بيع الطعام عند آخر الجهة الأخرى من المبنى. تسجيل المغادرة عند الظهيرة.

آخذ المفتاح وأنفض الغبار عن كُمي. لأن المنزل عجّ بدبيب الشرطة عندما غادرت، لم أستطع أن أغير ملابسي. ليس معي سوى كيس مقرمشات كبير في حجم أكياس المقرمشات التي تؤخذ في طريق السفر، اشتريته من أحد المتاجر الميسرة في طريقي. أسأل الموظفة:

- حسنًا، هل ثمة مغسلة هنا؟

أخيرًا تنظر إليّ في تعجُّب وتجيبني:

- لا للأسف. لكن لو غسلت ملابسك في الحوض فربما تجف بحلول الصباح. إن لم تجف يمكنك استخدام مجفف الشعر الملحق بالحمام.

أشكرها وأجرُّ قدميّ إلى غرفتي. أفتح الباب وأنا أتساءل إن كانت هذه الغرفة ذاتها التي أقمنا فيها أنا وعائلتي يوم هربنا من بانبيري هول. لو كانت كذلك فأنا أشكُّ أن ثمة ما تغير بين الإقامتين. لا يبدو أنهم قد حدَّثوا الديكور الداخلي منذ ثلاثين عامًا. أشعر وأنا أخطو إلى الداخل أنني ألج إلى آلة زمن ترسلني على الفور إلى الثمانينيات.

أقصد الحمام وأفتح مرذاذ الماء. أقف تحته بكامل ملابسي لأغسلها. هذا أسهل من استخدام الحوض.

يبدو وضعي الآن أقرب لمشهد حوض الاستحمام من فيلم «سايكو» والماء القذر يدور حول البالوعة. حين ينزل عني ما يكفي من الأوساخ، أنتزع ملابسي قطعة قطعة.

سرعان ما أعلق الملابس التي تقطر الصابون والماء لتجف على ماسورة ستار حوض الاستحمام، ثم أسقط في المغطس، أتكور حول نفسي وأنتحب.

ينتهي بي الأمر وأنا أبكي لنصف ساعة، منفعلة

بالحزن والغضب، لا يسعني فعل أي شيء. أبكي بترا، أعزيها رغم أنني لا أتذكر أنني قابلتها. أبكي أبي وأنا أحمل ذنب الرجل الذي أظنه قد فعل هذا بها.

أخيرًا أبكي كل نُسخ نفسي التي عاشت خلال السنوات الماضي. ابنة الخمس سنوات الحائرة. ابنة الطلاق المجروحة. ابنة التاسعة الحانقة. أنا الفضولية. أنا المُتحدية. أنا البارّة. تناسخات كثيرة كلها تبحث عن إجابات، وكلها تقودني إلى هنا وإلى الآن، إلى الحقيقة المحتملة التي لا أعرف كيف أتعامل معها.

أتمنى أن يبث فيَّ الاستحمام والبكاء شيئًا من حيوية كأنهما طقس تطهيري. لكن ما يحدث أنني بعد أشعر بالإرهاق والإنهاك وأصابعي متشربة بالماء ملمسها يشبه ملمس الخوخ. ليس معي ما أرتدي، فألف جسدي في منشفة وأرتدي فوقها أحد غطائي الفراش. ثم أجلس على طرفه أتحقق من هاتفي المحمول.

اتصلت بي آلي عندما كنت في الحمام، والرسالة الصوتية التي تركتها بهيجة إلى درجة تثير التساؤل.

«مرحى أيتها الفتاة العاملة. فوجئت اليوم أنك لم ترسلي إليّ أي صور للمنزل من الداخل. هيا يا فتاة، أريد تفاصيل الأفاريز. والمقرنصات. والمنجورات. لا تتركي أية تفاصيل لعينة.»

- أريد أن أتصل بها وأخبرها بما جرى خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية. لكني لا أفعل لأنني أعرف جيدًا ما ستقوله. ستطلب مني الرحيل والعودة إلى بوسطن ونسيان كل شيء عن بانيبري هول.

لكن فات أوان ذلك. حتى لو أنني أرغب في الرحيل فلا أظنني أستطيع. رئيسة الشرطة ألكوت لديها بالتأكيد مزيد من الأسئلة. ثم تأتي أسئلتي أنا وهي قائمة ممتدة بطول ميل، كلها بلا إجابة حتى الآن. لن أذهب إلى أي مكان حتى أعرف ما حدث حقًا في المنزل.

أرسل لآلي رسالة وأحاول التشبه فيها بمزاحها ومرحها.

«آسفة! انشغلت عن التقاط الصور. سأحاول إرسال صور أفاريز مغرية غدًا.»

هذه مهمة نزلت عن كاهلي، وحان وقت تحمل عبء إنهاء أخرى؛ مكالمة أمي. على عكس المكالمة السابقة أردتها أن تجيب الاتصال.

أملي أن تلقي أمي بعض الضوء على علاقة أبي وبترا. بريان برنس محق إذ بدا الاثنان مقربين في الكتاب. لا يعني هذا أن زعمه صحيح. أمي فقط تعرف وهي الوحيدة القادرة على تأكيد براءة أبي.

لأول مرة في حياتي أحتاج إلى رأيها.

- لذا يغوص قلبي في صدري عندما تحوّلَ المكالمة مرة أخرى إلى البريد الصوتي.

«مرحبًا أمي. هذه أنا. ما زلت في فيرمونت أصلح بانبري هول، و.. إمم.. وجدنا شيئًا.»

أصمت لوقت وقد لاحظت استخدامي لهذا المجاز الشنيع. بِترا ليست شيئًا. لقد كانت إنسانًا، امرأة مفعمة بالحياة.

«نحتاج إلى الحديث عن الأمر في أقرب وقت. اتصلي بي رجاءً.»

أنهي الاتصال وأمسح الغرفة بعينيّ.

مجرد مكَب قمامة.

الحائط المقابل للنافذة مبطّن بخشب حال لونه من الشمس. إحدى ألواح السقف متسخة ببقعة أسوأ من تلك التي على سقف مطبخ بانبري هول، مما لا يوحي بأي أفكار جيدة. أنظر إلى البساط. أقرب لحرقة برتقالية.

أسمع طرقًا على الباب. طرقتان مترددتان على الباب تشيان أن الطارق موظفة الاستقبال وقد جاءت تخبرني أن ولاية فيرمونت أعلنت النزُل مكانًا موبوءً وعليهم إخلاؤه. لكنني أفتح الباب فأجد دين يقف خلفه ويقول خجِلًا:

- آسف لكسري سقفك. هذه هدية مني تعويضًا عما فعلت.

يرفع يديه فأرى زجاجة خمر بوربون في إحداها،

وفي الأخرى نصف دزينة جعة. يقول مفسراً:

- لا أعرف إلى أي درجة من السكْر تميلين.

أجذب زجاجة البوربون وأنا أقول:

- أميل إلى هذه.

فسَّر دين فعلتي هذه على أنها دعوة لمشاركتي الزجاجة، نخطا إلى الداخل وأغلق الباب خلفه. وجود الكحول أخفى لحظيا وسامته الاستثنائية. كان يرتدي سروال جينز وقيصًا مطبوعًا عليه صورة لوجو فريق «رولينج ستونز»، يلتصق القميص بصدره ويبرز تفاصيله. على قماشه ثقب صغير عند الصدر يكشف بشرته المسمرّة. أقول عندما يلاحظ دين أنني أحدق إليه:

- قيص لطيف.

- لدي منذ كنت مراهقًا.

- واضح.

يقول دين:

- غطاء فراش لطيف.

- أتظاهر بأنه قفطان.

يفتح دين عبوة الجعة. أفتح أنا زجاجة البوربون. لا توجد كؤوس في الغرفة، ليس في هذا النوع من الفنادق بالتأكيد، لِذا أشرب مباشرة من الفوهة. لم تفعل أول جرعة شيئا سوى حرق مؤخرة حلقي، والثانية ليست إلا تكرارا للأولى.

الجَرعة الثالثة كالسحر، وبدأت أشعر أخيرًا بالخدَر المحبب يتسلل إليَّ. أسأله:

- كيف عثرت عليّ؟

يرشف من الجعة ثم يجيب:

- بالاستبعاد. ذهبت إلى المنزل أولًا وكانت الشرطة هناك، ما يعني أنك تقيمين في مكان آخر، ولا مكان آخر في بارتلبي سوى هنا.

- يا لي من محظوظة.

أجرع جرعتين أخريين من البوربون. سقطنا في صمت مريح، يجلس دين على الفراش مسرورا بالشرب ومشاهدة مباراة لفريق «ريد سوكس» على التلفاز ذي الخمسة وعشرين عاما. بعد قليل يسألني:

- هل تعتقدين حقًا أن مَن كانت في السقف جثة بِترا ديمتر؟

- أجل. أعتقد هذا.

- إلهي. مسكينة أمها.

- هل تعرفها؟ بِترا؟

- ربما قابلتها في مرة من المرات التي زرت فيها جدّي. لكني لو فعلت فأنا لا أتذكر.

- قلت إنك تحدثت مع أبي عندما كان يزور المنزل كل عام. عمّ تحدثتما؟

يشرب دين من زجاجة الجعة وهو يفكر، ثم

يجيب:

- تحدثنا عن المنزل، عما يحيط به من أراض، وما إن كان يحتاج إلى إصلاح شيء.

- أهذا كل شيء؟ أمور الصيانة الأساسية؟

- تقريبًا. أحيانًا كنا نتحدث عن فريق «ريد سوكس» أو عن الطقس.

- هل ذكر بِترا ديمتر؟

- سألني عن إلسا وهانا وعن أخبارهما، وما إن كانتا في حاجة إلى مال.

سؤال غريب. أود أن أصدق أن سؤاله نابع من حب فعل الخير فقط، لكني أشك أنه نابع من شيء آخر مثل عقدة الإحساس بالذنب والرغبة في تعويضهما.

أجرع مزيدًا من البوربون مُتمنية أن يوقف تدفق أفكاري. يجب أن أكون واثقة ببراءة أبي، لكنني على النقيض أتخبط وأشك. أسأل دين:

- هل تعتقد أن في إمكان المرء الإيمان بأمرين في الوقت نفسه؟

- هذا يعتمد على ما إن كان أحد الأمرين يلغي وجود الآخر. مثلا، أنا أومن أن توم برادلي أفضل ظهير ربعي في تاريخ اللعبة، وأومن أيضا أنه أحمق. لا يتعارض كل أمر مع الآخر. يمكنهما أن يظلّا موجودين في الوقت نفسه.

- أتحدث عن أمر أكثر خصوصية.

- أنتِ في نيو إنجلند، ولاعبو البيسبول أمر شديد الخصوصية.

أشكره للطريقة التي يحاول دين بها إراحة عقلي بالخمر والمزاح، لكنه مستفز، يذكرني بتقنية التحاشي التي مارسها أبواي معي.

- أنت تعرف ما أعنيه. أنا حقًا مؤمنة أن أبي غير قادر على قتل أي شخص ناهيك بفتاة في السادسة عشر. لم يكن عنيفًا قط ولم يرفع يده ليؤذني، بالإضافة إلى معرفتي به. هو خلوق ومحترم وعطوف.

يقول دين كأنني بحاجة إلى تذكير:

- وتؤمنين أيضًا أنه كذّاب.

- كان كذلك، ولهذا لا أستطيع التوقف عن التفكير في احتمال أن يكون فعل شيئًا، وفي احتمال أن يكون كل شيء عرفته عنه كذبة كما أن الكتاب كذبة. أشك في كل شيء فعله أو قاله وفي حياته كلها. ربما لم يعرفه أحد على حقيقته قط، حتى أنا.

- هل تظنين أنه قتل بِترا؟

- لا.

- إذن تعتقدين أنه بريء.

- لم أقل هذا أيضًا.

الحقيقة أنني لا أعرف فيمَ أفكر. رغم أن كل العلامات تشير إلى تورطه في موت بِترا، أجد عسرًا في رؤية أبي قاتلا، كما أجد العسر ذاته في الإيمان ببراءته. لقد كذب عليّ حتى وفاته حرفيًا، والناس لا تكذب إلا لأنها تخفي شيئًا.

أو تريد إعفاء أحد من حمل عبء الحقيقة.

مهما كانت الحقيقة أعرف أن مقتل بِترا جزء منها. يقول دين مقاطعًا خواطري:

- شيء واحد واضح. سبب مجيئك إلى هنا تغيّر. تغير عظيم.

تغيّرت خططي الخاصة بالمنزل بالتأكيد، حتى لو سمحت لي الشرطة بالعودة إلى بانيبري هول لتجديده، لست واثقة بأنني أرغب في هذا. من ناحية عملية الأمر صار مستحيلا، فهذا المنزل لن يُباع بثمن معقول، هذا إن استطعت بيعه أساسا بعد التطور المأسوي الأخير.

لكني أنظر إلى الأمر الآن من منظور إنساني. قضت بِترا أكثر من عقدين داخل بانيبري هول، تعفّنت خلالهما. ويا له من مصير رهيب. عندما أفكر في الأمر على هذا النحو أوافق رئيسة الشرطة رأيها بشأن ضرورة إزالة بانيبري هول تمامًا.

أقول لدين:

- جئت إلى هنا لأعرف الحقيقة، وما يزال هذا هدفي حتى وإن لم أحب ما ستكشف عنه هذه

الحقيقة.

- والمنزل؟

- سأعود إليه غدًا.

أرفع ذراعيّ مشيرة إلى الحائط الكالح والسقف المبقع والبساط المهترئ، وأضيف:

- لكن الليلة سأبيت وسط كل هذه الفخامة.

يعتدل دين على طرف الفراش ليواجهني، تكاد ركبتاه تلامسان ركبتيّ. تتغير الأجواء في الغرفة. يسري بيننا تيار كهربي، ترافقه حرارة. أكتشف وقتها فقط أن حركة ذراعيّ إلى أعلى أسقطت الغطاء عن كتفيّ، والآن أجلس أمامه لا يسترني سوى المنشفة.

يقول دين بصوت مبحوح:

- يمكنني البقاء معكِ هنا، لو أردتِ.

إلهي، كم أن هذا مغرٍ، خاصة مع رُبع زجاج البوربون التي شربتها ونظرة دين لي الآن. تعود عيناي إلى الثقب في القميص ورقعة الجلد المغوية تحته. تدعوني لرؤية كامل الجسد بلا ملابس. سهل تحقيق كل هذه الأمنيات بترك المنشفة تهوي.

ثم ماذا؟ كل مشاعري المضطربة وحيرتي ستعود إليّ في الصباح أكثر تعقيدًا بمزجي العمل بالمتعة. بمجرد أن يربط المرء بينهما حتى يستحيل فكّهما مرة أخرى.

أقول له وأنا أغطي نفسي بالغطاء مرة أخرى:

- يجب أن ترحل.

يومئ دين. ولا يسألني إن كنت واثقة بقراري. لن أعود لمداعبة سحره أملًا في تغيير تفكيري ومزاجي. يقول لي:

- أراكِ غدًا.

يأخذ الجعة ويترك البوربورن. رفيق آخر غير حكيم أقضي معه ما تبقى من الليل. أريد أن أنهي الزجاجة وأفقد وعيي فأغوص في دوامة السكر اللذيذة. أعرف أن مثلها كمثل مضاجعة دين، ستؤذيني أكثر مما قد تفيدني.

بتصميم أكبر أحكم لف الغطاء حولي وأذهب إلى الحمام لأفرغ الزجاجة في الحوض.

5 يوليو
اليوم العاشر

«اللعنة هل تمازحيني؟!»

حتى وأنا أعرف أن هذه أسوأ طريقة أحيي بها زوجتي في الصباح، لم أستطع السيطرة على نفسي. اكتشافي لمشغل الأسطوانات وقد عاد إلى المكتب وظل يصدح بالأغنية الكئيبة التي رمت بسوادها على مزاجي، فظللت أتقلب في الفراش قلقًا من أن تعاود الموسيقى الانطلاق بمجرد أن أنام.

عندما سمعت الصوت الارتطام آتيًا من أعلى في الساعة 4:54، عرفت أن النوم سيجافيني. زاد انفعالي حتى كاد ينفجر حين نزلت إلى الطابق السفلي ووجدت الثريا مضاءة، تتوهج كالشمس.

بدخول جيس المطبخ، لم أكن قادرًا على تمالك نفسي ومنعها عن المواجهة. قالت لي بتعبير هو مزيج بين الحيرة والغضب:

- عمّ تتحدث؟

- تعرفين جيدًا ما أتحدث عنه. مشغل الأسطوانات كان يعمل ليلة أمس.

- في مكتبك؟

زفرتُ في غضب ثم هتفت:

- أجل، في مكتبي. كنت قد وضعت الجهاز

في الخزانة، ووجدته الليلة السابقة على المكتب، بشَغِل الأغنية الغبية نفسها. لذا، إن كان هذا نوعاً من المقالب فأريدك أن تعرفي أنه ليس مضحكاً. لا مزيد منه.

تراجعت جيس نحو سطح المطبخ منكمشة على نفسها وهي تقول:

- لا أعرف لماذا تظن أن لي علاقة بهذا.

- لأنك الشخص الوحيد القادر على فعله.

- أنت نسيت وجود ابنتنا.

رن جرس الباب فتجاهلته. أيّاً كان بالخارج يمكنه الانتظار.

- ماجي ليست بهذا المكر.

- حقّاً؟ أعرف أنك تظنها ابنة أبيها الصغيرة التي لا يمكنها اقتراف أي خطأ، لكنها ليست بالبراءة التي تبدو عليها. أراهن أن نصف مشكلة صديقها الخيالي لجذب انتباهك فقط.

أطلقت ضحكة مريرة أدهشتني، ثم قلت:

- أهذا تفسيرك لأمر مُشغِل الأسطوانات اللعين؟

عرفت وقتها أن الشجار ليس بسبب الجهاز، بل بسبب كل شيء حدث منذ انتقلنا إلى بانبيري هول. عشرة أيام من الصراع والندم والتوتر الذي ظل خفياً حتى هذه اللحظة. والآن خرج ما كنا

تجاهل وراح ينتشر بسرعة التهاب حرائق الغابات.

صاحت جيس:

- أنا لم أمس مشغل الأسطوانات الذي تقصده! ولو فعلتها لكان فعلي مبررًا خاصة وأنت من أرغمتنا على الانتقال إلى هذا البيت البائس.

صمت بدوري:

- أنا لم أجبركما! أنتِ أيضًا أحببتِ هذا البيت!

- ليس كما أحببته أنت. رأيت هذا على وجهك لحظة خطونا إلى داخله. هذا هو المنزل الذي طالما رغبت فيه.

- كان يمكنك أن تقولي..

قاطعتني جيس:

- لا؟ لقد حاولت يا إيوان ولم تفلح محاولاتي، ولن تفلح. ظللت تدافع وتناور حتى وصلت إلى مبتغاك كما تفعل دائمًا، ولم يكن لي ولا لماجي خيار إلا الانصياع لما تريد. نحن نعيش في منزل ملحق به مقابر لعينة، وابنتنا تتصرف بغرابة لم نرها من قبل، وهذا السقف اللعين..

توقفت، وبكت بوجه محمر. سرت الدموع على خديها في منظر لم أكن لأتحمله تحت أي ظرف. هممت أن أجذبها نحوي وأضمها إليّ بأقوى ما أستطيع، وأخبرها أن كل شيء سيكون بخير، لكنها تكلمت مرة أخرى فأوقفتني.

- ولا تستفزني أكثر فتجبرني على الحديث عن بِترا.

تصلّب عمودي الفقري وأنا أسألها:

- ماذا بشأنها؟

- لقد لاحظت كيف تنظر إليها يا إيوان. رأيتك تلتقط لها صورة أمس.

- لقد كنتِ في الصورة أيضًا.

هذا سخَف. انجذابي الجنسي لبِترا ديمتر لا يتعدّى انجذابي الجنسي لهيبتس.

- هي مجرد طفلة يا جيس. فكرة إعجابي بها فكرة سخيفة.

- أجل، في سخف فكرة قيامي بالليل والتسلل إلى مكتبك وتشغيل جهاز لم أره من قبل.

مسحت عينيها وغادرت المطبخ. تبعتها عبر الدّرج المؤدي إلى الطابق الأرضي.

- جيس! انتظري!

أكملت طريقها خارجة من غرفة الطعام، ثم انطلقت صاعدة إلى أعلى. استوقفتني رؤية شخص يقف في الغرفة الكبرى، يؤطره مدخل الباب الذي يفصلها عن غرفة الطعام.

بِترا ديمتر.

قالت:

- رننت الجرس وفتحت لي مابجي.

- منذ متى وأنتِ هنا؟

- منذ قليلٍ.

فضحت حُمرة وجنتيها الحقيقة، وعرفت أنها سمعتنا، لكن ربما لم تسمع كل شيء..

- ليس هذا وقتًا مناسبًا للزيارة يا بِترا.

- أعرف. معذرة.

نظرت إلى الأرض في توتر وأردفت:

- لكني قرأت الخطابات ليلة أمس. تلك التي كانت مدفونة في السقف.

أخرجت بِترا من حقيبة ظهرها الأظرف وقد وضعت كل واحد منها في كيس بلاستيكي مغلق. أعطتها لي وهي تقول:

- ستود قراءة هذا يا سيد هولت.

وضعتُ الخطابات على طاولة غرفة الطعام، فهي آخر اهتماماتي الآن.

- سأقرؤها، لكن..

جمعتها بِترا ووضعتها في يدي مرة أخرى وقالت:

- الآن. ثق بي.

***

الخطابات مفرودة على أرضية غرفة إنديجو، حيث جلسنا أنا وبِترا بعدما طلبت مني قراءتها على الفور. أربع خطابات بخط يد نضيد أنيق.

قالت بِترا:

- كتب الخطابات شخص يُدعى كالُوم، وكلها موجهة لإنديجو، لذا استنتجت أنها خبأتها تحت ألواح الأرضية بعدما قرأتها.

- ولماذا تخبئها؟

أشارت بِترا إلى الخطاب الأول وقالت:

- الإجابة هنا.

حملت الخطاب، وقرأت من الصفحة الرقيقة المهترئة.

3يوليو 1889

أعز الأعزاء إنديجو،

أكتب هذه الكلمات بقلب مُثقل وقد تحدثت توًا إلى والدك. كما نخشى يا حبيبتي فقد رفض منحي الإذن في طلب يدك للزواج رفضًا نهائيًا. أسباب رفضه هي بالضبط ما توقعنا، افتقاري لسُبل الإنفاق عليكِ في حياة مماثلة لما اعتدتِه، وأنني أثبت انعدام ملائمتي لعالم الأعمال والاقتصاد. رغم توسلي إليه كي يغير قراره، وتأكيدي له أنه لن يعوزك شيء لو صرتِ زوجتي، لكنه رفض إعادة التفكير في الأمر. للأسف فشلت خطتنا للزواج بمباركة أبيكِ وتحت عيني الرب، وبحضور الأقرباء.

على ذلك ما زال لدي أمل يا محبوبتي في سبيل آخر يمكِننا من أن نتحد كرجل وزوجته، لكنه

سبيل تمنيت لو تحاشينا اللجوء إليه. بما أن أباكِ أعلن أن رأيه صلب لن يتزعزع، أجرؤ على اقتراح أن نتحدى مشيئته. أعرف قسًا في مونتبلي سيوافق على جمعنا بميثاق الزواج دون حضور عائلتك. أعلم تمام العلم أن العواقب ستكون وخيمة، لكن إن كان حبكِ لي بقدر ما تزعمين، فأرجوكِ أن تفكري في الأمر. أرسلي جوابك سريعًا وأخبريني قرارك. أؤكد لك أنني سأكون جوارك دائمًا وللأبد حتى لو رفضتِ عرضي.

المتفاني بإخلاص،

كالوم.

أنزلت الخطاب، وتحركت عينيّ إلى اللوحة أعلى المدفأة. أخبرني هيبتس عن محاولة هرب إنديجو الفاشلة مع الرجل الذي رسم لوحتها ووقعت في غرامه، والآن أتساءل إن كان كاتب الخطابات هو الشخص ذاته.

قمت واتجهت نحو اللوحة مذهولًا مرة أخرى بكَم التفاصيل. لمعة الجذل في عيني إنديجو. لمحة الابتسامة على شفتيها الياقوتيتين. رسم تفاصيل فراء الأرنب الذي تحمله. بعيدا عن طبقة الألوان المشقّقة حول أذني الحيوان، فالعمل متقن لا يشوبه شائبة. أنظر إلى ركن اللوحة الأيمن فأرى توقيع الرسام.

- كالوم أوجست.

قالت بِترا وقد فوجئت بها إلى جواري:

- هو الشاب نفسه الذي كتب الخطابات.

- أجل. هو الشاب نفسه.

عدنا إلى الخطابات على الأرض، واستكملت قراءة الباقي، بدءًا بالخطاب المؤرخ بثلاث أيام بعد الخطاب الأول.

6 يوليو 1889

عزيزتي إنديجو،

ظل قلبي يغني طربًا منذ تلقّيت ردّك، وسأظل سعيدًا حتى آخر أيامي. أشكرك يا أعز الأعزاء لموافقتك على خطتي رغم ألم عصيان أبيكِ. أعرف أن الصلة بينكما أعمق من أي صلة بين أب وابنته. أنت قرّة عينيه، ولا يمكن للمرء أن يلومه لأنه يتمنى لكِ الأفضل. أملي الأكبر أن يتفهم ما سنفعل قريبًا، ويقبل بأن ما بيننا حبًا لن يموت.

تحدث مرة أخرى مع القس الذي وافق على تزويجنا سرًا، وهو يريد إتمام الأمر خلال الأسبوعين القادمين. أعرف أن هذا يقلل الوقت الذي تحتاجين إليه لتهيئة نفسك لأمر جلل كهذا يغير حياتك، لكن الأفضل أن نفعل ذلك عاجلا غير آجل.

تأخير التنفيذ قد يعرض خطتنا للانكشاف. أنا جهزت عربة لتنتظرك خارج بانبيري هول عند منتصف الليل بعد تسعة أيام. أوكلت الأمر كله لصديق ثقة وافق على نقلك إلى حيث نعقد وثاق زواجنا في مكان لن أستطيع أن أذكره في هذا الخطاب خشية أن يقع في يد أحد. جهزي كل ما يمكنك جلبه معك سرا. عندما تدق الساعة معلنة انتصاف الليل ارحلي، على أمل أن يغير والدك رأيه في أمر زواجنا، ويسمح لنا بالعودة

إلى البيت، لكن هذه المرّة زوجين.

المخلص لك دائمًا،

كالّوم

10 يوليو 1889

محبوبتي إنديجو

أقلقني خطابك الأخير أكثر مما يمكنني التعبير عنه. هل تشكين أن والدك قد وصلت إليه كلمة من خطتنا؟ إن كان الأمر كذلك، فما السبب الذي دفعك للشك في الأمر؟ أعزي شعورك هذا إلى التوتر الذي يصاحب ما نفعل، ومن خشية نتائج علم أبيك. أريدك أن تتأكدي، مع التزام أكبر قدر من السرية.

المتفاني،
كالوم

15 يوليو 1889

يقبض عليَّ الخوف وأنا أكتب هذه الكلمات. خوف عميق يهز العظام من أن يمنع والدك زواجنا الوشيك بأي طريقة ممكنة. فهمت من خطابك السابق أنه لا يعرف خطتنا لكنه لن يعترف بما يعرف. لا نثقي به يا عزيزتي. الشيء الوحيد الذي يمنعني من العصف بأبواب بانبري هول وسرقتكِ منه معرفتي أن ساعات قليلة تفصلنا عن منتصف الليل. حافظي على نفسك قوية وآمنة حتى ألقاكِ يا حبيبتي.

حبيبك للأبد،
كالوم

أبعدت الخطاب الأخير محزونًا وقد عرفت أن إنديجو لم تلحق بكالوم المسكين. شعرت بِترا بحزني فقالت:

- هي لم تتزوجه قَط، أليس كذلك؟

- القصة التي سمعتها تقول أن أباها عرف ما يخططان له ومنعها عن الهرب وعن رؤية كالوم مرة أخرى.

صفَّرت بِترا ثم قالت:

- اللعنة. ماذا فعلت إنديجو؟

- قتلت نفسها.

بهت تعبيرها وهي تصيح:

- حقًا! وكم كان عمرها عندما ماتت؟

- ستة عشر.

- في مثل سني. لكن ثق بي، إن كنت أحب شخصًا فلن يمنعني شيء عن رؤيته، ولا حتى أمي، وبالطبع لن أقتل نفسي أبدًا.

قلّبت الخطابات متجاهلة حالتها الرثّة، حتى اختارت واحدًا منها وأشارت إليها بطرف إصبعها فتفتت جزء من طرفه. قالت وهي تقرأ بصوت عال:

- كُتب هنا.. *خوف عميق يهز العظام من أن يمنع والدك زواجنا الوشيك بأي طريقة ممكنة.*

دفعت الخطاب نحوي، فقرأته مرة أخرى موليًا اهتمامًا أكبر لتحذير كالوم من نيات ويليام جارسن.

لا تثقي به يا عزيزتي.

- ماذا لو..

ثم سكتت بترا محمرة الخدين، كأنها تعرف أن ما ستقول سيبدو سخفًا. لكنها أكملت:

- ماذا لو أن إنديجو جارسن لم تنتحر؟ ماذا لو أن أباها قد قتلها؟

كنت أفكر في الشيء نفسه. طالما ظننت القصة الرسمية التي عرفتها من هيبتس تفتقر إلى ما يربط أحداثها معًا. مقتل إنديجو هو الرابط على ما أظن.

قلتُ:

- السؤال هو: ماذا سنفعل؟

رفعت بِترا حاجباً كأن الإجابة واضحة. قالت:

- نبحث ونرى إن كنا قادرين على إثبات أن ويليام جارسن قاتل.

الثالث عشر

ظللتُ في الصباح ساعة أجفف فيها ملابسي الندية قبل أن أعجل مغادرتي من النزل. مستوى الإقامة في بارتلبي متدهور للغاية حتى أنني أفضل العودة إلى بيت أشباح مزعوم مدفون في سقفه هيكل على الإقامة ليلة أخرى في «توباينز».

لكن الأمر الأهم من حالة النزل التي يُرثى لها، والتي دفعتني للعودة إلى بانبيري هول، حاجتي إلى العودة إلى هناك، ورغبتي في معرفة سبب فرارنا، وسر عودة والدي سنويا، وما حدث لبِترا المسكينة. الحقيقة تقترب والمسألة مسألة وقت.

ترسل إليّ رئيسة الشرطة ألكوت مرافقة من الشرطة. تنتظرني معها أمام النزل لتخبرني أن في إمكاني العودة إلى البيت. تصر ألكوت على قيادة سيارتها الـ«دودج تشارجر» أمامي طوال الطريق. عندما نصل إلى بانبيري هول، أفهم السبب.

يحجب البوابة الأمامية عشرات المراسلين الصحافيين والإعلاميين، وعدد من حافلات القنوات الإخبارية تخيم على جانب الطريق، أبوابها الخلفية مفتوحة، ينتظر داخلها مصورون ملولون كالأطفال. يخرجون من حافلاتهم لمرآنا نقترب من البوابة، يصوبون نحونا الكاميرات. يتكالب المراسلون حول شاحنتي، أرى بينهم براين برنس، رابطة عنقه الفراشية تعطي الانطباع بأنها

تقول لي «ألم أقل لكِ». ما يضفي عليه مزيدًا من ثقل الظل.

يصرخ:

- ماجي! هل تعتقدين أن والدك قتل بترا ديمتر؟

أستمرُّ في القيادة ببطء، متقدمة بالشاحنة نحو البوابة. تنزل رئيسة الشرطة من سيارتها مسلحة بالمفاتيح التي أعطيتها لها قبل مغادرتنا «توباينز». تقتحم الحشد وتفتح البوابة. تصيح في المراسلين وهي تلوح بذراعها:

- على رسلكم! دعوها تمُر.

براين برنس آخر من تحرك. يطرق على نافذة الشاحنة، يرجوني أن أجيب سؤاله.

- حدِّثيني يا ماجي. أخبريني القصة من وجهة نظرك.

أدعس دواسة الوقود فتنطلق السيارة إلى الأمام تاركة براين برنس يغوص في سحابة غبار. لا أقلل سرعتي حتى أصل إلى أعلى التل، أمام بانيبري هول. يبدو البيت الآن مشؤومًا أكثر مما بدا بالأمس مع علمي أن هذا مستحيل. الشيئان الوحيدان اللذان تغيرا هما علمي بما حدث داخل المنزل، وشريط الشرطة الأصفر الممزق أمام الباب الأمامي.

توقف رئيسة الشرطة سيارتها خلفي ثم تخرج منها، وأترجل أنا عن شاحنتي. نقف تفصلنا

مسافة، نتبادل النظر كأننا في مواجهة مُسلحة من أحد أفلام الغرب الأمريكي القديمة، تعلم كلتانا أننا على الأرجح لسنا في الجانب نفسه من الوضع الحالي. الأمر يتوقف على مدى اعتقادي بأن أبي مذنب، وهو اعتقاد يتغير مع كل دقيقة.

تقول لي:

- أتمنى لو نتحدث. الرجال من وُترُي فحصوا فحصًا مبدئيًا الرفات ليلة أمس.

- واكتشفوا أنها بِترا، أليس كذلك؟

- ليس بشكل رسمي بعد. هم يحتاجون إلى التحقق من سجلات بصمات الأسنان، لكن الهيكل هيكل فتاة في نهاية فترة المراهقة. لذا يبدو أنها هي.

رغم أنني لم أفاجأ، تصدمني الأنباء. أجلس على درج الشرفة الأمامية. سروالي الندي يلتصق بفخذي. سأرتاح أكثر لو غيرت ملابسي لكني لست مستعدة بعد لدخول بانبري هول.

- هل عرفوا سبب الوفاة؟

- ليس بعد. جمجمتها مهشمة، وهذه هي الإصابة الوحيدة التي أمكنهم التأكد منها، لكن يتعذر استنتاج ما قتلها، وصعب تأكيد معلومة كهذه بسبب حالة العظام.

- لماذا كنت تظنين أن بِترا هربت طَوال هذه السنوات؟

- من قال إنني أظن هذا؟!

- براين برنس.

- هراء. الحقيقة أننا لطالما شككت أن مكروهًا أصابها.

- ولماذا لم تفعلي شيئًا حيال ذلك؟

- لم أكن مسؤولة وقتها عن القضية. بيني وبين ما حدث ثلاث رؤساء شرطة سابقون، ولم يكترث أحد منهم لاختفاء مراهقة. اهتممتُ أنا لكني ظللت صامتة، وهو شيء أندم عليه في كل يوم لعين من الخمسة وعشرين عامًا السابقة.

تأخذ رئيسة الشرطة ألكوت شهيقًا عميقًا لتهدئ نفسها ثم تردف:

- لكني الآن مسؤولة، وأريد أن أعرف ما حدث للفتاة المسكينة. لذا دعينا نتحدث عن المشتبه فيهم. بعيدًا عن والدك، من قد يدفن الجثة أسفل ألواح الأرضية؟

- المفترض أن أسألك أنا هذا السؤال. هل الأفضل أن نناقش الأمر من الأساس؟

تخلع ألكوت قبعتها وتخلل شعرها القصير الفضي بأصابعها وهي تقول:

- لا أرى أي ضرر في حديثنا. أنا فقط أحاول تغطية كل جوانب القضية. لا يجب أن تعتبريني عدوا يا ماجي.

- أنت تظنين أن أبي قاتل.

- أنت لم تمنحيني سبباً كي أظن العكس.

لو أن أمي اتصلت بي لاستعددتُ الآن للنقاش. لكنها لم تفعل حتى بعدما اتصلت بها مرة أخرى هذا الصباح. لا يمكنني الآن سوى أن أطوح النظريات عشوائيًا في وجه الشرطية.

- أعرف أن أبي يبدو مذنبًا، وربما يكون قد فعلها، لكن إن كان فعلها حقًا فلماذا ذكر بِترا بهذه الكثافة في كتابه؟ إن كان بينهما علاقة كما يظن براين برنس، أو أنه قد قتلها كما يغلب ظن الجميع، كان الأفضل ألا يذكرها مطلقها.

تقترح رئيسة الشرطة:

- ربما هذا ما كان يريده أن يصل إلينا.

- أو ربما من قتلها شخص آخر.

هزت رئيسة الشرطة رأسها بسرعة تجاه باب المنزل وسألت:

- هل يُسمح للكثير بالدخول إلى هذا المنزل؟

أقول:

- مع والت هيبتس مفاتيح البيت.

- هذا حقيقي، لكن ماذا قد يكون دافعه؟ عاشت بِترا بالقرب من المنزل طوال حياتها، وأتيح له فرص كثيرة لقتلها، ناهيكِ بأن يكون والت العجوز من نوعية البشر التي تَقتل. لكن،

إن كان هو، فلماذا انتظر حتى وقتها؟

- ربما لعلمه أن بانبيري هول خال، فدفن الجثة فيه ليتهم أبي.

- إخفاء جثة ليست الطريقة المُثلى لإلقاء الاتهام على أحد. لكنك أثرتِ اهتمامي بذكر شخص من عائلة هيبتس.

صوت رئيسة الشرطة مُحمَّل بالمشاعر والاتهامات، ما جعلني أشعر بانعدام الراحة. تضيف:

- فوجئت لمرأى دين هنا بالأمس.

- هو يساعدني في إصلاح المنزل. لماذا فوجئت؟ هو متعهد مقاولات قبل كل شيء، على أنه أخبرني من قبل أن ما أطلب منه عمل بسيط.

- هل توقفتِ لحظة للتساؤل عن السبب؟

لم أفكر في الأمر من قبل. لقد احتجت إلى مساعدة وكان دين متوافراً، فاتفقنا.

أسألها:

- إلامَ ترمين؟

- أريد أن أقول إن أغلب الناس هنا يحجمون عن توظيف صاحب سوابق.

تخشر أنفاسي في حلقي. ليست هذه المعلومة أقل مفاجئة مما حدث أمس.

- بماذا أُدين؟

- اعتداء مُشدَّد. وقع هذا في بُرلنجتون منذ ثمانية أعوام. شجار في حانة، وتحمس دين فضرب الرجل الآخر حتى أفقده الوعي، وأصابه بجروح جسيمة. مكث ضحيته شهرًا في المشفى، وقضى دين عامًا في السجن.

أفكر في مشهد دين في الحانة، يلكُم غريبًا حتى يفقده الوعي ويدمي وجهه. لكم أود أن أومن بأنه غير قادر على هذا العنف، لكني لست واثقة بأي شيء، خاصة إن كان ذا صلة بالرجال في حياتي.

تستشعر رئيسة الشرطة ألكوت ما يدور في عقلي فتقول:

- ما كنت لأقلق لو أنني مكانك.

قبل أن تقف، تربت على رُكبتي في ود وتضيف:

- لديك أمور أعظم تقلقين بشأنها.

تعتمر قبعتها وتعود إلى سيارتها، ثم تقود مبتعدة، تاركة إياي وحدي، جالسة على الدرج أفكر في ثلاث أمور. الأول: أن لدين -أعني الرجل الذي كدت أضاجعه ليلة أمس- سوابق عنيفة. الثاني: أنني لم أقدم سببًا معقولًا يمنع رئيسة الشرطة من الشك في أبي. الأخير: أنها ربما أثارت الأمر الأخير كي تمنعني عن الأول.

يثير هذا خاطرًا أخيرًا في عقلي، ربما لدى رئيسة

الشرطة خطة خاصة بها.

***

لا أدخل المنزل إلا بعد مغادرة رئيسة الشرطة بثلاثين دقيقة، قضيت أغلب هذا الوقت في الحديث مع آلِي الغاضبة، التي أفهم سر غضبها.

تهتف بي بمجرد فتحي الخط:

- لماذا لم تخبريني أنكم عثرتم على فتاة ميتة في بانبيري هول؟

- لم أشأ أن أقلقك.

- حسنًا، أنا الآن قلقة، خاصة وقد عرفت الخبر من «تويتر». (العثور على جثة في بيت الأهوال). هذا هو العنوان الرئيس للخبر، وللحظة ظننتها أنتِ.

يغوص قلبي لأسباب عدة. أكره فكرة أن تظن آلِي -ولو للحظة- أن مكروهًا ألم بي. وأكره أن يتصدر اسم بانبيري هول الأخبار مرة أخرى. إن قرأت آلِي الخبر، فآخرون قد قرؤوه.

- آسفة. كان عليَّ أن أخبرك.

- اللعنة، هذا صحيح. كان عليكِ أن تخبريني.

- كل شيء فوضوي الآن. عثرت على جثة الفتاة المسكينة، والشرطة تظن بأن أبي الفاعل، بالإضافة إلى اقتحام أحدهم منزلي.

تقول آلِي بصوت لا يُخفي قلقها:

- مُقتحِم؟ متى؟

- منذ ليلتين. لم يفعل شيئًا، فقط جال في المنزل قليلًا.

- لكن هذا ينذر بشيء..

- لست في خطر.

تصمت آلِي لتأخذ شهيقًا يُهدئها. أسمع صوت أنفاسها عبر الهاتف.

- ماجي، أتفهَّم أنك تحتاجين إلى إجابات. لكن الأمر لا يستحق.

- سيستحِق. وقع أمر في هذا المنزل ليلة فرارنا، وقد عشتُ أغلب حياتي أتساءل عما قد يكون. لا يمكنني المغادرة الآن. يجب أن أنهي الأمر.

تقول آلِي أنها تتفهم رغبتي، رغم وضوح أنها لا تتفهم شيئًا، ولا أتوقع منها هذا. أغلب من يواجهون بموقف معقد كهذا يعودون أدراجهم ويتركون الأمر للشرطة، ثم ينتظرون الإجابات. لكن الإجابات الجاهزة المجتزئة حول موت بِترا لن تمنحني سوى نصف القصة.

أحتاج إلى سياق.

أحتاج إلى تفاصيل.

أحتاج إلى *الحقيقة*.

لو أن أبي قتل بِترا، أريد أن أعرف كي أحدد كيف أشعر تجاهه.

أتيت هنا أملًا في مسامحة أبي.

لكني لن أستطيع مسامحة قاتل.

لهذا أعجز عن التخلي عن فكرة براءته. أنا ابنة أبي. اخترنا طريقين مختلفين ونلنا نصيبنا من الخلافات، لكن المشترك بيني وبينه أكبر مما بيني وبين أمي. كنا متشابهين على اختلافنا. إن كان هو قاتل، فماذا أكون؟

أحتاج إلى عشر دقائق أخرى بعد إنهاء مكالمة آلي حتى تواتيني الشجاعة لدخول بانبيري هول. أنتزع بقايا شريط الشرطة الأصفر في طريقي، وأتركه يرفرف في الهواء مبتعدًا. أتوقف في المدخل مترددة. الفارق الآن أنني أشعر بالفعل أن بانبيري هول مسكون.

أتمعن بهدوء في المنزل. ربما احترامًا لبترا. أو ربما بسبب خوفٍ غير واعٍ من أن يكون شبحها في المكان. لُف بساط غرفة إنديجو وأسند إلى الحائط. انتزعت الشرطة ألواح الأرضية وأخذوها معهم. توجد الآن فجوة في منتصف الغرفة في حجم تابوت طفل.

أطل من خلالها إلى المطبخ بالأسفل، وأرى أنهم قد نظفوه من بقايا الانهيار. يبدو أن تلك البقايا تندرج الآن في قائمة الأدلة الجنائية، وقد احتفظوا بها في صناديق وأخذوها معهم.

أذهب تاليًا إلى قاعة الاستقبال. على مقعد

مكتب السكرتارية الضخم صورة عائلتي في إطار مُذهَّب. أديرها لأواجه بنا معًا، سعداء، غافلين عما سيحدث. أبي الوسيم الساحر. وأمي الباسمة. وأنا ذات السن المفقودة. كلهم غرباء عليَّ.

وقفتُ لحظات أحدق إلى الصورة بلا هدف.

ثم رُحتُ أضرب المكتب بالإطار، مرة فأخرى، فأخرى. أصفق الإطار على المكتب.

مرة أخرى.

تليها مرة.

ومرة أخرى أيضًا.

ظللتُ أفعل ذلك حتى يتشظَّى زجاجه، وينحني معدنه، وتتشوه صورة عائلتي.

وصف دقيق آخر.

فِعلي يطهِّرني، لكنه يترك المكتب مغطى بشظايا الزجاج. أحاول جمعها باستخدام قطعة ورق، فأكتشف أنها الورقة المكتوب عليها كلمة واحدة متسائلة: «أين؟»

كنت قد نسيتها خلال إعصار أحداث الأيام الماضية. وقتها لم أكن أعرف لها معنى، لكن مرآها مرة أخرى أضاء عقلي بوميض الفهم.

بِترا.

أحدهم كان يبحث عنها حتى لو لم تهتم الشرطة؛ وقد وصل الأمر إلى أبي.

أفتش المكتب بحثًا عن رسائل أخرى. أجدها أخيرًا في درج سفلي، محشورة بداخلها بلا ترتيب. عشرات الأوراق بعضها مطوٍ وبعضها مفرود. بعضها مصفر بفعل الزمن، وبعضها جديد ناصع.

أقرأ على واحدة منها: «لماذا؟»

أسحب ورقة أخرى، مصفرة الحواف. خط الكتابة نفسه لكن الحروف تبدو مهندمة، والخطوط غير مهتزّة متعجلة كسابقتها.

«أخبرني أين هي؟»

أخرج كل ما في الدرج من أوراق وأرتبها مفرودة في كومة، ثم أتصفحها وأقرأ كل منها حتى أكتشف أنها متشابهة.

«ماذا فعلت بها؟؟؟؟»

أقلب خلال الكومة مرة أخرى كصرفي يعد رزمة أوراق مالية.

أربع وعشرون ورقة، واحدة لكل عام مر على اختفاء بترا ديمتر، آخرها يدلني على كاتبها.

«أين أختي؟»

6 يوليو
اليوم الحادي عشر

داخل مكتبة بارتلي يشبه بانبيري هول إلى حد غريب. شاسعة قوطية ساحرة، نوافذها ذات قمة مقوسة وحواف منحوتة مزخرفة. التعمق فيها أشبه بالتجوال داخل منزلي، ولم أدهش حين رأيت اللوحة البرونزية المعلقة في المدخل تعلن أن ويليام جارسن هو من بنى هذه المكتبة.

رأيت لوحة له معلقة على جانب البهو. أعرف ملامحه من اللوحة في الغرفة الكبرى رغم أن الرسام هذه المرة كان أكثر رفقًا به. ملامح السيد جارسن هذه المرة أرق وعيناه ليستا بهذه الدُكنة. يعتمر قبعة عالية ويحد وجهه لحية بيضاء فيبدو رجلًا مسنًا طيبًا غير قادر على قتل ابنته.

غرفة القراءة الرئيسة على شكل ثماني مُبطن بالأخشاب، تتوسط المبنى. مكتب أمين المكتبة في المنتصف كقلب نابض، يبزغ منه أرفف الكتب الخشبية، تمتد من الحائط إلى السقف على مستويين منفصلين. ثمة سلم يؤدي إلى الطابق الثاني.

ثم وجدت بترا وقد افترشت كتبها عن تاريخ بانبيري هول طاولة كاملة، مع مجموعة ملفات سميكة. قالت عندما رأتني:

- أنت هنا. لم أظنك ستأتي.

كدت ألا أذهب فعلًا لأجل خاطر چيس، رغم اعتذارها لي عما قالت أمس. نطقت بعبارة مرهقة: «آسفة بشأن أمر بِترا. كنت أشعر بالغيرة فقط». أعرف أن مقابلتنا هنا لن تروقها، خاصة وأن نيتنا البحث في تاريخ بانبيري هول، وهو أمر وعدت زوجتي بألا أقربه. لكن فضولي تجاه مصير إنديجو جارسن غلبني وأنساني أي قلق من اجتماعنا. ينتصر فضولي دائمًا على المنطِق.

قلت وأنا أجلس إلى جوارها:

- يبدو أنك كنت مشغولة.

قالت بِترا وهي تربت على كومة الملفات:

- عثرت على مساعدة. أمين المكتبة أعطاني هذا وقال إن كثيرًا من الناس يأتون هنا بحثًا عما وراء هذا المنزل. أليست الإقامة في بيت شهير كهذا غريبة؟

- لم أقم هناك كفاية لأحكم.

تجاهلت إخبارها أن بانبيري هول غريب لأسباب أخرى كثيرة. سألتها:

- هل الإقامة تحت ظله حرفيًا غريبة؟

أبعدت بِترا خصلة من شعرها الذهبي عن جبينها وأجابت:

- لا. أنا لم أعش في مكان آخر كي ألاحظ الفارق، لكن أمي تتصرف أحيانًا بغرابة.

- كيف هذا؟

- دائمًا تصلي قبل أن تذهب إلى المنزل، وتُقبّل صليبها. تصرفات كهذه. أخبرتني ذات مرة أنه مسكون.

- هل تؤمن بهذا حقًا؟

- هي فقط مُتطيِّرة تؤمن بالخرافات.

تسحب بِترا ملفًا من الكومة وتناولني آخر وهي تكمل:

- هذا بسبب الموروث الألماني المتعصب فيها. مسيحية أكثر من اللازم. مثلًا لو أنها عرفت ما أفعل الآن لأخبرتني أنه لن يُسفر عن شيء طيب، وسينتهي المطاف بي وقد تلبستني روح ويليام جارسن الخبيثة أو شيء كهذا.

الملف الذي دفعت به إليّ مليء بقصاصات الصحف، أغلبها محلي في عمر بانبيري هول ذاته. أول قصاصة عبارة عن صورة لصفحة أولى بتاريخ 3 سبتمبر 1876. العنوان الرئيس: «افتتاح ضيعة جارسن»، والخبر يتحدث عن دعوة جارسن لزيارة ضيعته العظيمة.

أخبار أخرى من الملف نفسه تخبرني عن حفلات راقصة وأعياد ميلاد، وزيارات مشاهير لبانبيري هول. لفت نظري خبر من عام 1940. «إقامة مَلَكية لنجوم هوليوود في بارتلي»، ويضم الخبر صورة مبقعة لكلارك جيبل، وكارول

لومبارد يشربان الخمر في غرفة إنديجو.

لكن حكايات الموت غطَّت على أخبار المشاهير والأثرياء أكثر مما قد أصدِق. بدأت سلسلة موت مأسوي بدأت بمصرع إنديجو جارسن. حادث سيارة عام 1926 قتل فردا آخر من عشيرة جارسن، تلاه حادث غرق في مغطس عام 1941. ماتت نزيلتان في البيت -أيام كان نزل مبيت وإفطار- ميتة غامضة، واحدة منهما عام 1955، والأخرى في العام التالي، ثم أخيرًا حادث سقوط مميت من على الدرج عام 1974.

تلك الأخبار جعلتني أتذكر قول هيبتس: *بانبيري هول يتذكَّر.*

تساءلت أيضًا عن سبب إخفائه أخبار كل هذا الموت المأسوي عني. مستحيل أن أصدق أنه لا يعرف بها. عملت عائلته في هذه الضيعة طَوال عدة أجيال، ما يعني أن هناك سببًا لعدم إخباره لي بشأن تلك الوقائع الأليمة الغامضة.

ربما لم يشأ أن يصيبنا بالذعر.

أو ربما لا يريدنا أن نعرف أبدًا.

وصلت إلى خبر في الجريدة المحلية عن كُرتس كارفر وكيتي كارفر وآخر الفواجع التي وقعت هناك. لم يضع الكاتب وقتًا، فانتقل إلى التفاصيل المثيرة مباشرة.

وفاة رجل وابنته فيما تطلق عليه شرطة بارتلي

جريمة «قتل-انتحار» في بانبيري هول، أحد أكثر الأماكن في البلدة قدمًا وشهرة. أعلنت الشرطة أن كُرتس كارفر، 31 عام، خنق ابنته كيتي ذات الست سنوات قبل أن يقتل نفسه، وهي جريمة هزت مجتمع البلدة الصغير بموجات الصدمة من بشاعة ما حدث.

الصورة المرفقة بالخبر هي الصورة نفسها التي وجدتها جيس في أثناء جولتنا الأولى في المنزل، والتي تظهر فيها مارتا كارفر وابنتها كيتي باسمتين، في فستانين متماثلين، وكرتس على مسافة منهما، يبدو غامضا ووسيمًا للغاية.

وضعتُ القصاصة فوق كومة الأخبار عن موتى بانبيري هول. أردت أن أقرأ مزيدًا، أقرأ عنهم جميعا، لكن علينا أن نركز على ويليام جارسن وابنته إنديجو. يمكن أن ينتظر الآخرون قليلًا.

أقول لبترا:

- سأنسخ صورًا عن هذه المقالات وسأعود فورًا.

آلة النسخ الوحيدة في المكتبة ضخمة ثقيلة، وضعوها خارج باب غرفة القراءة، يمكن الحصول على نسخ منها بمقابل زهيد. أخرجت العملات المعدنية من جيبي وبدأت تصوير المنشورات.

تعبر من خلفي امرأة نحو قاعة القراءة بينما تنزلق

نسختي الأخيرة، صورة لإعادة نشر خبر جريمة آل كارفر، داكنة ملطّخة. تغيرت الأجواء في المكتبة لوجودها، كأنها تشع في المكان حولها نبضات كهربية غير مرئية لكن محسوسة. رفع الناس أعينهم عن الكتب وصمتت الهمسات الجانبية فجأة.

التفَتُ خلفي لأرى الوجه الذي يطالعني من نسخة الخبر. هذه هي مارتا كارفر.

اتجهَت مرفوعة الرأس إلى رف الإصدارات الحديثة محاولة تجاهل انتباه الآخرين غير المرغوب لها. لاحظتني أحدق إليها، فلم أجد بدًا من الاقتراب منها والقول بنبرة مترددة:

- معذرة يا سيدة كارفر.

رمشت من خلف نظارتها وقالت:

- نعم؟

- إنا إيوان هولت.

استقام عودها النحيل مخفيًا رجفة بسيطة، فأضفت:

- آسف لإزعاجك، لكني أريد أن أسألك فقط إن كنت ترغبين في الاحتفاظ بأي شيء في بانيري هول؟ يسرني توصيله لك.

- لدي كل ما أحتاج. شكرًا لك.

- لكن كل هذا الأثاث..

- هو لك. أنت دفعت ثمنه.

رغم حدة صوتها، شعرت بشيء غير مسموع تحت كلماتها. فطنت إلى أنه الخوف. مارتا كارفر خائفة من بانبيري هول.

- لا أعني الأثاث فقط. لقد عثرت على أشياء ربما تخصك. كاميرا. مشغل أسطوانات، وبعض الصور الفوتوغرافية أيضًا.

بذكر الصور الفوتوغرافية، نظرت مارتا كارفر إلى النسخ التي أحملها، يتصدرها نسخة الخبر المكتوب عن مقتل ابنتها. وجّهت الورقة نحو جسدي لكنها قد رأتها على أي حال، وأجفلت في ضيق ثم قالت:

- يجب أن أرحل. سعيدة للقائك يا سيد هولت.

عبرت سريعًا جواري وغادرت المكتبة مسرعة. كل ما استطعت فعله غمغمة اعتذار لم تسمعه، وقد أدركتُ أنني لست أحمق فقط، بل وغدًا. عدت إلى قاعة القراءة وعاهدت نفسي على عدم إزعاجها مرة أخرى.

قالت بِترا عندما رأتني:

- انظر إلى هذا.

كانت تقرأ مقالًا في جريدة محلية كُتب بعد أشهر قليلة بعد مصرع إنديجو جارسن. نظرت إلى عنوانه الرئيس من خلف كتفها، وقرأت:

جارسن بريء من اتهامه بقتل ابنته.

قالت بِترا:

- ذُكِر في الخبر أن إحدى الخادمات أخبرت الشرطة أنها رأت السيد جارسن ليلة انتحار إنديجو في المطبخ يضع بعض توت بانبيري السام في صحن، ولم يلحظ هو وجودها. زعمت أيضًا أنه أخذ التوت وملعقة وصعد بهما إلى الطابق الثاني. بعد ساعة توفيت إنديجو. أنا أعرف أنه فعلها يا سيد هولت.

- إذًا لماذا لم يُحاكم بعدما قتلها؟

- هذا هو ما يدور حوله هذا الخبر السخيف. يقولون إنه ليس من دليل، وأن رجلًا مثل ويليام جارسن ما كان ليفعل شيئًا كهذا. إنه «عضو مثالي في المجتمع» كما يطلقون عليه. هذا اقتباس مباشر من الشرطة.

أشارت بِترا إلى الكلمات بطرف إصبعها هي تكمل:

- أعرف أن الأوضاع كانت مختلفة وقتها، لكنهم لم يحاولوا التأكد حتى، كأنما غمغموا: آه، مراهقة أخرى ماتت. من قد يهتم؟ لكني متأكدة لو أن إنديجو هي من أحضرت طبقًا من التوت لأبيها لشنقوها في ميدان عام.

تهدَّل كتفيها وهي جالسة على مقعدها تشهق بعمق. أفهم حنقها. لقد وصلنا إلى طريق مسدود. حتى وكلانا يؤمن أن جارسن قتل ابنته، لا نستطيع إثبات ذلك. قالت بِترا:

- يجب أن أرحل. أنا غاضبة للغاية وأريد تناول المثلجات أو الصراخ ووجهي مدفون في وسادة. لم أقرر بعد. أراك غدا.

نظرت إليها في حيرة وأنا أسألها:

- غداً؟

- سنبيت نحن الفتيات معًا. أليس كذلك؟

بعد كل فوضى السقف والشجار مع جيس نسيت أننا رتبنا مبيت هاتا وبِترا مع ماجي في بانبيري هول. لا أظنه وقتًا مناسبًا للمبيت، بل إنه أسوأ وقت، لكن ماجي في حاجة ماسة إلى أصدقاء، ولا يمكنني أن أمنع عن ابنتي الفرصة.

دسست الأوراق تحت إبطي واستعددت لمغادرة القاعة وأنا أقول:

- بالطبع. ماجي لا تستطيع الانتظار.

الرابع عشر

ما زال المراسلون عند البوابة.

أراهم عندما أصل إلى نهاية ممر السيارات يحتشدون خلف القضبان الحديدية، ينتظرون ظهوري. أنا الآن مضطرة للخروج، يلمحونني فيندفعون إلى الأمام، يقحمون أذرعهم التي تحمل الميكروفونات عبر القضبان كقطيع موتى أحياء في فيلم.

من بينهم براين برنس، ربطة عنقه الفراشيّة مائلة، يضرب الآخرين بكوعيه ليفسحوا له، يطمح أن يكون في موضع الصدارة منهم.

يصيح:

- ماجي! تحدثي إليَّ! ما خططك الآن لبانيبري هول؟

من خلفه يومض فلاش الكاميرات كصواريخ احتفالية. يعميني وهجهم فأتراجع ببطء في البداية، ثم أسرع أكثر وأنا أدير ظهري إلى الحشد. سرعان ما أجد نفسي أصعد التل، أقترب من بانيبري هول.

للهرب من هذا المكان سأحتاج إلى طريق آخر. أعرف واحدًا لحسن حظي، ولحظ الحسن ذاته لم يكتشفه براين برنس والآخرون بعد.

أخرج عن ممر السيارات وأتجه إلى الغابة، ثم

أنزل التل مرة أخرى تحت ستار الأشجار. أقطع الغابة حتى أصل إلى الحائط الحجري والفجوة المنهارة فيه. أعبرها، وبعد خمس دقائق أجد نفسي خلف كوخ إلسا ديمتر.

يجوز أن بعض المراسلين ينتظرون هناك، فألزَم الباحة الخلفية، أعبرها سريعاً قبل أن أقفز إلى الشرفة الأمامية المفتوحة.

ينفتح الباب الخلفي قبل أن أجد فرصة لطَرقه. تقف خلفه هانا بعضلات فك متقلِّصة. تقول لي:

- ماذا تريدين؟

- أريد أن أخبرك أنني آسفة لمصابك.

- لن يعيد هذا أختي إليّ.

- أعرف.

تعض هانا خديها من الداخل وتقول:

- هل لديك ما تقولين بعد؟

- في الحقيقة، لدي.

أدخل يدي في حقيبتي وأخرج الأربع وعشرين ورقة.

- أتساءل عن تفسيرك لهذا.

تبتعد عن مدخل الباب سامحة لي بالدخول إلى الكوخ. أتبعها إلى المطبخ. في الطريق أعبر بغرفة المعيشة حيث يعرض التلفاز برنامج ألعاب. ألمح إلسا ديمتر متكورة على مقعد، مغطاة حتى ذقنها

بدثار مغزول يدويًا.

أتساءل إن كانت هانا قد أخبرتها بشأن العثور على بِترا، وما إن كانت إلسا ستفهم.

تضربني رائحة السجائر في المطبخ مخلوطة برائحة زيت الطبخ. نجلس إلى المنضدة ذات القائمة الأقصر من الثلاثة الآخرين. تميل الطاولة عندما تُخرج هانا سيجارة من العلبة وتشعلها، ثم تميل مرة أخرى عندما أضع أنا الأوراق أمامها.

لا تكترث هانا للنظر إليها، واضح أنها رأتها من قبل.

- بدأت كتابتها بعد فراركم واختفاء هانا. كان كتاب أبيكِ اللعين قد صدر وجن جنوني.

- لأن ثلاثتكن ذُكرتن فيه؟

تنظر إليّ هانا نظرة حانقة وتقول:

- لأنه فعل شيئًا بِبترا ونجا من الحساب. عندما ظهر أبوكِ فجأة قبل يوم من انقضاء عام بالضبط بعد اختفاء بِترا، عجزت عن تحمل الأمر.

تبحث بين الأوراق حتى تجد تلك التي قادتني إلى بابها. تلك المكتوب عليها:

أين أختي؟

تقول هانا وهي تعبث بالأوراق فتتأرجح الطاولة:

- كنت غاضبة للغاية عندما كتبت هذا. ظننت أن كتابة التساؤلات التي تعتمل في عقلي

قد تساعدني في الراحة من معاناتي عام كامل. لكنها جعلتني أكثر غضباً حتى أنني ذهبت إلى بانيبري هول وتركتها عند بابه. اختفت الورقة قبيل مغادرة أبيكِ في اليوم التالي، وعرفت أنه قد رآها.

- ثم صارت عادة سنوية.

تنفث هانا سحابة من الدخان وهي تقول:

- ظننت أنني لو فعلت هذا بقدر كاف ربما أعثر على إجابات. بعد عدة أعوام صار والدك ينتظرها.

- هل واجهك بها؟

- كلا. لم يتحدث إلينا قط. أظنه كان خائفًا مما قد أقول.

أسألها:

- لكنه ظل يدفع راتب والدتك.

- شهريًا.

تهزّ هانا سيجارتها فيتساقط الرماد في مطفأة خزفية وهي تردف:

- دفع زيادة سنوية أيضًا أودعها مباشرة في حساب أمي المصرفي. فعل ذلك تحت ضغط الشعور بالذنب غالبًا. لا أهتم لتفسير ما فعل. لو أن أمك مريضة فلن تهتمي بمصدر المال أو سبب الحصول عليه.

- حتى لو كان مال رجل ظننته قاتل أختك؟

تميل هانا نحو ظهر مقعدها، وتزُم عينيها قائلة:

- خاصة لو كان قاتل أختي.

- قيل لي إن أغلب الناس يظنون بِترا قد هربت. لماذا ظننتِ أنتِ أن لأبي علاقة باختفائها؟

- لأنني رأيته يعود إلى بانبيري هول.

- متى رأيته؟

- بعد أسبوعين من اختفاء بِترا.

أميل نحو الطاولة في ذهول، فتميل الطاولة تجاهي. أسألها:

- بعد أسبوعين؟ هل أنت متأكدة؟

- متأكدة. كنت أعاني الأرق خلال تلك الأسابيع الأولى من اختفائها، وكنت أرقد طَوال الليل أنتظر عودتها. في يوم استيقظت بعد الفجر وخرجت إلى الغابة ظنًا مني أنني قد أعثر عليها لو بحثت أكثر.

تطلق هانا ضحكة حزينة مبتورة وتردف:

- ظللت أحوِّم حول الغابة خلف بيتنا حتى وصلت إلى السور الحجري الذي يحيط بملككم. سرت بمحاذاته حتى البوابة الحديدية قرب الطريق، ثم رأيت سيارة تبطئ حتى تتوقف.

- سيارة أبي.

- أجل. رأيته واضحًا كالشمس. ترجَّل عن

السيارة ثم فتح البوابة وقاد سيارته عبرها.

- هل رآكِ؟

- لا أظن. كنت بين الأشجار، هذا إلى جانب أنه بدا مشغولًا بالدخول بأقصى سرعة.

- كم مكث؟

- لا أعرف. عدت إلى المنزل قبل رحيله.

- ماذا تظنينه فعل؟

تطفئ هانا سيجارتها وتجيب:

- وقتها لم يكن لدي فكرة. الآن أظنه كان يتخلص من جثة بِترا.

أخبرتني رئيسة الشرطة ألكوت أنها ذهبتِ إلى بانبيري هول ليلة فرارنا ولم تجد شيئًا خارجًا عن العادة. لو أن أبي قتل بِترا ودفن جسدها تحت الأرضية فقد فعل ذلك قبل ذهاب ألكوت إلى المنزل مباشرة أو بعده.

أو ربما بعد أسبوعين.

في كل الحالات، لا بد أن جسد بِترا حُفِظ في مكان آخر، وهو أمر لا أرغب في التفكير فيه.

أسأل هانا:

- هل أخبرتِ أي شخص أنك رأيته يعود إلى المنزل؟

- لا، لأنني لم أعتقد أن هناك من سينصت لي، ولم تكن الشرطة مهتمة حقًّا. بدأ في ذاك الوقت

ذيوع مزاعم أبيك عن أن بانبري هول مسكون، وتوافد الفضوليون على البوابة لمحاولة إلقاء نظرة على المكان. اقتنع الجميع أن بِترا فرّت وستعود وقتما تشاء، لكنها لم تفعل.

- وهذا ما قالت والدتك أيضًا.

- لقد فعلت لأنني أخبرتها أن هذا ما حدث.

تشعل سيجارة أخرى، وتأخذ منها شهيقًا بطيئًا طويلًا تقرر خلاله أن تخبرني كل شيء.

- لبِترا حبيب، أو شيء مثل هذا.

تترك هانا العبارة معلّقة بيننا. أتساءل إن كان براين برنس قد شارك نظريته حول أبي معها. تكمل:

- لا أعرف من يكون أو مُدة علاقتهما، لكنها اعتادت التسلل ليلًا. أعرف هذا لأننا كنا نتشارك غرفة النوم نفسها. كانت تنتظر حتى تظنني نمت ثم تخرج عبر النافذة. عندما أستيقظ في الصباح تكون قد عادت ونامت. سألتها مرة عن الأمر فأخبرتني أنني كنت أحلم.

- ولِمَ الحاجة إلى التسلل؟

- لأن أمي لا تسمح بالمواعدة. أو مرافقة الصبية أو أي شيء يغضب الرب.

ترفع بِترا سيجارتها مثالًا على مَا تقول، ثم تأخذ منها شهيقًا شيطانيًا آخر مضيفة:

- كل ما تريدين معرفته عن أمي أنها متحفظة، مثلها كمثل أمها وجدتها من قبلها. نساء آل ديمتر جادات، يعملن بكد ويخشين الرب وكلام الناس. لهذا السبب عملن جميعا في الخدمة في البيوت. النظافة لهن أساسية كأنها أمر إلهي.

يسقط بعض الرماد من سيجارة هانا على طاولة المطبخ، لا تمسحه. تعبير بسيط عن التمرد.

- لم يُسمح لي أو لبِترا بفعل أي شيء. لا حضور حفلات المدرسة الراقصة ولا الذهاب إلى السينما مع الأصدقاء. حياتنا فقط مكرَّسة للمدرسة والعمل والصلاة. كانت المسألة مسألة وقت حتى تمرد بِترا.

- كم ظلت تتسلل؟

- أسبوع فقط أو اثنين على ما أظن. لاحظت تسللها أول يوليو.

يغوص قلبي، وكنت قد تمنيت لو أن تسللها بدأ قبل أسابيع من انتقال عائلتي للسكن في بانبري هول. لكننا كنا هنا بداية يوليو.

- هل رأيتِها تتسلل أو تغادر المنزل ليلة اختفائها؟

تهز هانا رأسها سريعًا وتقول:

- لا، لكن أعتقد أنها فعلت لأنها اختفت قبل صباح اليوم التالي.

- وقتها أخبرتِ أمك أنها هربت؟

- أجل.

- لماذا؟

- لأن باستر اختفى أيضًا.

ترى هانا الحيرة على ملامحي فتُفسر:

- باستر دُب بِترا المحشو. حصلت عليه قبل أعوام من ميلادي وظلت تنام إلى جواره كأنها طفلة. لو أنها قضت الليلة في مكان ما فباستر سيكون معها. ربما لا تتذكرين، لكنها جلبته معها يوم قضينا الليل معًا في منزلكم.

تقوم هانا مغادرة المطبخ، ثم تعود بعد دقائق ومعها صورة تحدق إليها وهي تكمل:

- لم تغادر المنزل دونه قَط. عندما أدركنا أن باستر اختفى افترضنا أنها هربت مع الشاب الذي تواعده.

يمكن أن يكون هذا الشاب أبي، وهو احتمال جعلني أتمايل جالسة كشل طاولة المطبخ. تزايد الشعور بالدوار وهانا تعرض عليّ الصورة. أراها فيها وبِترا فيما يبدو غرفة نومهما. بِترا تجلس على الفراش وجوارها الدب المحشو.

فراؤه بني.

عيناه زِران.

حول عنقه ربطة فراشيّة حمراء.

هو الدب نفسه الذي عثرت عليه في مكتب

أبي، والآن قد اختفى. لا أعرف -ولن أعرف غالبًا- من أخذه، لكني أعرف سببين فقط لوجوده في بانبيري هول.

- تقولين إن بِترا جلبت باستر معها يوم مبيتنا في المنزل.

- أجل. لكننا لم نقضِ الليلة كلها هناك.

أعرف هذا وشكرًا للكاتب. أسألها آملة في ألا أفصح أكثر من اللازم:

- هل من احتمال أن تكون بِترا قد تركته في البيت؟

لا يجب أن تعرف هذا بأمر وجود الدب في حوزة أبي. أضيف:

- ربما فقدته.

- لا، عادت به ليلتها إلى المنزل. أنا متأكدة.

بهذا لا يبقى سوى سبب واحد لوجود باستر في المنزل، وهو سبب آمل ألا يكون حقيقيًا.

جلبت بِترا الدب معها لأنها نوت أن تهرب غالبًا مع أبي ولا تعود إلى بيتها مرة أخرى. سحبت الفكرة أنفاسي من صدري.

ليس أمامي شيء آخر أقوله، فأقف ثم أغادر الكوخ مترنحة متقطعة الأنفاس، تتبعني هانا عبر غرفة المعيشة حيث تغيّر ما يعرض التلفاز إلى مسلسل كوميدي يضج بصوت الضحكات

المصطنعة.

أصل إلى الباب الخلفي، فألتفت نحو هانا وأسألها عن أمر آخر. سؤال لم تطرحه فقط صورة بِترا ودبها، بل ذكرى صباح أمس أيضًا. السيد ظل في الخزانة يحدق إليّ وهو يقترب ببطء..

- يبدو أنك تتذكرين كثيرًا عن ليلة المبيت معي في بانبيري هول.

تضحك هانا ضحكة أخرى مريرة وتقول:

- صعب أن أنسى ليلة كهذه.

مع كل ما يجري، لا أرغب في شيء سوى السؤال عن تلك الليلة، وبدا لي هذا منطقيًا. لقد كانت هناك وتتذكر بينما لا أتذكر أنا شيئًا. أقول لها:

- الأمور التي ذكرها أبي عن الليلة في كتابه، كانت محض هراء، أليست كذلك؟

- لا أظن هذا.

أتفحص وجهها بحثًا عن علامة على كذبها. تُخفض نظرها نحو عينيّ فتتضح لي صراحتها التامة.

- إذًا ما كتبه أبي..

- كله حقيقي.

تقولها دون لحظة تردد، ثم تضيف:

- كل كلمة لعينة كتبها صحيحة.

7 يوليو

اليوم الثاني عشر

بدأ يوم المبيت كبداية أي يوم آخر في بانبيري هول.

صوت الارتطام.

قمت من فراشي دون أن أنظر إلى الساعة -لا داعٍ- ثم نزلت إلى حيث الثُريا مضاءة. أطفأتها وأنا أزفر زفرة ثقيلة، ثم نزلت إلى المطبخ لأغلي بعض القهوة القوية. لقد أصبح هذا من عاداتي في الصباح.

صار الإرهاق وقتها جزءًا من الحياة في بانبيري هول. وكأن المنزل يبخل عليّ بليلة نوم هادئ. حاولت الاكتفاء بقيلولة بعد الظهيرة والنوم مبكرًا.

لكن لم يكن لي نصيب من قيلولة ذلك اليوم، وقد قضينا فترة ما بعد الظهيرة في الترتيب لمبيت شخصين إضافيين في المنزل. تسوقنا ونظفنا حتى يبدو المكان بيتًا سعيدًا مُرحِبًا، بينما لم يكن كذلك بالطبع.

سبب اقتراحي فكرة إشراف بِترا على المبيت منحي وجيس فترة استرخاء وحدنا. لكن عندما وصلت هانا وبِترا مع حقيبتهما وفراشيهما المتنقل، وصينية الكعك الذي أرسلته أمهما، أدركت أن وجودهما سيزيد توترنا وضغطنا العصبي، خاصة

عندما طلبت ماجي الحديث معي ومع أمها وسط العشاء. سألتها:

- ألا يمكن أن ننتظر؟ لدينا ضيوف.

- لا. الموضوع مهم.

ذهب ثلاثتنا إلى الغرفة الكبرى تاركين هانا وبترا يأكلان المكرونة الإسباجيتي وكرات اللحم في صمت موتِر.

قالت جيس:

- عسى الأمر هام حقًا. وقاحة أن نترك أصدقاءنا بهذه الطريقة.

تعبير وجه ماجي جاد للغاية. الجرح على خدها اندمل كفاية فلم تعد في حاجة إلى ضمادة، فمنحها انكشافه سمتًا حكيمًا غريبًا.

- يجب أن ترحلا. السيدة وجه القرشين لا تريدهما هنا. ولا تحبهما. ظلت غاضبة طوال الليل.

ثم أشارت نحو ركن خاو وأضافت:

- هل تريان؟

قالت جيس:

- ليس هذا وقتًا مناسبًا. ليس وصديقتاكِ هنا.

- ليستا صديقتيّ.

قلت بصوت مشجِّع:

- لكن يمكن أن تصبحن صديقات. امنحيهما

فرصة لليلة واحدة. اتفقنا يا صغيرة؟

فكَّرت ماجي في الأمر وهي تزم شفتيها، كأنها تحسب المزايا والعيوب لصداقة هانا وبترا، ثم قالت:

- حسنًا. لكنهم قد يغضبون.

- من هم؟

- الأشباح كلها.

عادت إلى الطاولة وتركتني وجيس بلا شيء نقوله. ماجي كانت متكلمة أكثر من عادتها وظلت كذلك حتى نهاية العشاء، ثم تناول المثلجات، ثم الألعاب التي تلت ذلك، حتى أنها ظلت تدور في فرح حول منضدة الطعام بعد فوزها في إحدى الألعاب كأنها فازت بكأس العالم.

لكم كان رؤيتها مع الفتاتين هكذا مثيرًا للسرور. لأول مرة بدت ماجي سعيدة منذ انتقلنا إلى بانبيري هول، على الرغم من أنها ظلت تُسدد نظرات مرتابة إلى أركان الغرفة.

زادت حدة تلك النظرات الخائفة عندما استعدت الفتاتان للنوم. انخرطت بِترا في شجار بالوسائد مع أختها، بينما جلست ماجي شاردة تنظر إلى الركن جوار خزانتها. عندما صففتهن لألتقط لهن صورة بكاميرا التصوير الفوري بدت منشغلة أكثر بالنظر إلى الحائط خلفي بدلًا عن

العدسة.

بعدما أطفأت أنوار غرفة ماجي وعدت إلى غرفتي، أعلنت لجيس:

- ستحضر لهن بِترا أي شيء قد تحتَجن إليه.

هويت إلى الفراش، ووضعت ذراعي فوق عيني. لغصتُ في النوم مباشرة لولا ما يشغل فِكري منذ العشاء. قلت لزوجتي:

- أعتقد أن علينا عرض ماجي على مختَص.

نظرت إليّ جيس عبر المرآة وهي تدهن المرطب على وجهها وقالت:

- تعني طبيب نفساني؟

- معالج، أجل. واضح أنها تعاني خطبًا ما. يبدو أنها لا تتأقلم جيدًا مع انتقالنا، ولا أصدقاء لها، ولا يبدو أنها تريد إقامة أية صداقات. بالإضافة إلى حديثها عن أصدقائها الخياليين.. كل هذا ليس طبيعيًا، وليس لفتًا للنظر أيضًا.

بدت جيس محرجة من كلماتي وهي تقول لي:

- هل ستلقي هذه العبارات في وجهي في كل مرة نناقش حالة ابنتنا؟

- ليست هذه نيتي. أنا فقط أبرز ضرورة عرضها على من قد يساعدنا.

ولم تقل جيس شيئًا، فأردفت:

- إما أنك لا تملكين رأيًا عن الأمر، وإما لا

توافقيني ولا تريدين إعلان ذلك.

قالت أخيرًا:

- العلاج النفسي خطوة كبيرة.

- ألا تظنين أن ماجي تعاني شيئًا يحتاج إلى علاج؟

- لديها فقط أصدقاء خياليون وتجد صعوبة في إقامة صداقات جديدة. المفترض ألا نعاقبها لأجل هذا.

- ليس عقابًا، بل تقديم معونة تحتاج إليها.

جلست ثم انتقلت إلى طرف الفراش مضيفًا:

- ما تحكي عنهم ليسوا أصدقاء خياليين مألوفين يا چيس. السيدة وجه القِرشين، والسيد ظل.. هذه أسماء تطلقها عليها طفلة مرتعبة. هل سمعتِ ما تسميهم به؟ أشباح. تخيلي مدى ذعرها.

أصرّت چيس:

- هذه مجرد مرحلة طارئة بسبب انتقالنا وكل ما يحدث في هذا المنزل. أخشى إن أرسلنا ماجي إلى معالج نفسي أن نفضح مخاوفها ونعترف بها بشكل ما. سيكون هذا لدي همًا أعظم من مرحلة تمر بها مؤقتًا حتى تعتاد هذا المكان.

- ماذا لو لم تمر المرحلة؟ ماذا لو أنها تعاني خللًا عقليًا..

ثم قاطعتني صرخة تصدر عن غرفة ماجي،

وتنطلق عبر الممر كرصاصة. بوصول صوت الصرخة التالية إلينا كنا أنا وجيس بالفعل خارج غرفة نومنا، ونهرول عبر الممر.

كنت أول من يصل إلى غرفة ماجي فاصطدمت ببِترا التي انطلقت خارجة إلى الممر. لفّت ذراعيها النحيلتين حول نفسها، محاولة السيطرة على رجفتها. قالت:

- إنها ماجي.

سألت جيس وقد لحقت بي:

- ما بها؟

- لا أعرف. لكنها مذعورة.

داخل الغرفة صرخت ماجي:

- ابتعد عني!

هرعت داخلًا، ففوجئت بما رأيت.

بابا الخزانة مفتوحان عن آخرهما، والفساتين التي علقتها جيس بداخلها منتثرة في أرجاء الغرفة. هانا داخل كيس نومها، مغطاة حتى عنقها، متجمدة من الخوف، تزحف إلى الخلف كدودة.

وقفت ماجي فوق فراشها وهي تصرخ في الخزانة المفتوحة:

- ابتعد عني! ابتعد عني!

سمعت صوت بِترا وهي تخبر جيس في الممر عما حدث، تخرج منها الكلمات مرتجفة.

- كنا نائمات، واستيقظت هانا صارخة تزعم أن ماجي تجذبِ شعرها، لكن ماجي قالت إنها لم تفعل، وأن مَن جذب شعر هانا شخص آخر. ثم سمعنا صوت بابي الخزانة يفتحان وتطير من داخلها الملابس بينما ماجي تصرخ.

ظلت ماجي واقفة فوق الفراش، وتحولت صراختها إلى ولولة لا تتوقف تثقب الآذان. في الركن هانا متكومة في كيس النوم تغطي أذنيها بكفيها.

- ماجي، لا يوجد أحد هنا.

صرخت ماجي:

- بل كلهم هنا! قلت لكم إنهم سيغضبون!

- اهدأي يا حلوتي. كل شيء سيكون بخير.

مددت ذراعيّ نحوها لكنها ضربتهما وهي تصرخ:

- لا! هو هنا بالأسفل!

- مَن؟

- السيد ظِل.

ما أن هدأ صوتها قليلًا حتى سمعت جلبة تحت الفراش. قلت محاولًا إقناع نفسي وماجي في الوقت نفسه:

- لا شيء بالأسفل.

صاحت:

- بل هناك أحد! رأيته! والسيدة وجه القِرشَين هناك.

أشارت إلى الركن خلف باب الخزانة المفتوح. لا أظن أن هذا الباب كان مفتوحا على هذا النحو رغم أن المفترض أن يكون كذلك. قالت ماجي:

- والفتاة الصغيرة..

- أين هي؟

- جوارك مباشرة.

رغم أنني متأكد أن عقلي يخدعني، شعرت بوجودٍ ما قربي بالطريقة نفسها التي تشعر بها بمن يتسلل خلفك دون أن تراه. تغير ما في الهواء. أردت أن أنظر إلى جواري، لكن خشيت أن هذا قد يؤكد لماجي أنني أصدقها.

لذا، لم أنظر حتى وأنا أشعر -أو خُيِّل إليَّ أنني أشعر- أن هناك من يمس يدي. بدلًا عن ذلك نظرت عبر الغرفة إلى هانا آملًا في أن يخبرني رد فعلها بحقيقة ما يجري، لكن عينيها كانتا مغلقتين وهي تزحف إلى الخلف نحو الركن الذي تزعم ماجي أن السيدة وجه القِرشَين تقف فيه.

لكنها ليست موجودة بالطبع. لا وجود للسيدة وجه القِرشَين، لكن ما أن وصلت هانا إلى الركن حتى بدأت تصرخ:

- شيء لمسني! شيء لمسني!

بين صرخاتها أسمع مرة أخرى الصوت المكتوم أسفل الفراش، كأنه صوت خطوات عنكبوت ضخم. دون تفكير هويت على رُكبتي، وفوقي ماجي تصرخ بصوت يماثل صوت هانا ارتفاعا. مزيد من الضوضاء تصل إليّ من ناحية الباب، وجيس تسألني عما أفعل بحق الجحيم.

تجاهلتها.

تجاهلت كل شيء.

صببت تركيزي فقط على الفراش. أريد أنا أرى ما الذي يختبئ تحته. بيدين راجفتين أزيح طرف الملاءة وأنظر إلى الظلام بالأسفل.

لا شيء هناك.

ثم غاصت يدي الفراش إلى أسفل فصرخت وقفزت مبتعدا. نظرت إلى أعلى لأرى هانا وقد خرجت من كيس النوم وانضمت إلى ماجي فوق الحشية، وظلت تجذب ذراعها وترجوها:

- أوقفي ما يحدث يا ماجي! أوقفيه!

ثم توقفت ماجي عن الصراخ، وانطلقت قبضتها تجاه هانا فلكمتها. تناثر الدم من أنف هانا على وجه ماجي والفراش والأرض. غطى الذهول ملامح هانا وهي تميل إلى الخلف ذاهلة وتسقط عن الفراش، فتضرب الأرض بقوة وتصرخ لحظة ارتطامها.

هرعت جيس وبترا إليها، وظللت أنا مكاني على

الأرض أحدق إلى ابنتي بالأعلى، وقد بدت غير مدركة لما فعلَت توا. ظلت تنظر نحو الركن جوار الخزانة. بابا الخزانة مغلقان ولا فكرة لدي متى أغلِقا. نقلت ماجي عينيها نحوي وهمست في راحة:

- لقد رحلوا.

الخامس عشر

أغلق نسخة كتاب أبي بعدما أنهيت قراءة الفصل عن المبيت. أحدق إلى المنظر العلوي لبانبيري هول على الغلاف، ويدور في عقلي ما قالته هانا.

كله حقيقي.

لكنه ليس كذلك، مستحيل، لأنه لو كان ما ذكره حقيقي، فإذًا باقي الكتاب حقيقي، وأنا أرفض أن أصدق هذا. الكتاب محض هراء.

أليس كذلك؟

أهز رأسي وقد خاب أملي من شكي. بالطبع هراء وقد عرفت هذا منذ كنت في التاسعة.

إذًا لماذا أمكث في غرفة الطعام والكتاب أمامي؟ لماذا أردت أن أقرأ فصل المبيت أساسًا، وأنا الآن أوشك على قراءته للمرة الثانية؟

أريد أن أقنع نفسي أن الغوص في بانبيري هول أسهل من مواجهة فرضية أن أبي قتل بترا. يبدو أنني أحتاج إلى كل هذا التشتيت لا أكثر.

لكن يوجد تشابهات كثيرة بين الواقع والكتاب لا يمكن تجاهلها، ولا أستطيع تجاهل شعوري أن شيئًا غريبًا يجري، غريبًا إلى حد أن يدي ترتجفان وأنا أفتح الكتاب.

ثم أغلقه.

ثم أفتحه مرة أخرى.

ثم أطوِّحه عبر الطاولة حتى يرتطم بالحائط وترفرف صفحاته.

أمسك هاتفي لأرى إن كانت أمي قد اتصلت بي وأنا أقرأ، لكنها لم تفعل. أتصل بها مجددًا فينقلني الاتصال إلى البريد الصوتي. أغلق الخط دون أن أترك رسالة. ماذا سأقول؟ *مرحبًا يا امي، هل تعرفين بشأن الجثة في السقف؟ هل أبي الجاني؟ هل كنت أرى أشباحًا وأنا صغيرة؟*

أضع الهاتف على الطاولة وأخرج عشاءي من الكيس، رقائق تورتيًا وعلبة مكسرات متنوعة. لدي طعام في المنزل يكفي عدة وجبات، لكني لا أخطط للطبخ خاصة بعدما حدث في المطبخ وتحاشي البقاء فيه قدر الإمكان. لذا، أدس بضع رقائق في فمي، وأتبعها بالجعة والمكسرات بينما أنظر إلى الكتاب الملقى على الأرض. أقاوم استعادته. بدلًا عن هذا أقرب مني الصور التي وجدتها في مكتب أبي.

في الصورة الأولى أنا وأمي ندخل الغابة، في ركن اللقطة البعيد ظل قد يكون شخصًا، لكن واضح أنه شجرة في مكان ظليل.

الصورة التالية من ليلة المبيت، وفيها أنا وهانا باهتتين مقارنة بپترا. أدقق في وقفتها ويدها على خصرها، وساقها المثنية، والشفتين المنفرجتين في ابتسامة مغوية. لا أستطيع إبعاد فكرة أنها كانت تعرض نفسها أمام أبي.

قالت هانا: *لبترا حبيب، أو شيء مثل هذا.*

هل هو أبي؟ هل كان قادرًا على خيانة أمي بهذه الطريقة؟ حتى لو أخبرني في مرة أن أمي هي المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته، أحيانًا لا علاقة للحب بالخيانة.

أنتقل إلى الصورة التالية، صورة إصلاح سقف المطبخ، التي صارت ذات ثقل منذ ما حدث خلال الأيام الماضية. في الصورة فتاة في السادسة عشر تقف بالضبط تحت المكان الذي عُثر فيه على جثتها بعد خمسة وعشرين عامًا. مرآها أرجف جسدي حتى اهتز المقعد الذي أجلس عليه.

أدفع الصورة جانبًا وأنظر إلى تلك التي أظهر فيها أمام بانبيري هول وقد لفت نظري شيئًا مثيرًا. ليس تحت خدي ضمادة وهذا يعني أنها التُقِطت مباشرة بعد انتقالنا. لكني أنظر مرة أخرى إلى صورة المبيت ولا أرى ضمادة أيضًا ولا أثر جرح رغم أن الكتاب يذكر أن المبيت كان بعد إصابتي في مقابر الغابة.

أصفُّ الصور على الطاولة كأوراق لعب، ثم أرتبها حسب التاريخ استنادًا إلى الكتاب.

أولًا صورتي خارج بانبيري هول، ابتسم بلا هَم. تلك الفتاة التي لا أظن يومًا أنني كُنتها.

ثانيًا صورة أمي تتبعني إلى الغابة.

ثالثًا صورة المبيت، ثم الصورة التي التُقِطت في

المطبخ.

رابعا الصورة التي التقطها أبي لنفسه، ويمكن أن يكون قد التقطها أي وقت، لكن شيئا يخبرني أنها ترتيبها متقدم، فثمة ما يثقل كاهليه إذ يبدو مرهقا.

أعرف أنني جرحت في وقت ما لأن رئيسة الشرطة ألكوت أخبرتني أنها لاحظت الجرح عندما التقتنا في نزل «توباينز»، هذا إلى جانب الندبة على خدي التي تثبت هذا.

ما لم أجرح في اليوم الثالث من انتقالنا إلى هنا كما يزعم الكتاب، فمتى جرحت؟

وكيف؟

- لماذا عبث أبي في الحقائق؟

أعرف إجابة السؤال الأخير. لأن الكتاب ليس إلا محض ه...

يقطع خاطري صوت ينبعث من مكان ما من المنزل، صوت غناء يقبض معدتي.

«أنت في السادسة عشر، تعبرين إلى السابعة عشر..»

أقبض على حافة الطاولة إذا أشعر بدوار الخوف. في عقلي صدى كلمات هانا عن الكتاب وحقيقة ما فيه.

«يا صغيرتي، حان وقت التفكير..»

هذا كله هراء.

لا أشباح في المنزل.

بل مجرد غول.

«الأفضل أن تحذري...»

أنطلق من غرفة الطعام وأعبر الغرفة الكبرى. الثريا مضاءة رغم أنني واثقة أنني لم أمس مفاتيح إضاءتها منذ أيام.

أصل إلى الباب الأمامي فأجده موصدًا كما تركته، وقطعة الورق التي دسستها في فرجته بعد عودتي من منزل آل ديمتر في مكانها.

النوافذ موصدة أيضًا. لو هذا غول -بالطبع غول- فكيف دخل؟

لا سبيل للتحقق إلا واحد.

تستمر الأغنية وأنا أتسلل صاعدة الدَّرج، محاولة ألا يصدر عني أي صوت. لو أنني سأقبض على المتسلل متلبسًا فعلي أن أفاجئه.

يعلو صوت الموسيقى وأنا في الطابق الثاني، وهذا في صالحي إذ سيغطي الصوت على صوت خطواتي وأنا أتسلل إلى غرفتي لأجلب السكين.

أتحرك عبر الممر قابضة على السكين حتى تبيَض مفاصل أصابعي. أصعد الدرج إلى الطابق الثالث، وتستمر الأغنية على الجهة الأخرى من باب المكتب المغلق.

أفتح الباب بسرعة وأندفع إلى الداخل، أعلن وجودي بصرخة مدوية وطعنة في الهواء.

لكن المكتب خاوٍ.

تقريبًا.

على المكتب أراه قد عاد. باستر.

***

أقف عند ممر السيارات، ألف ذراعيّ حول جسدي لأحميه من برودة المساء، بينما تنهي رئيسة الشرطة مسح بانيري هول. اتصلت بها مباشرة بعدما عثرت على باستر، وقابلتها عند البوابة الأمامية. الصحافيون والمراسلون قد عادوا إلى بيوتهم لقضاء الليل والشكر للرب. لو أنهم مكثوا لرأوني أفتح البوابة بيدين مرتجفتين، شاحبة كشبح.

تحققت رئيسة الشرطة فور وصولها مما يحيط المنزل أولًا، ودارت حوله تحرك مصباحها اليدوي للأمام والخلف على الحائط الحجري. والآن هي بالداخل تفحص النوافذ. أراها من مكاني عند ممر السيارات كظل محاط بإطار نافذة الطابق الثالث الشبيهة بعيني القط.

أخيرًا تنتهي، فتخرج إلى الشرفة الأمامية وتقول:

- لا أثر لاقتحام.

هذا بالضبط ما خشيت سماعه. لو أن هناك أثرًا يشير إلى اقتحام -نافذة مكسورة مثلًا- لكان

أفضل من الحقيقة التي أواجهها الآن. لا يوجد تفسير عقلاني لتشغيل الجهاز ولا ظهور باستر بعد اختفائه.

تسألني:

- هل أنت واثقة بأن ما ظننته حدث قد حدث بالفعل؟

أحكم ذراعيّ حول جسدي أكثر وأجيب:

- هل تُلَمِّحين إلى أنني أختلق الأمر؟

- لم أقل هذا، لكني لن أتجاهل احتمال جموح خيالك قليلًا تحت هذه الظروف. لن يفاجئني هذا خاصة مع ما عثرت عليه في المطبخ. قد يفقِد المرء صوابه إثر حدث مماثل.

- أنا واثقة بما رأيت وسمعت.

- ماجي، لقد بحثت في كل مكان. لا يمكن لأي متسلل أن يدخل البيت.

- ماذا لو..

أحاول إخراس نفسي، أعلم أن ذلك سيبدو عبثيًا. لكن فات الأوان. الكلمات تنهمر من فمي.

- ماذا لو لم يكن متسللًا؟

تضيّق رئيسة الشرطة آلكوت عينيها وتسأل:

- ماذا قد يكون؟

- ماذا لو أن ما كتب أبي حقيقي؟

هذه المرة لا أحاول منع نفسي من الحديث،

لكن الكلمات فاجأتني شخصياً. بينما بدت ألكوت غاضبة أكثر منها متفاجئة. ألاحظ فتحتي أنفها تتسعان.

- تقولين إنك تظنين أن بانبيري مسكون؟

- أقول إن شيئاً غريباً للغاية يجري هنا. أنا لا أكذب.

في البداية أعتقد أنني أشبه أبي في آخر فصول كتابه «بيت الأهوال»، حائرة مرتعبة حد الجنون بسبب الحرمان من النوم. ثم خطر لي خاطر مقلق صادم.

أنا أبدو مثلما كتب عني أبي.

لقد صرت ماجي المذكورة في الكتاب.

تقول رئيسة الشرطة:

- أنا أحبك يا ماجي، وأنت تبدين ذكية، فوق كتفيكِ رأس حكيم. لذا أمنحك فرصة للتوقف عن كل هذا الآن وعدم الخوض فيه أكثر.

- التوقف عن أي شيء؟

- عن فعل ما كان أبوك يفعله. لقد آذى هذه البلدة وآذى آل ديتر، وأنا متأكدة من أنه قتل بترا، ونجا من الاتهام لأنه حكى قصة الأشباح البلهاء هذه، وتشتت كثيرون بسببها عن القضية الرئيسة، بمن فيهم أنا. لكني لن أسمح لك بفعل الشيء ذاته مرة أخرى خاصة وقد كشفنا ما فعل، ولن أسمح لك بتعكير المياه بقصصك عن

البيت المسكون. أرفض أن تكتبي جزءًا آخر من الحكاية اللعينة.

تنطلق كعاصفة إلى سيارتها، ثم تختفي بها بعد ثوان. مصابيح السيارة الخلفية تضيء بالأحمر الغاضب وهي تنزل التل.

أتبعها عبر ممر السيارات كي أغلق البوابة متسائلة إن كان هذا وحده قد يمنع ما يحدث من الاستمرار في الحدوث. أتمنى ذلك ولو أنني أشك.

حتى الآن الكتاب أصدق مما كان طوال حياتي.

ولا أريد أن أتبعه.

لا أريد أن أصير تلك الفتاة المذعورة التي كتب عنها أبي.

أعود إلى المنزل، وأفكر في وسيلة المنع الوحيدة التي خطرت لي، وهي الصعود إلى المكتب وجلب مشغّل الأسطوانات والنزول به إلى الباحة الأمامية، ثم إحضار المطرقة الضخمة من كومة المُعدّات القريبة. أرفعها إلى ما وراء كتفي. عضلاتي ترتجف من وزنها.

ثم بأعتى قوة أهوي بها على الجهاز، فأهشمه إلى مئات الشظايا.

8 يوليو
اليوم الثالث عشر

جلست وجيس في غرفة الانتظار، لا نتحدث. وهو شيء فعلناه تكرارًا خلال الاثني عشرة ساعة السابقة. لم يكن لدينا ما نقول. كلانا يعرف أن شيئًا غريبًا مفزعًا يجري لابنتنا.

الكلمات الوحيدة التي قلتها لزوجتي منذ فوضى الليلة السابقة: «عثرت على مختصة في علم نفس للأطفال يمكنها فحص ماجي اليوم. الموعد في السابعة مساءً.»

أجابت جيس:

- عظيم.

وهذه كلمة من الكلمات الثلاث التي وجهتها لي. الكلمتان الأخريان نطقتهما بعد رحيل إلسا ديمتر مع ابنتيها ليلًا بعد عاصفة من الاعتذار لها. قالت جيس:

- لقد رحلوا.

ظلت تُردد العبارة القصيرة التي قالتها ماجي بعدما لكمت هانا ديمتر بلا وعي. ترددت الكلمات ذاتها في عقلي مطولًا بعدما نطقتها ماجي وجيس. ما زلت أسمعها بصوتي ابنتي وزوجتي وأنا أنظر حولي إلى أركان غرفة الانتظار في عيادة الدكتورة ليلا ويبر.

توقعت أن يكون مكتب الدكتورة ليلا ويبر كونها اختصاصية في علم نفس الأطفال، ذا مظهر مقبول للصغار أكثر من هذا. فأجد فيه مثلًا لعبًا جوار الباب، أو أغاني مبهجة تتردد في الخلفية. لكن غرفة الانتظار على العكس، مطلية باللون البيج، جرداء كمكاتب أطباء الأسنان. تعجبت أن عقلي لاحظ تفاصيل كهذا، ربما رغبة منه في العثور على ما يشتته عن حقيقة أن ماجي تتحدث إلى الدكتورة ويبر منذ ساعة، وخلال دقائق سنعرف مدى فداحة ما تعانيه. فتاة تتصرف بهذه الطريقة التي تصرفت بها خلال المبيت لا بد أنها تعاني خطبًا ما، وأتساءل إن كنا أنا وجيس ملامين على ما وصلت إليه حالتها.

جاءت ماجي إلى الحياة دون تخطيط. لكنها كانت حدثًا سعيدًا، رغم ذلك ظل مجيئها غير مدبر. أحد أسباب زواجي السريع أنا وجيس أنها حملت. منذ أحببت جيس خططت للزواج بها في أقرب فرصة على أي حال، ولم نرَ سببا وقتها للتأجيل.

مع ذلك، ظلت فكرة الأبوة مخيفة لي. أبي -باعترافه- كان فاسدًا. ثمل كثيرا حتى صار سهل الاستثارة. ورغم أنه أحبني أنا وأمي، لم يظهر هذا إلا نادرا. خشيت أن أصير مثله.

ثم وُلِدَت ماجي.

آخر شهر من أشهر الحمل كان صعبًا على جيس،

واستمرت المعاناة حتى الولادة. عندما خرجت ماجي إلى الحياة أعلنت خروجها بالصمت. لا تبكي ولم أرَ على وجوه الممرضات نظرة سعادة. وقتها عرفت أن شيئًا سيئًا وقع.

ثم اتضح لي أن الحبل السُري التف حول عنقها وكاد يخنقها لحظة مولدها، وأدركت أن لحظة الصمت التي قضتها الممرضات في إنقاذ ماجي هي أكثر لحظة عصيبة مرّت بي في حياتي، فلم أكن قدرًا على فعل أي شيء إلا الانتظار والأمل. أمسكت يد جيس وصليت إلى الرب الذي لست واثقًا بأنني أومن بوجوده. عاهدته إن أنقذ ماجي فسأكون لها أفضل أب في وسعي أن أكونه.

وأخيرًا بكت ماجي وصرختِ صرخة عفيّة ملأت قلبي حبورًا. لقد أجيبت صلواتي هنا والآن، وأقسمت أن أفعل كل ما يحميها.

وأنا جالس في غرفة الانتظار في مكتب الدكتورة ويبر، خشيت ألا تكون حمايتي لها كفاية، وأن ما يحدث لها خارج سيطرتي. بدت طبيعية عندما خرجت من مكتب الدكتورة ويبر وهي تلعق مصّاصة وتُريتا ملصقًا معها.

قالت المختصّة:

- كنت جيدة للغاية اليوم يا ماجي، وأريدك أن تظلي هادئة لدقائق ريثما أتحدث مع أبويكِ، اتفقنا؟

أومأت ماجي وهي تقول:

- اتفقنا.

ابتسمت الدكتورة ويبر لي ولجيس وقالت:

- بابا وماما، تفضَّلا من هُنا.

دخلنا إلى مكتبها ثم جلسنا على الأريكة باللون البيج المجهزة للمرضى. جلست الدكتورة ويبر أمامنا بوجه هادئ. بحثتُ في قسماتها عن علامة تُبين أن ابنتنا تعاني خللًا عظيمًا، وأننا السبب. قالت أخيرًا:

- أولًا، ماجي بخير.

سألتها:

- هل أنتِ متأكدة؟

- مئة بالمائة. خيالها استثنائي فقط، وهو هبة رائعة. لكنه مصحوب كما هو متوقّع ببعض الصعوبات.

أوضحت الدكتورة ويبر أن الصعوبة الأساسية هو عجز ماجي عن التفريق بين الواقع والخيال. خيال ماجي حي للغاية حتى أنها عندما تتفاعل مع أصدقائها الخياليين تصدق أنهم موجودون بالفعل. أضافت:

- وهذا ما حدث ليلة أمس. ظنَّت أن أصدقاءها الخياليين..

قاطعتها:

- أشباح، تطلق عليهم الأشباح.

أومأت الدكتورة ويبر مُضيِّقة عينيها لتُبين أنها مُنصتة، وهو أمر لا يطاق، قالت:

- سنتحدث عن هذا الأمر لاحقًا. لنعد إلى ليلة أمس. ظننّت -حقًا ظننت- أن هناك آخرين في الغرفة، وتصرفاتها التالية لاءمت الموقف.

سألتها جيس:

- تعني ضربها لجارتنا الطفلة؟

- أجل. حسب وصف ماجي، أظن تصرفها رد فعل أكثر منه فعل عنيف مقصود وموجه لإحداث الضرر. أفضل ما يمكنني توضيح الأمر به، التشبيه برد فعل الكلاب عندما تكون مرتعبة. في تلك اللحظة لم تدرك ماجي ما تفعله وانفك عقالها.

لا يفسر هذا كل شيء. الباب المغلق، الخزانة، صراخ هانا أن شيئًا لمسها.

الأصوات غير المُفسَّرة أسفل الفراش.

لم يكن هذا خيال ماجي. أنا سمعتها.

- قلت لها:

- أريد معرفة مزيدًا عن الأشباح.

بدت ابتسامة المُختصة مُنهكة وهي تقول:

- ليست أشباحًا حقيقية بالطبع. الأفضل أن نشير إليها بصفتها تهيؤات.

- لكن ماجي تظنها حقيقية.

- وهي مشكلة سنعمل على حلِّها.

- هل أخبرتك بشأنها؟

- أخبرتني. هي ترى ثلاثة تهيؤات أساسية.

ضغطت على كلمة تهيؤات، ثم أردفت:

- واحدة هي فتاة صغيرة تتحدث معها كثيرًا، وأخرى شابة تُسميها السيدة وجه القِرشَين.

قاطعتها:

- ولا تنسي السيد ظِل.

- وهو أكثر من تخشى من الثلاثة.

- لو أن كل هذه..

وأسكتُّ نفسي قبل أن أنطق عبارة «أصدقاء خيالية»، واخترت بدلًا عنها مصطلح الدكتورة ويبر وقلت:

- لو أن كلهم تهيؤات، فلماذا تخشاهم ماجي؟

أجابت الدكتورة ويبر:

- للأطفال أفكار مخيفة أيضًا مثلهم كمثل البالغين. هم أيضًا منصتون، يلتقطون من كلامنا أكثر مما نحسب. عندما تقع مشكلات كهذه، يكون السبب عادةً عدم قدرة الطفل على فهم ما سمع فهمًا صحيحًا. شيء سيئ حدث في بيتكم، شيء مأساوي. ماجي تعرف هذا لكنها لا تعرف كيف تستوعبه.

- إذًا، ماذا نفعل؟

- تريد نصيحتي؟ كُن صريحًا معها. اشرح لها -بمصطلحات تفهمها- ما حدث وكيف أنه أمر محزن، وأنه لن يحدث مرة أخرى.

***

أخذنا بنصيحة الدكتورة ويبر تلك الليلة، وجلسنا مع ماجي إلى طاولة المطبخ، وسلَّحناها بأفضل ما تحب من حلوى. كوب شوكولاتة ساخنة. كعك السكر. عبوة سكاكر.

على الطاولة أيضًا نسخة خبر الجريدة المحلية عن كُرتس وكيتي كارفر، تلك التي نسختها في المكتبة. قالت چيس:

- قبل أن ننتقل إلى هنا، حدث شيء في هذا المنزل. شيء سيئ ومحزِن.

قالت ماجي:

- أعرف. هانا أخبرتني.

قطبتُ بالطبع. سألتها:

- هل أخبرتك عما حدث بالتفصيل؟

- أخبرتني أن رجلًا شريرًا قتل ابنته ثم قتل نفسه.

سماع تلك الكلمات تخرج من فم ابنتي فطر قلبي. نظرت عبر الطاولة إلى چيس التي أومأت لي إيماءة مساندة كانت كافية جدا لي. أخبرتني تلك

الإيماءة أننا -رغم خلافاتنا القريبة- ما زلنا معًا في هذه المحنة.

قلت:

- هذا صحيح. كان هذا مريعًا وأحزن الجميع. أمور سيئة كهذه تحدث أحيانًا، لكن ليس دائمًا. هذه حوادث غير معتادة على الإطلاق، لكننا نعرف أن ما حدث أرعبك، ونريدك أن تفهمي أن كل هذا كان في الماضي، ولن يتكرر مرة أخرى هنا.

سألتني ماجي:

- هل تعدني؟

أجبتها:

- أعدك.

مدَّت جيس ذراعيها نحونا، وضغطت على كفينا برفق وهي تقول:

- نعدُكِ.

قلت لماجي:

- لو أن لديك أي أسئلة عما حدث، فلا ترددي في سؤالنا. يمكننا أن نتحدث أي وقت عن الموضوع. لدي هنا صورة خبر عن الحادث لو أردتِ رؤيته.

انتظرت حتى أومأت ماجي إيجابًا قبل أن أدفع إليها بالورقة. وبما أن مهاراتها في القراءة محدودة،

انتقلت عيناها فورًا إلى الصورة.

هتفت وهي تضغط إصبعها على وجه كيتي كارفر:

- انظر. هذه هي الفتاة.

قلت في توتر:

- أي فتاة يا حلوتي؟

- التي ألعب معها أحيانًا.

سألت جيس في أمل:

- هانا؟

هزّت ماجي رأسها وقالت:

- لا، الفتاة التي لا تغادر الغرفة.

ثم نظرت إلى جانب الصورة الآخر، إلى السيد كُرتس كارفر العابس، فراحت تنتحب وهي تغمغم:

- هذا هو.

جلست على فخذيّ وأخفت وجهها في صدري مذعورة. سألتها:

- من هو؟

ألقت ماجي نظرة مرتعبة أخيرة إلى صورة كُرتس كارفر وقالت:

- هو. هو السيد ظِل.

السادس عشر

عاد المراسلون مبكرًا. أعرِف هذا لأنني ظللت مستيقظة طوال الليل. أجول في الغرفة الكبرى أحيانًا. وأحيانًا أتحقق من غلق الباب الأمامي والنوافِذ، وأتأكد من هذا مرة تلو الأخرى. قضيتُ أغلب الليل في قاعة الاستقبال، منتبهة لكل صوت، قابضة على السكين، أنتظر مزيدًا من الوقائع الغريبة.

عدم حدوث شيء لم يقلل من توتري الآن، حتى أن مرأى ظل على الحائط قد يسرع نبضي كأنني في سباق عدو. كل صوت في البيت يجعلني أقفز. في لحظة ما بينما كنت أجوب الغرفة، لمحت انعكاس نفسي في مرآة المكتب، ففزعت، لا لأنني رأيت أحدا يتحرك، بل لمنظري المريع المجنون.

لطالما آمنت أنني لا أشبه طفلة الكتاب المذعورة في شيء. لكن اتضح لي أنها أنا منذ البداية.

أنا الآن في الطابق الثالث، أنظر إلى صفوف سيارات الصحافة والإعلام عند البوابة. أتساءل كم سيمكثون حتى يملوا. آمل أن يحدث هذا خلال ساعات لا أيام.

أفكر في ركوب سيارتي ببساطة والقيادة نحو الحشد وسحقهم، لكن الخاطر انتحار أكثر منه خطة للخروج. أولًا علي الخروج من الشاحنة، ثم

فتح البوابة ومن ثَم منح براين برنس ومن شابهه فرصة الهجوم. ثانيا، حتى لو استطعت الابتعاد في سلام، فلن يمنعهم شيء عن ملاحقتي بسياراتهم.

الطريقة الوحيدة للخروج هي الركوب مع شخص آخر. هذا يعني الاتصال بدين مع أننا لم نتحدث منذ يوم النزل. واضح أن كلينا يتحاشى الآخر لأسباب قد تختلف قليلًا. أشك أن دين محرج من رفضي تقربه وأراد وضع حدود بيننا.

أما أسبابي فهي أنني لم أستوعب ما قالته رئيسة الشرطة ألكوت عن سجنه. أومن أن البشر يخطئون، لكني أشعر بشكل ما أنني خدِعت. حتى يقنعني أنه لم يعد الرجل العنيف نفسه الذي سجن، فثقتي بدين ستظل محدودة، لن تتعدى طلب التوصيل إلى البلدة.

أقول له بمجرد فتحه الخط:

- أحتاج إلى خدمة. هل يمكنك توصيلي بشاحنتك؟

- بالتأكيد. سآتي فورًا.

- هذا بالضبط ما لا أريدك أن تفعله. قُد شاحنتك حتى بعد نصف ميل عن المكان، وانتظرني على الطريق.

لا يسألني دين عن السبب ويقول:

- سأكون هناك خلال عشر دقائق.

كما وعد، أرى سيارته تقف على جانب الطريق

عندما أخرج من الغابة عابرة من فجوة الجدار.

يقول لي وأنا أركب:

- إلى أين يا سيدتي؟

أعطه عنوان مكتب الدكتورة ويبر الذي وجدته على الإنترنت. فوجئت أنها تمارس المهنة حتى الآن، وما زالت في بارتلي.

سبب زيارتي بسيط، لأسألها إن كنت حقًا مريضتها، وإن كنت كذلك، فماذا أخبرتها؟ لدي ذكريات عن بانبيري هول لم تُذكَر في الكتاب، وأريد مساعدة طرف ثالث لفهم ما يجري. على أن شيئًا مني يعرف بالفعل ما يجري.

كل كلمة لعينة كتبها فيه صحيحة.

المكان ليس آمنًا، ليس آمِنًا لكِ.

يسألني بعد قيادة صامتة لعدة دقائق:

- كيف الأحوال؟

- بخير.

ينظر إليّ نظرة جانبية ويسألني:

- هذا كل شيء؟ بخير؟ تلك الليلة لم تسكتي عن الكلام.

- الأمور تتغير.

يتبع ذلك مزيد من الصمت. سكوت طويل محمل بصحة ما قال دين. لم أكف عن الكلام ليلة كنا في «توباينز» لأنني وجدت الحديث معه سهلا

وقتها، ولم أكن أعرف ما فعل ولا ما يقدر على فعله. لا أريد الآن سوى الانتهاء من هذه الرحلة بأقل القليل من الحديث.

لكن دين يرفض أن يتم مُرادي.

- هل صمتك بسبب تلك الليلة؟ آسف لو ضايقتك. أنا فقط كنت أتجاوب مع الأجواء في الغرفة، والا ما كنت لأقترح شيئًا كهذا أبدًا. آخر شيء أردته أن..

أسأله وقد عجزت عن كبح السؤال:

- لماذا لم تخبرني أنك سُجنت؟

لا يصدر عنه أي رد فعل. يبدو أنه كان ينتظر هذه اللحظة.

- لم تكن هناك مناسبة.

- أنت لا تُنكر إذًا؟

- ليس وهذه هي الحقيقة. قضيتُ عامًا في إصلاحية الولاية. كان الطعام سيئًا، والصحبة أسوأ. لن أتحدث عن دورات المياه.

الغريبة أن حديثه لطّف كثيرًا من التوتر في السيارة. أسأله:

- صحيح أنك كدت تقتل رجلًا؟

- ليس عن قصد.

أعتقد أن دين قالها ليُخفف عني، لكن هذا لم يحدث.

- لكنك عقدت النيّة على أذيته.

يقول بصوت مُثقَل:

- لا أعرف ماذا نويتُ. كل شيء خرج عن سيطرتي. الرجل الآخر هو من بدأ الأمر، حسناً؟ لا يهم الآن، لكنها الحقيقة. هل كنت ثملاً؟ أجل. هل تماديت؟ بالطبع. وأنا أندم على كل لكمة لعينة سددتها نحوه. أنهيت عقابي في السجن، لكن سيظل الناس يحكمون عليّ دائماً بجرمي الشنيع.

- ألهذا لم تخبرني؟ لأنك حسبتني سأحكم عليكَ؟

- وهذا ما تفعلين الآن، أليس كذلك؟

- ما كنت لأفعل لو صارحتني. أعرف جيداً شعور الظُلم، وكنت لأتفهم.

- إذاً لماذا تتصرفين على هذا النحو؟

- فقط لأنني أستحق أن أعرف. لقد وظّفتك عندي يا دين.

- إذاً لسنا سوى صاحب عامل وعامل الآن؟

- لطالما كنا كذلك.

خرجت العبارة الأخيرة مني بصوت غريب، كأنه صوت أمي الرسمي اللائم. يقول دين:

- لم أشعر بهذا تلك الليلة. اللعنة، لم أشعر بهذا قَط.

تتسلل نبرة صوت أمي إليّ مرة أخرى وأنا أقول:

- لتكن هذه هي شكل العلاقة من الآن.

- لأنك اكتشفتِ أنني جُننت؟

- لا. بسبب كل ما أتعامل معه الآن. الكتاب، أبي وما فعل. لا أريد كاذبًا آخر في حياتي.

ندخل بارتلي التي استيقظت لتوها. الناس تخرج من بيوتها بملامح شبه نائمة، تحمل أكواب قهوة يتصاعد منها البخار. على بعد مجمع سكني يدق جرس الكنيسة معلنًا التاسعة صباحًا.

يوقف دين السيارة إلى جانب الطريق، ثم يتمتم:

- يمكنك أن تنزلي هنا. اعتبريني مستقيلًا. ابحثي عن شخص آخر تعبثين به بعقدك التي سببها لك أبوكِ.

أقفز خارجة من الشاحنة دون تردد، أغمغم: «شكرًا للتوصيلة» قبل أن أصفق الباب وأبتعد. يناديني دين:

- ماجي، انتظري.

ألتفت فأرى رأسه يُطل من نافذة الشاحنة. بدا لي أن عشرات الأفكار تدور في عقله، لا ينطق أيها. في النهاية يكتفي بسؤاله:

- هل ستحتاجين إلى توصيلة تُعيدك إلى البيت؟

كدت أجيب بالإيجاب، وأنني أريد ما هو أكثر من توصيلة. أحتاج إلى مساعدته في فهم ما يجري بحق الجحيم، وما يمكنني فعله بشأنه، لكني لا أجرؤ

على قول هذا، الأفضل إنهاء كل شيء الآن.

- كلا، أستطيع البحث عن توصيلة بنفسي.

***

أستطيع أيضًا أن أجد مكان مكتب الدكتورة ويبر بمفردي، وهو على بعد بضع مبان من شارع ميبل، ويقع في منطقة راقية تبدو سكنية، لكن أغلبها مشغول بمشروعات تجارية. صفان من المنازل الأمريكية التقليدية المحاطة بالحدائق الصغيرة على جانبي الشارع، أغلبها يحمل لافتات مكاتب أعمال متنوعة. أطباء أسنان. مكاتب محاماة. بيوت جنازات. ومكتب الدكتورة ويبر ليس استثناءً.

المكتب من الداخل مهدئ إلى درجة خلوِّه من النكهة. كل شيء باللون البيج أو القشدي، حتى المرأة التي تميل إلى مكتبها تحقق من جدول المواعيد. بشرتها قشدية، تنورتها باللون البيج، قميصها سكري. ما إن أدخل حتى تنظر إليّ بعينين طيبتين لا ينقصهما شيء من الفضول. لا بد أنها الدكتورة ويبر. نوعية تعبيرات الوجه هذه لا تأتي إلا من سنوات الإنصات الطويلة. تقول لي:

- لا أظن أن لدي مواعيد في الصباح الباكر اليوم. هل أنتِ والدة الحالة؟

- لم أحجز موعدًا بالفعل. كنت آمل فقط في أن نتحدث.

- أخشى أنني لا أتحدث خارج إطار العمل، ولا أعالج البالغين، لكن يمكنني أن أمدك بقائمة أسماء معالجين معتبرين للكبار.

أقول لها:

- لا أبحث عن معالجين. لقد جربت الأمر من قبل.

تقول الدكتورة ويبر في رفق:

- لست واثقة إذًا بأنني قادرة على مساعدتك.

- كنت مريضة سابقة لديكِ. أجرينا جلسة واحدة. على الأقل هذا ما أعرفه.

- مرّت عليّ حالات كثيرة عبر السنوات.

- أنا ماجي هولت.

ظلّت الدكتورة ويبر ساكنة ولم يتغير تعبير وجهها. الشيء الوحيد الذي دلَّ على مفاجئتها يدها التي ارتفعت إلى موضع قلبها. تلاحظ هذا فتغطي تلك الإيماءة بالتظاهر بأنها تغلق أول أزرار قميصها. تقول لي:

- أتذكرِك.

- عمَّ تحدثنا؟

ثم عاجلتها على الفور بسؤال آخر:

- وكيف كُنت وقتها؟

تنظر الدكتورة ويبر إلى قائمة مواعيدها نظرة خاطفة قبل أن تقودني إلى مكتبها الداخلي المليء

بمزيد من اللونين البيج والقشدي، حتى أن اللوحة المعلقة داخل إطار راقٍ مرسومة بالدرجتين نفسهما، ما جعلني أتساءل إن كانت الطبيبة تعاني رهابها الخاص، رهاب الألوان.

تقول الدكتورة ويبر بينما تجلس هي خلف مكتبها، وأنا على مقعد المرضى:

- أفترض أن سبب زيارتك هذه الواقعة الأخيرة في بانبري هول. لا بد أنها كانت صادمة لكِ.

- هذا أقلّ مما حدث.

- هل تعتقدين أن أباك قتل تلك الفتاة؟

- لا أعرف من قد يكون فعلها سواه.

- تعنين إذًا: «نعم»؟

- إجابتي أقرب لـ«لا أعرف».

أشعر بحدّة تتسلل إلى صوتي وقد جعلني الجدال مع دين أكثر دفاعية، أو ربما حفزت جلستي تحت ناظرَي الدكتورة ويبر رغبتي في حماية نفسي. أضيف:

- كنت آمل أن تساعديني في ملء الفراغات.

- لست واثقة حقًا بقدر المساعدة التي يُمكنني منحها لك. لم يجر بيننا سوى الجلسة الوحيدة التي ذكرها أبوكِ في الكتاب.

هذه مفاجأة. لم أتوقّع أن تقرأ الدكتورة ويبر

الكتاب، فأسألها:

- ما رأيك في كتاب «بيت الأهوال»؟

تضع الدكتورة ويبر كفيها على فخذيها وتجيب:

- حكمي عليه كعمل أدبي أنه غير جيد. من وجهة النظر النفسية، أراه مذهلاً.

- كيف هذا؟

- سطحياً، يبدو الكتاب عن بيت مسكون بأرواح شريرة، لكني أراه كما هو حقاً محاولة أب لفهم ابنته.

بدا كلامها عبارةً قد تقولها لي الدكتورة هارس. هراء تحليلي. أقول:

- كنت في الخامسة، ولم يكن ثمة ما يحتاج إلى فهم.

- قد تُذهلين من تعقيد عقول الأطفال.

أهم بالقيام من مقعدي وقد تملكتني رغبة مفاجئة في الرحيل. هذا الحوار لن يقودني إلى أي مكان، خاصة إلى المكان الذي أقصد. ما يثنيني عن قرار الرحيل حاجتي إلى إجابات. أقول:

- لم يفعل هذا الكتاب سوى تحويل حياتي وحياة عائلتي إلى جحيم. خاصةً حياتي.

- لماذا عدتِ إذاً إلى بانبيري هول؟

- لقد ورثته، ويجب أن أصلحه لبيعه.

تقول الدكتورة:

- لست مضطرة حقًا لهذا. يمكن أن تُديري كل ما يخص المنزل عن بعد. التصليح والبيع وكل شيء..

أهتف:

- أنا مصممة ديكور وأحتاج إلى معاينة حالة المنزل.

- أعتقد أن هذا مفتاح الأمر كله.

- المنزل؟

تبتسم لي الدكتورة ويبر ابتسامة صبور وتقول:

- المعاينة. تحتاجين إلى معاينة حالة المنزل. تشبه كثيرًا عبارة «سأصدق عندما أرى بعيني»، ويجعلني هذا أظن أنك لم تعودي لتعايني حالة المنزل، بل لمعاينة الحقيقة وما إن كان أبوكِ صادقًا فيما كتب.

أميل أمامًا وأسأل في تصميم:

- بماذا أخبرتك في خلال الجلسة؟

تتجاهل الدكتورة ويبر سؤالي وتبادرني بسؤال آخر:

- إذًا تعملين مُصمِّمة ديكور.. في أي تخصص؟

- تصميم ديكور داخلي.

- مذهل.

أعرف أنها ستعوِّل على هذه المعلومة، كما لا بد

أن الدكتورة هاريس قد فعلت. لقد استنتجت أن بانبيري هول هو سبب اختياري عملي، وأن قصة إقامة عائلتي القصيرة فيه دفعتني للبحث عن الحكايات وراء البيوت. مطاردة أبدية للحقيقة.

تسألني الدكتورة ويبر:

- فيمَ تأملين حقًا من تجديد المنزل؟

- التكسُّب من بيعه.

- هل أنت واثقة بأن هذه ليس محاولة لتغيير ما خبرته هناك؟ إصلاح المنزل إصلاح للماضي.

- أظن الأمر أكثر تعقيدًا من هذا بعض الشيء.

- حقًا؟ أنتِ قلتِ توًا إن المنزل أحال حياتك جحيمًا.

- كلا، كتاب أبي هو من فعل هذا. لا علاقة للمنزل بالأمر.

تقول الدكتورة ويبر بلمعة في عينيها تشي بظنها أنها كشفتني:

- بل له بالطبع. كل شيء مترابط يا ماجي. المنزل، الكتاب، عائلتك. لم أندهش من زعمك أن كتاب أبيك آذاك. لا أستطيع سوى أن أتخيل صعوبة الحياة مع حِمل كهذا. والآن، ها أنت ذا تُجددين بانبيري هول. ألا ترين أن هذه العملية -في جوهرها- محاولة لإعادة كتابة القصة؟

- لست هنا لتُحللي تصرفاتي.

تستحوذ عليَّ مرة أخرى الرغبة في الانصراف، لكن هذه المرة أقف، وتمكث الدكتورة ويبر في مقعدها. يعزز فارق الارتفاع بين رأسينا جرأتي فأقول:

- لا بأس إن كنت لا تريدين إخباري بما حدث في جلستنا، لكني لن أتركك تضيعين وقتي.

أخطو نحو الباب، لكن يستوقفني قول الدكتورة ويبر:

- اتصل بي والداكِ وقالا إنكِ تعانين صعوبة في التأقلم مع بيتكم الجَديد. زالتَ تساؤلاتي عندما عرفت مكان سكنكم.

تشير إليَّ كي أعود إلى المقعد. أجلس مرة أخرى وأسألها:

- بسبب ما حدث مع آل كارفر؟

- وأمور أخرى، حكايات، شائعات. لكل بلدة منزلها المسكون، وبانيبري هول هو منزل بلدة بارتلبي، وقد كان كذلك منذ زمن، وقبل كتاب أبيكِ.

أفكر في فقرات الكتاب عن تاريخ المنزل. كل هذه المقالات التي عثر عليها أبي عن الموت المتكرر هناك حتى بعد مأساة آل كارفر. كنت أظنه اختلق كل هذه التفاصيل.

- عندما جلبك والداكِ لمقابلتي، كنت مستعدة

للحديث مع فتاة صغيرة تخاف الظلام. بدلًا عن ذلك قابلت فتاة ذكية عنيدة في الخامسة من عمرها، مقتنعة أن هناك مخلوقات ما ورائية في بيتها.

- هل ذكرتُ أشباحًا؟

- آه، نعم. فتاة صغيرة، والسيدة وجه القِرشَين، والسيد ظِل.

ينطلق خيط الرعب الفضي الرفيع عبر عمودي الفقري كعمود تيتانيوم صلب، فيتصلَّب جسدي وأنا أغمغم:

- لقد اختلقهم أبي.

- يجوز. الأطفال قابلون للإيحاء. لو أن أحد البالغين أخبرهم أمرًا -مهما كان مستحيلًا- سيميلون إلى تصديقه. سانتا كلوز مثالًا. إذًا، ربما يكون والدك قد زرع فكرة وجود تلك المخلوقات في عقلك.

للمرة الأولى منذ جلسنا أستشعر عدم الثقة في صوت الدكتورة ويبر. أقول لها:

- أنت غير مقتنعة أن هذا ما حدث.

- لا.

تتململ في مقعدها ثم تضيف:

- أستطيع أن أكشف التلاعب بعقل الطفل، ولم تكن هذه حالتك. لهذا أتذكَّر هذه الجلسة

بوضوح رغم مرور كل هذه السنوات. لقد تحدثتِ باقتناع تام.

- عن الأشباح؟

تومئ الدكتورة ويبر وتضيف:

- قلتِ إنهم يأتون إلى غرفتك ليلًا. أحدهم همس لك في الظلام يحذرك من موتك.

- كانوا غالبًا كوابيس. عانيتها منذ طفولتي.

- لا أتذكر أن والديكِ ذكرا شيئًا عن الكوابيس. هل تزورك بعد؟

- هذا هو السبب المكتوب في وصفة مهدئ الفاليوم.

لا تبتسم الدكتورة ويبر لدعابتي السخيفة.

- من يعانون الكوابيس يظنونها حقيقية بينما تحدث. بمجرد الاستيقاظ يعرفون أنها لم تكن سوى حلم سيئ.

أفكر في الكابوس الذي زارني منذ ثلاث ليال. أنا في الفراش والسيد ظِل يراقبني من داخل الخزانة. صاحبني التوتر بسببه حتى بعد مرور أيام.

- إذًا مَن زعمت أنني أراهم.. كنت أظنهم حقيقيين؟

- حتى وأنتِ مستيقظة بالكامل.

يبدو المقعد كأنما ينهار من تحتي، أو أغوص فيه وأنحدر إلى الهواء. الشعور كاسح حتى أنني

احتجت إلى النظر إلى أسفل لأتيقّن أنه غير حقيقي. على ذلك، ظل شعور الغوص والانزلاق مستمرا.

- إذًا ما ذُكر في الكتاب.. ما قلتِ لوالديّ..

تقول الدكتورة ويبر:

- أغلبه حقيقي. يمكنني أن أشك في صدق باقي الكتاب، لكن هذا الجزء وقع فعلًا. لقد آمنتِ بوجود الأشباح حقًا.

- لكنها غير موجودة..

ما زلت أشعر بنفسي أغوص إلى الأسفل أكثر فأكثر، إلى عمق بحر أرنب. تقول لي الدكتورة ويبر:

- لا أومن بالأشباح، لكنك آمنتِ أن ثمة من يزورونك ليلا في غرفتك. لا أستطيع أن أجزم إن كان هذا حقيقيا أو متخيلًا، لكن كان له وجود معتبر لدى عقلك. شيء ما سَكَنَ بداخلك كشبح مؤرق.

أقف وقد شعرت براحة لتحرري أخيرًا من المقعد. ألقي نظرة خلفي لأتأكد أن الوسادة بعد في مكانها، وأن إحساس الغوص في عقلي فقط. ليتني قادرة على افتراض شيء كهذا بخصوص الأشباح التي ادعيتُ أنني رأيتها في طفولتي. لكن لا يؤكد شيئا أنها متخيلة، أو اختلقها خيالي أو تلاعب أبي.

كل ما أعرفه -على الأقل في عقلي الفَنّي- أن هذه الأشباح حقيقية تمامًا، متضمنة السيد ظِل.

9 يوليو

اليوم الرابع عشر

يتطلب عمل جيس الجديد تدريس فصول صيفية بدأ أولها هذا الصباح. تترك أنا وماجي وحدنا دون تلقي إرشادات أو تعليمات منها، فنذهب إلى سوق المزارعين المحلي، ثم متجر البقالة.

شعرت بتحسن لخروجي من المنزل حتى لو لقضاء مهام. بعدما أخبرتنا به ماجي ليلة أمس، أردت أن أقلل الوقت الذي أقضيه في بانبيري هول قدر المُستطاع.

قالت جيس قبل توجهها للعمل، كأن استشارة مختص كانت فكرتها:

- تذكَّر ما قالته الدكتورة ويبر.. هذه هي طريقة ماجي في استيعاب ما حدث.

لكني كنت مهتمًا. حتى أنني جعلت ماجي تجلس إلى طاولة المطبخ وأعطيتها أقلام تلوين ودفتر رسم بينما أفرغ مشترياتنا. كنت أضع المعلبات في الخزانة وظهري تجاهها عندما سمعت أحد الأجراس المعلقة على الحائط يدق فجأة دقة ضعيفة سرعان ما خفتت كما بدأت.

- لا تفعلي هذا يا ماجز لو سمحتِ.

- ماذا أفعل؟

دق الجرس مرة أخرى. قلت لها:

- هذا.

- لكني لم أفعل..

دق الجرس للمرة الثالثة فقاطعها. استدرت نحوها متوقعًا أن أراها جوار الحائط تقف على أطراف أصابع قدميها لتصل إلى أجراس الصف السفلي، لكني رأيتها جالسة إلى الطاولة تمسك قلم تلوين في يدها.

دق الجرس مجددًا، وهذه المرة رأيته يتحرك. الحبل المعدني يجذب فيحرك الجرس معه حتى يصدر عنه صوت الرنين. ماجي لم تفعل هذا، وثمة من يجذب الحبل عمدًا.

نظرت إلى البطاقة فوق الجرس الذي سكن الآن، فعرفت أنه جرس غرفة إنديجو. قلت لماجي:

- امكثي هنا. لا تتحركي.

أصعد الدرجات اثنين فاثنين، آمل أن السرعة قد تمكنني من الإمساك بالفاعل متلبسًا. بعدما قطعت الغرفة الكبرى مندفعًا إلى غرفة إنديجو لم أجد فيها أحدًا.

يغشاني الاضطراب وأنا أدور حول نفسي ببطء في منتصف الغرفة. أشعر أن شيئًا غريبًا يجري. شيئًا وراء ما تتخيله ماجي. أدور بعد لأتأكد أن الغرفة خاوية بالفعل، لكن شيئًا واحدًا لم أشعر

به، المفاجأة.

في أعماقي أيقنتُ أن غرفة إنديجو خاوية.

بدت وقتها فكرة تسلل أحدهم إلى بانبيري هول أقرب إلى أمنية منها إلى احتمال واقعي. لا يقتحم الناس البيوت ليدقوا الأجراس ويشغلوا الموسيقى فقط، والثعابين أو الفئران أو تيارات الهواء لا يمكن أن تتسبب في هذه الظواهر.

شيء آخر يحدث.

شيء لا يمكن تفسيره بالمنطق.

أكتشف أن الثريَّا مضاءة إذ أعبر من تحتها، حتى وأنا متأكد أنني لم أضيئها صباحًا.

ضغطت زر الإنارة فأظلمت مرة أخرى، ثم أكملتُ طريقي إلى المطبخ. كنت عند منتصف الدرج عندما سمعت الأجراس تدق، تدفعني للعدو نحوها. بالداخل وجدت كل الأجراس على الحائط ترتعش وقد جُذِبت الحبال الموصولة بها، ومثلها ترتعش ماجي التي ألصقت ظهرها بالحائط بالمقابل، تحاول الاختباء في ركن والذعر يبرق في عينيها.

همست:

- لقد كان هنا.

أهمس بدوري:

- السيد ظِل؟

تومئ ماجي إيماءة إيجاب واحدة.

- هل رحل؟

فتومئ مرة أخرى.

- هل قال لك شيئًا؟

نقلت ماجي عينيها إلى الحائط والأجراس التي سكنت الآن وقالت:

- قال إنه يريد الحديث معك.

***

في تلك الليلة، رميت لوح الويجا على طاولة المطبخ فصدر عنه صوت ارتطام قوي نبه جيس من شرودها في كأس الخمر التي تمسكها. لم نتحدث كثيرًا عما حدث مع الأجراس لأن ماجي كانت معنا طَوال الوقت. لكن ابنتنا الآن في الفراش، وأخبرت جيس بتفاصيل ما حدث، ثم أتبعت ذلك بجلب لوح الويجا.

- من أين حصلت على هذا؟

- وجدته في المكتب.

- وما الذي تنوي فعله به؟

- إن أراد السيد ظِل التحدث إليَّ، فأعتقد أن علينا تجربة اللوح.

نظرت جيس إلى خمرها وبدت كأنما تريد شرب الزجاجة بأكملها. قالت:

- هل أنت جاد؟

- أعرف أنا هذا يبدو حمقًا، وعنيفًا إلى حد لا يُطاق.

- أعتقد أنه جاوز هذا الحد بكثير، أليس كذلك؟

- أنتِ من طُفت بالمنزل تبخِّرينه بأعواد المريمية.

- هذا مختلف! مجرد تطهُّر. لكن ما تتحدث عنه..

أقاطعها:

- أشباح. أجل، أنا أعتقد أن بانبيري هول مسكون.

ها هي. الكلمة التي كنا نحوِّم حولها منذ أيام. والآن لا معنى من تفادي استخدامها.

- أنت تعرف كيف تبدو مجنونًا، أليس كذلك؟

- أعرف ولا أهتم كيف أبدو. أمور غريبة تحدث هنا، ولا يمكنك إنكار ذلك. أمورًا لا يمكننا منعها إلا لو عرفنا كُنهها.

ماج وجهها بالحيرة والتردد وهي تحدق إلى صندوق لوح الويجا. عندما استقر رأيها أخيرًا رشفت من الخمر ثم قالت:

- حسنًا. لنفعل هذا.

لوح الويجا أقدم مما ظننت. وأكثر اختلافًا عن ذلك الذي استخدمته وأنا مراهق، عندما كنا نمثل أنا ورفاقي ويحاول بعضنا ترويع بعض. اللوح أمامي لوح خشب فعلي، أشعر به ثقيلًا وأنا

أخرجه من صندوقه وأضعه على الطاولة.

الورنيش الذي طُلي به اللوح منحه لونًا ضاربًا إلى البرتقالي. رسم على سطحه صفّان من حروف أبجدية أفقيان، كلاهما ينحني تجاه الآخر كأنهما قوسان، وفي صف مستقيم أسفلهما الأرقام:

1234567890

عند ركني اللوح العلويين كلمة واحدة عن اليسار: نعم، وعن اليمين: لا. وكلمتان عند طرف اللوح السفلي.

إلى اللقاء.

مثله كمثل اللوح، المؤشر أيضًا مختلف عما استخدمته من قبل. ليس مصنوعًا من البلاستيك، بل من عاج حقيقي على شكل مثلث ذي زاوية مدببة وزاويتين منحنيتي الطرف.

أشعلت شمعة ووضعتها على الطاولة، ثم أظلمت المطبخ. علّقت جيس:

- يا للرومانسية.

- هلا أخذتِ الأمر بجديّة؟

- صراحةً يا إيوان، لا أعتقد أنني أستطيع.

جلسنا متقابلين على الطاولة، يواجه كل منا

جهة من جهات اللوح. نضع أصابعنا على طرف المؤشر، ونستعد للبدء.

أقول مخاطبًا الرقعة فوق طاولة المطبخ:

- هل من روح حاضرة؟

لم يتحركِ المؤشر. أكرر السؤال مرة أخرى على طريقة محضر الأرواح في الأفلام، ضاغطًا على مقاطع كلماته:

- هل من روح حاضرة؟

تحرَّك المؤشر مترددًا، وانزلق ببطء عبر اللوح إلى الكلمة في الركن العلوي الأيمن.

لا

نظرت إلى جيس التي تخفي بصعوبةٍ ضحكتها:

- آسفة، لم أتمالك نفسي.

أرجوها قائلًا:

- رجاء، حاولي أن تكوني متفتحة الذهن. لأجل ماجي.

استحال هزلها جديةً على الفور لدى سماع اسم ابنتها. هي تعرف كما أعرف أن ما نفعله لأجل ماجي. لو أن في بانبيري هول أشباحًا، فهي الوحيدة القادرة على رؤيتها، ما يعني أنها ستستمر في رؤيتها حتى تغادر.

قالت جيس:

- سأفعل. أعدك.

مرة أخرى أسأل إن كانت روح حاضرة هنا. هذه المرة تحرك المؤشر بقوة حتى ظننته سيفر من تحت أصابعي بالكامل، لكني أبقيتها عليه فتحركت معه إلى الكلمة في الركن الأيسر العلوي.

نعم

قالت چيس:

- خفف ضغط أصابعك على المؤشر، أنت تدفعه.

- أنتِ التي تدفعينه.

نظرت إلى اللوح حيث يدور المؤشر بعد حول كلمة «نعم» حتى وأصابعي تكاد لا تلمسه. لمسة چيس خفيفة أيضًا، أكاد أرى أصابعها تطفو فوق العاج.

انخفضت درجة الحرارة فجأة، وسرت برودة إلى المطبخ شعرت بها في عظامي. لم أشعر ببرودة كهذه منذ سمعت الموسيقى تنبعث من الطابق الثالث. زفرت، فرأيت زفيري بخارًا.

نطقت سؤالًا آخر وأنا أرتعش، قبل أن يتوقف المؤشر عن الحركة.

- أيتها الروح، هل أقمتِ في بانبيري هول في حياتك؟

استمر المؤشر في الدوران حول الكلمة نفسها.

نعم

- ما اسمك أيتها الروح؟

تحرك المؤشر بسرعة حتى أن جيس قد شهقت مُجفلة. حدقت إليه ذاهلا وقد بدا كأنما يتحرك تلقائيًا إلى الحرف في منتصف اللوح.

ك

ثم إلى حرف آخر

ر

ثم إلى آخر

ت

ثم..

س

أسأل:

- هل أنت روح كُرتس كارفر؟

انتقل المؤشر إلى كلمة «نعم» عند الركن الأيسر العلوي. نظرت إلي جيس عبر الطاولة نظرة قلقة. كادت ترفع أصابعها عن المؤشر لكني هززت رأسي أطالبها أن تبقيها مكانها.

- هل أنت يا كُرتس من تشير إليه ابنتي باسم السيد ظِل؟

يدور المؤشر مكانه حول كلمة «نعم».

- تدعي ابنتي أنك تحدثت إليها، هل هذا صحيح؟

مزيد من الدوران حول الكلمة ذاتها: «نعم».

- هل من شيء تقوله لنا؟

انزلق المؤشر سريعًا إلى حرف «أ»، ثم راح يهرع من حرف لآخر، محتكا باللوح، وتابعت وجيس الحروف التي يشير نحوها.

أ- ح- ذ- ر

- احذر؟

عاد المؤشر إلى كلمة «نعم»، ثم انتقل منها إلى قوسي الحروف، يختار منها ما يشكل الكلمة السابقة:

احذر

أسأله:

- ماذا تقصد؟

لم يتوقف المؤشر عن الحركة وتكرار الأحرف الأربع لثلاث مرات أخرى.

احذر
احذر
احذر

بمجرد أن وصل المؤشر إلى الحرف الأخير من

الكلمة، اندفع إلى حافة اللوح السفلي مشيرًا إلى عبارة:

إلى اللقاء

وغادرت البرودة المطبخ. شعرت بها، ثم بما حل بعدها من دفء.

سألت جيس:

- ماذا حدث الآن بحق الجحيم؟

لا أعرف ولم يكن لدي وقت للتفكير فيه لأن صرخة اخترقت صمت المطبخ.

ماجي، تُطلق تلك الولولة الشبيهة بالنفير التي سمعناها منها يوم المبيت. هرعت وجيس نصعد السُلَّم، نضرب درجاته بقوة حتى وصلنا إلى الطابق الثاني ودخلنا غرفة ماجي. مرة أخرى أراها تعتلي الفراش وتصرخ تجاه الخزانة مفتوحة البابين.

صرخت ماجي:

- السيد ظِل! كان هنا!

السابع عشر

بعد مغادرة مكتب الدكتورة ويبر، أعود إلى شارع ميبل بحثاً عن مكتبة بارتلي العامة. ذكر الطبيبة تاريخ بانبيري هول قبل عائلة كارفر أثار فضولي لمعرفة مزيدا من المعلومات. ثمة منفعة إضافية من هذا، إبعاد تفكيري عن السيد ظِل، وهو أمر أحتاج إليه. أتوق إلى حميمية لا توفرها إلى المكتبات.

لكن لم تعد لمكتبة بارتلي وجود، وعرفت هذا عندما دخلت صالون تجميل أسأل عن عنوانها. تقول مصففة الشعر وهي ترمق نهايات شعري المتقصفة:

- لقد أُغلقت منذ سنوات. نشب حريق أتلف كل شيء، وصوتت المدينة ضد إعادة بنائها.

أشكرها وأمضي إلى سبيلي، قاطعة الطريق على عرضها لتقليم شعري. دون مكتبة، لا يوجد سوى مكان واحد أبحث فيه عن معلومات، جريدة «بارتلي جازيت».

مقر الجريدة في مبنى متواضع عند نهاية شارع ميبل جنوباً. أمام المبنى محل بيع صحف يعرض أحدث الإصدارات. عنوان الصحيفة بخط سميك أكاد أسمعه يصرخ.

العثور على جثة في بانبيري هول

إن كانت عناوين الصحف الرئيسة بهذه المبالغة، فلا عجب أن آلي قد قلقت. أنا نفسي انزعجت.

تحت العنوان الرئيس آخر فرعي، ليس في الحجم نفسه، لكن بذلك الافتعال.

الرفات التي عثر عليها في البيت الشهير لفتاة اختفت منذ خمسة وعشرين عامًا.

مُرفق مع الخبر الذي لم يكتبه سوى براين برنس ثلاث صور. واحدة منها صورة أرشيفية لبانيبري هول، التقطت غالبًا وقت إصدار الكتاب، والصورتان الأخريان لأبي ولبِترا ديمتر.

رؤية الصفحة الأمامية تنفِّرني من الدخول إلى المقر، لكن الحقيقة المرّة أنني أحتاج إلى براين برنس أكثر مما يحتاج إليّ. لذا أدخل، فأجد نفسي في مكتب لا يشبه تصوري لمقرات الصحف. غرفة انعزالية. غرفة الأخبار -إن جاز أن نطلق عليها هذا- مكتظة بالمكاتب الخاوية فوقها أجهزة حواسيب لم تُستخدم منذ رئاسة كلينتون.

أمام الباب تجلس موظفة استقبال كالجِدّات أمامها صحن سكاكِر. تراني فتنفرج شفتاها دهشةً وتهتف:

- السيد برنس..

أرفع كفي لأسكِتها وأقول:

- سيريد هو الحديث معي.

بمجرد سماع صوتي، يطِل براين برنس برأسه من باب غرفة رئاسة التحرير ويقول:

- ماجي، هذه مفاجأة ولا شك.

لن أجادل. فقط أشعر بغرابتي وأنا أقول:

- أحتاج إلى مساعدتك.

بابتسامة أكثر إشراقًا من لون ربطة عنقه الفراشية يسأل:

- في أي أمر؟

- أريد البحث في ملفات الجريدة.

- كل شيء نُشر في جريدة بارتلي خلال العشرين عامًا الماضية موجود على شبكة الإنترنت.

أعرف أنه يعرف أن هذا ليس مبتغاي. نتبادل النظر لحظة، مواجهة صامتة حتى يتزحزح أحدنا. أرمش أولًا. لا خيار لي.

- ساعدني وسأمنحك حوارًا صحافيًا حصريًا.. بلا حدود.

يتظاهر براين أنه يفكر في الأمر حتى وأنا أعرف أنه سيقبل. فضحته لمعة عينيه.

- اتبعيني.

يقودنِي إلى باب عند آخر الغرفة، وراؤه ممر صغير ودرج يؤدي إلى القبو.

يعلن براين ونحن ننزل:

- هذه هي «المشرحة». كل إصداراتنا القديمة هنا. كل واحدة منها.

يضغط زر الإنارة، فتضاء غرفة في مساحة مقصورتي شاحنتين. على طول الحائطين الأطول أرفف معدنية ممتلئة بالسجلات في طول وعرض صفحة الجريدة، مطبوع على كعب كل سجل عام النشر، وتبدأ الأعوام منذ 1870.

أقصد مباشرة السجل المطبوع عليه عام 1889، عام وفاة إنديجو جارسن. يسألني براين برنس:

- عن أي أعوام أخرى تبحثين؟

قرأت الكتاب مرارًا وأستطيع تذكُّر كل التواريخ التي ذكرها أبي فيه. يجمع لي براين خمسة سجلات من أربعة عقود مختلفة، وهو حِمل جعله يلهث بوجه محمر.

أجلس وأفتح أول سجل بتاريخ 1889.

بينما يصعد براين برنس إلى أعلى سريعًا ليجلب قلمًا ودفترًا، أبحث بين صفحات الصحف الهشة التي تكبرني عمرًا بقرابة مئة عام. جريدة بارتلي المحلية تصدر أسبوعيًا، فلا أحتاج إلى وقت طويل حتى أعثر على الخبر عن إنديجو جارسن..

البلدة تنعي ورثية جارسن

أغضب لما في العنوان من تحقير وتجهيل. لهذه الورثية اسم، ومن اللياقة والاحترام استخدامه في نعيها. العنوان نفسه يسحب الاهتمام من إنديجو

إلى بارتلي نفسها، كأنَّ وفاة فتاة في السادسة عشر لا يهم قدر أهمية حزن البلدة.

المقال ذاته مثير للحنق، إذ لا يكشف إلا قليلًا عن وفاة إنديجو جارسن، ويصب التركيز على والدها الذي أغلق على نفسه غرفته ولم يقبل العزاء. لم يذكر شيء ذو أهمية إلا بعد عدد من الإصدارات التالية، حين ادعت إحدى خادمات بانبيري هول أنها رأت ويليام جارسن يحمل طبقًا من التوت الذي سمي المنزل على اسمه، ويصعد به إلى غرفة ابنته. بعد ذلك بأسبوعين نشر العنوان الرئيس الذي ذكره أبي في الكتاب.

جارسن بريء من اتهامه بقتل ابنته

لم يكن يكذب. كل هذا حقيقي.

أنتقل إلى سِجِل عام 1926 بينما يعود براين إلى «المشرحة»، ويستند إلى الأرفف حاملًا دفتره وقلمه. يقول:

- هل أنتِ مستعدة لنبدأ؟

أومئ إيجابًا وأنا أتصفَّح الجريدة المُتخمة بإعلانات القبعات النسائية، والسيارات، وآخر الأفلام المعروضة في سينما بيجو في البلدة. لا أجد خبرًا عن آل جارسن إلا في إصدارات شهر مايو، يذكَر فيه مصرع أحد أفرادها في حادث سيارة.

الحقيقة الثانية مما ورد في الكتاب.

يسأل براين:

- هل تعتقدين أن والدك قتل بِترا ديمتر؟

- آمل ألا يكون قد فعلها.

- لكنك *بالفعل* تظنينه قتلها؟

- لو ظننته كذلك لكنت أنت أول من يعلم.

أفتح مجموعة الإصدارات من عام 1941 وأقول له:

- السؤال الثاني.

- هل تعتقدين أن موت بِترا هو سبب فرار عائلتك المفاجئ؟

- ربما.

أعثر على المقال عن الغرق في مغطس الحمام. الحقيقة الثالثة. وجدت الحقيقتين الرابعة والخامسة بعد دقائق بينما أفحص سجلات عامي 1955 و1956.

طوال هذا الوقت يرميني براين برانس بأسئلته.

- هل تعرفين أسبابًا أخرى دفعتك وعائلتك للفرار من المنزل؟

أجيب وأنا أتصفح منشورات عام 1974:

- لأنه مسكون. أو هكذا قيل لي.

أجد حالًا الخبر الذي كنت أبحث عنه، يحمل العنوان الرئيس:

سقطة مميتة من فوق درج بانبيري هول.

يضع براين برنس كفه المفتوحة على الصفحة، حاجبا عني الخبر. لا يهم. رؤية العنوان أكّدت لي أن أبي لم يكذب بشأن أي من وفيات بانبيري هول.

يقول لي:

- أنت لا تلتزمين بما اتفقنا عليه.

- أنت تحاورني، أليس كذلك؟

- ولن يكون هذا حوارًا ما لم تجيبي عن أسئلتي.

أقوم مبتعدة عن المكتب، وأتجه إلى رف سجلات آخر.

- أنا أجيب. أتمنى حقًا ألا يكون أبي قد قتل بترا ديمتر، ونعم، ربما يكون موتها سبب مغادرتنا. لو أردت تفاصيل، فتحدث مع شخص غيري.

- امنحيني فقط ما أنشره في إصدار الأسبوع القادم.

يتبعني براين إلى صفين من السجلات الضخمة تغطي إصدارات عقدين سابقين. يضيف:

- أريد إفادةً رسميًا..

أحمل سجلين آخرين، واحدًا يضم ما نُشر منذ خمسة وعشرين عامًا، والآخر لما قبل الأول بعام، وأعود بهما إلى المكتب.

- ها هي الإفادة التي تريد: مثلي كمثل الآخرين في بارتلبي، أنا مصدومة وحزينة لما اكتشف مؤخرا داخل بانبري هول. أعمق تعازيَّ لعائلة بترا ديمتر.

بينما يخط براين ما قلت في دفتره، أفتح السجل الأول من عام فرار عائلتي من بانبري هول. سهل العثور على خبر مغادرتنا. هو منشور على الصفحة الأولى من إصدار 17 يوليو.

أشباح بانبيري هول
فرار مُلَّاك الضيعة العتيقة الجُدد خوفًا على حيواتهم.

العنوان الرئيس الذي بدأ كل هذا.

بالطبع رأيت الخبر من قبل، وكل نسخه عبر الإنترنت. العنوان الرئيس متدني المستوى، وصورة بانبري هول التي نشرت آن ذاك، وما زالت تنشر حتى الآن على صفحات جريدة بانبري المحلية، مع كاتب الخبر نفسه.

يقول براين برنس وهو ينظر إلى المقال من فوق كتفي:

- أفضل أيام حياتي.

- وأحلك أيام عائلتي.

أقرأ المقال للمرة المئة تقريبًا، وأتساءل عما قد تكون عليه حياتي ما لم يكتب. لعشتُ طفولة

طبيعية بالطبع. لن أكون منبوذة، ولا معذبّة، ولا عرضة للسخرية. لن يطالبني القوطيون غرباء الأطوار بمصاحبتهم ظناً منهم أنني مثلهم.

لصرتُ الكاتبة التي تمناها أبي. عدم وجود ذاك المقال يعني عدم وجود كتّاب أبعدني عن اتباع طريق مهنة الكتابة وأبغضني فيها.

لسعد والداي في زواجهما، ولحفظت عائلتي ترابطها، ولم أكن لأقضي فصول الصيف والعطلات ممزقة ما بين بيت وآخر.

لكن المقال موجود، وتمنّي عكس ذلك لن يغير شيئاً. سأظل حتى موتي مرتبطة بأبي وبما ادعى حدوثه في بانبيري هول.

أتوقف عند قول أبي لبراين: سيسخر الناس. سيظنوننا جُننا، لكني واثق بأن ثمة شيئاً في بانبيري هول.. شيئاً خوارقياً يريد قتلنا.

أقرؤه فلا أستطيع إلا أن أفكر في حديثي مع دكتورة ويبر. هي مقتنعة أنني أخبرتها بالحقيقة، وأنني كنت متأكدة مما رأيت داخل المنزل.

شيء ما سَكَنَ بداخلك كشبحٍ مُؤرق.

أغلق السجل بعنف، لا أتحمل النظر إلى المقال أكثر، على أنني أحفظه عن ظهر قلب.

مرة أخرى لا أجد صعوبة في العثور على المقال الذي أريد أعرف التاريخ جيداً. عندما أعثر عليه، أرى أول شيء العنوان الرئيس القاسي في

بساطته.

قتل وانتحار في بانبيري هول

أسفله صورة آل كارفر المألوفة منذ فترة هوسي بالبحث عن أخبار المنزل على جوجل في مراهقتي. هذه المرة يصدمني التشابه بينهم وبين عائلتي. بدِّل الوجوه قليلًا، وستبدو الصورة كأنها صورتي ووالدي خلال فترة إقامتنا في بانبيري هول.

لكن الصدمة الحقيقية رؤيتي لاسم كاتب الخبر.

- براين برنس.

عائلتان بخبرتين مختلفتين تمامًا في بانبيري هول، ومن يكتب عنهما شخص واحد.

أستدير نحو الصحافي الواقف خلفي بعد. الحوار بيننا على وشك الاستئناف، لكن أنا من سيسأل هذه المرة.

10 يوليو

اليوم الخامس عشر

ألقت جيس لوح الويجا إلى سلة المهملات، وتمنت في حشرها داخل عمق القمامة. أتبعتها ببقايا إفطارنا، وجبة شوفان سائلة، بيض مخفوق، فتات خبز.

قالت:

- لقد انتهينا من هذا الأمر يا إيوان. لا مزيد من الحديث عن الأشباح أو معها، ولا مزيد من ادِعاء أن لا تفسير منطقي لكل هذا.

- لا يمكنك إنكار ما يحدث.

- ما يحدث الآن أن ابنتنا تقضي كل دقيقة في هذا المنزل في ذعر.

لن أستطيع الجدال. لقد قضينا أغلب الليل نهدئ ماجي التي رفضت العودة إلى غرفتها. حكت لنا ما بين فترات البكاء، ونوبات الهلع أنها كانت نائمة عندما انفتح بابا الخزانة، وخرج منها السيد ظِل، ثم جلس على طرف فراشها وأخبرها أنها ستموت قريباً.

لم تتغير قصتها مهما كررتها على مسامعنا.

أمسى رد فعلي أكثر اهتمامًا عن ذي قبل. أنا مقتنع أن شكلًا من الكائنات الشبحية يسكن منزلنا، وأخاف على سلامة ابنتنا منه.

أما جيس، فرد فعلها الإنكار.

قالت وهي تتجهز ليوم عمل بعد ليلة أرق:

- لا يمكنك أن تستمر في تغذية واقعية تلك الأفكار. لن تتوقف ماجي عن اعتبار السيد ظِل حقيقيًا حتى تتوقف أنت.

- لكن ليلة أمس..

صاحت جيس وتردد صوتها عبر جدران المطبخ:

- خدعنا عقلانا!

- لم يحرك عقلانا هذا الشيء عبر اللوح.

- نحن من حركناه يا إيوان. وبخاصة أنت. لست حمقاء. أعرف كيف تعمل ألواح الويجا. تعتمد كلها على التوجيه الخفي وقوة الإقناع. كل شيء كشفه اللوح هو بالضبط ما أردت رؤيته.

جيس مُخطئة. أنا لا أريد رؤية أي من هذا، لكنه حدث. مثلًا، عندما نامت أخيرا هي وماجي في الفراش، مكثت مستيقظًا أنصِت. أولًا سمعت الصوت المألوف عبر الممر.

صوت الطرقات.

طرقة فثانية فأخرى.

تبعه صوت الموسيقى يصدح من المكتب بالأعلى.

«*أنت في السادسة عشر، تعبرين إلى...*»

قاطعها الصوت الذي يتجلى دائمًا في الساعة

.4:54

صوت الارتطام.

ارتطام

هذه الأصوات حقيقية، ومستمرة في الحدوث، وأنا في حاجة إلى إجابات عن أسئلتي عما يحدث وكيفية التخلص منه.

قلت لها:

- لا يمكننا تجاهل الأمر. ليس لدينا خيار.

رشفت جيس رشفة غاضبة من قهوتها، ثم نظرت إلى الكوب في قبضتها المشدودة، وغمغمت:

- ثمة خيار دائمًا. أستطيع مثلًا اختيار تجاهل رغبتي المُلحة في تحطيم هذا الكوب فوق رأسك. هذا هو الخيار العقلاني. حفظ السلام ومنع الفوضى التي على أحدنا تنظيفها. أريد التعامل مع هذا الموقف بهذه الطريقة، لكن باستمرار الظن أن البيت مسكون فستصير الأوضاع إلى هذا.

دون إنذار، طوَّحتِ الكوب في حنق، فطار عبر الغرفة يجر خلفه ذيلًا من القهوة قبل أن يرتطم بالحائط فيتهشم.

- الخيار لك. لكن كُن واثقًا بأنه لو كان خيارًا خطأ، فلن أظل معك لأنظف الفوضى المُتخلِّفة عنه.

***

ذهبت جيس إلى العمل، ونظفت أنا القهوة المسكوبة وشظايا الكوب. كنت ألقي البقايا في سلة المهملات عندما سمعت دقات الأجراس.

أربعة منها.

ليس في الوقت نفسه، بل واحدًا تلو الآخر.

- جرس غرفة إنديجو أولًا. لا مفاجأة. هو الأكثر نشاطًا.

تلاه الخامس من الصف الأول، جرس الغرفة الكبرى.

بعده الجرس الأخير من الصف الأول، وقد دق مرتين سريعتين.

في النهاية اهتز الجرس الوحيد الذي لم يدق سابقًا من الصف الثاني. الثالث من اليسار.

استمرت الصلصلة على هذا النحو. أربعة أجراس تدق بالتتابع، تُكرر النسق مرة تلو الأخرى حتى خمس مرات. بعد مراقبتها ساورني الشك في أن هذا النسق ليس عشوائيًا. يبدو كشفرة، كأن مَن -أو ما- يتحكم في الأجراس يحاول إخباري شيئًا.

استخلصت لوح الويجا من وسط القمامة، ومسحت عنه بقعة الشوفان المطبوخ العنيدة قبل أن أضعه على طاولة المطبخ. بينما استمر دق الأجراس، حدقت إلى اللوح أمامي، وأدركت أنني لو خصصت حرفًا لكل جرس، فربما أفك

شِفرة رسالتها.

بدأت بأول جرس من الصف الأول، أول حرف أبجد. استكملت خطتي حتى آخر جرس من الصف الثاني. ثغرة نظريتي الوحيدة أن الحروف الأبجدية ست وعشرون، والأجراس أربع وعشرون جرسًا. لحل هذه المعضلة افترضت أن آخر جرس من الصف الثاني يمثل آخر ثلاث حروف من الأبجدية.

لا ضمان أن هذا هو الحل، لذا ظننتني مخطئًا. سخف أن أعتقد أن ثمة شبح يُشفّر لي رسالة، وسخف أيضًا أن أومن بوجود الأشباح. لكني منفتح الفكر ولا مستحيل أمامي.

تابعت دق الأجراس وفك الشفرة، حتى حصلت على خمسة أحرف تشكل كلمة «مرحبًا».

قلت:

- مرحبًا؟

متجاهلًا غرابة افتراضي أن الأشباح ترسل إليّ شِفرة، وأنني أتحدث جهرًا إلى واحد منها وأقول:

- من أنت؟

دقت الأجراس مرة أخرى بترتيب مختلف.

الثالث عن اليسار في الصف الأول.

الرابع عن اليمين في الصف الثاني.

أجراس متعددة رنّت، كل منهما يُشكل حرفًا

حتى ظهر الاسم.

كُرتس كارفر.

- كُرتس، هل تحدثت إلى ابنتي ليلة أمس؟

دق جرس من الصف الأخير، ثم تلاه جرسان.

«نعم»

- هل أخبرتها أنها ستموت هنا؟

دقت الأجراس بالترتيب السابق.

«نعم»

ابتلعت ريقي متردداً في النطق بسؤالي التالي الذي لا أريد التفوه به، لكني أحتاج إلى إجابته.

- هل تخطط لقتل ابنتنا؟

مرت لحظة صمت ربما لخمس ثوان، لكنها بدت لي ساعة. خلال هذا الوقت فكرت فيما فعل كُرتس كارفر بابنته. الوسادة فوق وجهها وهي نائمة. كم كان هذا مريعاً لها لو أنها استيقظت، وأنا واثق بأن هذا حدث على الأقل قرب النهاية. كيتي كارفر استيقظت *بالفعل*. تخيلت الشيء ذاته يحدث مع ماجي فتملكني الهلع.

ثم دق الجرس.. مرتين..

«لا»

زفرت زفرة خلاص طويلة ثقيلة، وخطر لي في أثنائها سؤال آخر. سؤال لم أفكر فيه لظني أني أعرف الإجابة قبل انتقالنا إلى بانبيري هول.

لكن بعد رؤيتي الأجراس تشدو بأغنيتها شككت في صحة ما قيل لي من قبل.

- كُرتس. هل قتلت ابنتك؟

مرة أخرى تسكن الأجراس لثوان، ثم تصدح للمرة الأخيرة اليوم، معلنة إجابة كُرتس كارفر.

«لا»

الثامن عشر

أقول:

- لم أكن أعرف أنك كتبت الخبر الأصلي عن كُرتس كارفر.

يبتسم براين برنس ابتسامة عَقدت معدتي ويقول نفوراً:

- كان أول سبق كبير لي.

أنقل عينيّ إلى الخبر، مفضلة صورة آل كارفر على سِحنة براين السخيفة. أسأله:

- كم تتذكر من ذاك اليوم؟

- كثيراً. كما ذكرت، كنت مُستجداً في جريدة «بارتلي جازيت»، حتى وقد عشت طَوال حياتي في البلدة. وقتها كانت الجريدة أكبر لأن كثيرا من كبار المراسلين ما زالوا يعملون فيها، ولم يوكَل إليّ إلا بفتات الأخبار. تغطية عروض الكلاب ومسابقات نباحها. حاورت مارتا كارفر قبل الواقعة بعدة أيام. واصطحبتني في جولة داخل بانبيري هول وأخبرتني بكل ما تخطط للمكان. أردت جولة مماثلة مع والدتك، لكن عائلتك لم تمكث كثيرا حتى تواتيني الفرصة.

- أخمن أنك لم ترَ أشباحاً خلال جولتك.

- أبداً، وإلا لحصلت على قصة مدوية.

- كيف كانت مارتا كارفر عندما حاورتها؟

- كانت لطيفة، ودودًا، متحدثة. بدت سعيدة. يصمت براين. استقرت نظرةٍ مُفكِّرة فوق ملامحه. لأول مرة اليوم يبدو بشريًا.

- أفكر في ذلك اليوم كثيرًا، وكيف كان واحدًا من أواخر أيام سعادتها.

- ألم تتزوج أو تُنجب مرة أخرى؟

يهز براين رأسه نفيًا ويضيف:

- ولم تغادر البلدة، وهو تصرف فاجأ الجميع. ظن أغلب الناس أنها ستنتقل إلى حيث لا يعرفها أحد ولا يعرف ما حدث لها.

- لماذا تظنها مكثت؟

- أعتقد أنها اعتادت البلدة. دُفنت كيتي خلف الكنيسة، ربما فكَّرت في أنها لو رحلت فستتخلى عن ابنتها.

أنظر إلى الصورة في الصفحة أمامي. كُرْتس كارفر يقف على مبعدة منهما. أسأله:

- ألم يُدفن كُرتس معها؟

- أحرقوا جثته بناء على طلب مارتا. يُشاع أنها ألقت برماده إلى القمامة.

الجرة التي تحوي رماد أبي في خزانة شقتي في بوسطن، ما زالت بعد في صندوقها الذي وضعتها فيه دار الجنازات. غادرت جنازته وقد خططت أن أنثر الرماد في ميناء بوسطن في وقت ما من

الصيف القادم. لو اتضح لي أنه قاتل بِترا ديمتر فربما ألغي الخطة وأحذو حذو مارتا كارفر.
أقول:

- لا بد أن الأمر عسير عليها بعد. حتى بعد مرور كل هذه السنوات.

- في كل بلدة شخص أصابته فاجعة، شخص يشفق عليه الجميع. في بارتلي لدينا مارتا كارفر. هي تتعامل مع الأمر بعزة. أعترف بهذا. ما تحمله قد يسحق أغلب الآخرين، والبلدة تقدِرها. خاصةً الآن.

لم يخطر لي التفكير في تأثير أحداث بانيبري هول الحالية فيها. العثور على فتاة أخرى ميتة في المنزل نفسه الذي ماتت فيه ابنتها. لا بدّ أن هذا مثير للذكريات الأليمة.

- كتب أبي أنها تركت أغلب أغراضها داخل بانيبري هول. هل هذا صحيح؟

- غالبًا. أعرف أنها لم تعُد قَط إلى المنزل. بعد عثورها على ابنتها وزوجها ميتين اتصلت بالشرطة وكانت في حالة هيسترية. عندما وصلت الشرطة وجدوها ذاهلة في الشرفة الأمامية وأرسلوها إلى المستشفى. إحدى صديقاتها أخبرتني أنها لم تطأ أرض بانيبري هول من وقتها.

أميل مقتربة من الصورة، أتفحص وجه مارتا كارفر. لا أرى تفاصيل كثيرة. الصورة ضبابية.

لا شيء سوى نقاط الحبر القديمة تخبرنا القصة.

- يجب أن أرحل.

أعلنها وأنا أقف تاركة خلفي سجلات الصحف من الماضي. أضيف:

- أشكرك لمساعدتك لي.

- أشكرك على *الحوار*.

قالها ساخرًا وهو يحيط الكلمة بأصابعه كقوسين في الهواء. أتظاهر بأنني لم ألحظ، لدي مهمة أنتبه لها مع أنني أبغض القيام بها.

أحتاج إلى الحديث مع مارتا كارفر.

- عن بانيبري هول.

- وكيف أنني أشك في أن قصتها أقرب لقصة أبي أكثر مما يدرك أي شخص آخر.

***

لأنه وقت الغداء، لا يوجد كثيرون في الشوارع. يدخل رجل مطعم «سوشي» في شارع ميبل، وتخرج امرأة من مطعم مأكولات نباتية مجاور حاملة عددا من الأكياس. لكن مخبز مارتا كارفر أكثر مكان جذبًا للزبائن. يلتف الناس خارجه حول طاولاته، ينظرون إلى هواتفهم المحمولة ويشربون القهوة المثلجة، بينما يصطف آخرون في الداخل أمام المشرب.

يحين دوري، فتحييني مارتا بالرسمية المهذبة التي

حيتني بها من قبل، وتسألني:

- ماذا أحضر لك يا آنسة هولت؟

أكتشف فجأة افتقاري لخطة بدء الحديث معها. ليتني فكرت في أمر أتحدث فيه. كل ما أفعل هو التردد قليلًا قبل أن أقول:

- أتساءل إن كان في وسعنا الحديث على انفراد. في مكان خاص.

لا أخبرها بما أريد الحديث بشأنه، ولا تسألني مارتا. هي تعرف بالفعل. السؤال الأهم هو: هل ستوافق؟ منحها الكتاب كل أسباب الرفض، لذا أرتبك عندما تومئ إلي موافقة.

- سأود فعل هذا.

- حقًا؟

يبدو أنني أبدو متفاجئة كما أشعر، إذ تقول مارتا:

- نحن متشابهتان يا ماجي. تحكَّم بانيري هول في حياة كلتينا.

يجلي الواقف خلفي في الصف حلقه، يعلن نفاد صبره.

أقول لها:

- يجب أن أرحل، لكني سأعود لاحقًا بعد موعد غلق المخبز.

تقول مارتا:

- سآتي أنا. قبل كل شيء، أنا أعرف المكان،

وحان وقت مواجهته مرة أخرى. سأشعر براحة أكثر لأنك ستكونين هناك معي.

أغادر المتجر شاعرة براحة. سار اللقاء على نحو غير متوقَّع. أشعر أيضًا أن الحظ يحالفني، إذ لم يقرر براين برنس اتباعي بعدما تركت الجريدة. لتعثر في خبر عظيم آخر لو فعل.

مارتا كارفر على وشك العودة إلى بانبيري هول.

11 يوليو

اليوم السادس عشر

بعدما غادرت جيس إلى العمل ذاك الصباح، أقنعت بِترا ديمتر أنا تجالس ماجي لبضع ساعات. ترددت قليلًا، وهذا مفهوم نظرًا إلى ما حدث آخر مرة كانت فيها في بانبيري هول. وافقت فقط بعدما ضاعفت لها الأجر.

تركت بِترا تُجالس ماجي، وذهبت إلى مخبز مارتا كارڤر في وسط البلدة. وجدتها خلف المشرب تلصق ابتسامة مهذبة على شفتيها وتقول:

- كيف أخدمك يا سيد هولت؟

- أحتاج إلى الحديث معك.

أومأت مارتا نحو زبونها الواقف خلفي وقالت:

- معذرة، لكني مشغولة الآن.

- الأمر مهم. أريد الحديث بشأن الفترة التي عشتِ فيها في بانبيري هول.

- لا أريد حقًا الحديث عن ذاك المكان.

تهدَّل كتفاها وكأن الحزن يثقلهما بالفعل. أردت أن أتركها في سلام، فقد نالت كفايتها من المتاعب ولا أرغب في زيادتها. لكن حاجتي إلى معرفة مزيد عما حدث في بانبيري هول دفعتني لاستكمال الحديث.

- أنا قلِق بشأن ابنتي. تحدث لها أمور وأحاول

فهمها لكني عاجز.

انتصب عمود مارتا الفقري فجأة. بعد نظرة أخرى إلى الزبون خلفي همست:

- لاقِني في المكتبة بعد عشر دقائق.

عدت إلى المكتبة وانتظرتها في قاعة القراءة. وصلت مارتا بعد عشر دقائقٍ بالضبط، ما زالت ترتدي مريولتها، ساعِدها ملطخ بزينة الكعك، والدقيق منثور عند زاوية إحدى عدستي نظراتها، ما جعلها تبدو كأنها خرجت من عاصفة ثلجية توًا.

قالت لي:

- أخبرني بمزيد عن ابنتك. ماذا يحدث لها؟

- ترى أشياء. عندما سكنتم بانبيري هول، هل شهدتم أي غرائب؟

- أي نوع من الغرائب؟

- أحداث غريبة، أصوات غير مفسرة.

- هل تقول إن المنزل مسكون؟

- نعم.

لا فائدة من الإنكار. هذا بالفعل ما أعتقد. أضفتُ:

- أعتقد أن هناك كيانات خوارقية في بانبيري هول.

- كلا يا سيد هولت. لم أرَ ما يؤكد وجود

أشباح في ذلك المنزل.

- ماذا عن كيتي وكُرتس؟

رمشت مارثا رمشة قوية لدى ذكرى عائلتها، كأن اسميهما نفخا في عينيها هواء تريد أن تقي نفسها شره.

- لا أظن. ادَّعى زوجي أنه سمع صوت طَرقات في الممر ليلًا، لكني واثقة بأن الصوت صدر عن المواسير. البيت عتيق كما لا بد أنك تعرف.

أظنها الأصوات التي سمعتها في الممر، استنتجت سابقًا أن مسببها روح كُرتس كارفر القلقة، لكن سماعه لها هو أيضًا يعني أن مسببها شيء آخر، أو شخص آخر، لأنني لا أظنها أبدًا أصوات المواسير.

قالت مارثا:

- لنعد إلى ابنتك. هل هي مريضة؟

- جسديًا، لا. عقليًا، ربما. هل كا..

منعت نفسي في آخر لحظة من ذكر اسم كيتي. لا بد ألا أفعل ذلك ثانية لما رأيته من رد فعل قاس على وجه مارثا. أكملت:

- هل كانت ابنتك مريضة؟

- نعم، كانت مريضة.. لفترة طويلة. إرهاق مستمر وغثيان. لم نعرف ما سبب ذلك. طفنا بها من طبيب إلى طبيب، أملًا أن يخبرنا أيهم عما بها. حتى أننا عرّجنا على مختص في الأورام ظنًا

أنها تعاني نوعًا من السرطان.

الطفل المريض والعجز على مساعدته كابوس كل أبوين. لقد مررت بلمحة من هذه المحنة مع ماجي وزيارتها للدكتور ويبر. لكن ما تصفه مارتا أسوأ بكثير.

- كل نتائج فحوصاتها كانت جيدة. كيتي -على الورق على الأقل- طفلة سليمة تمامًا. أقرب ما توصلنا له إلى تشخيص هو اقتراح طبيب أن السبب قد يكون عفنًا في المنزل. شيء تحسست هي منه ولم يؤثر فينا. رتبنا لفحص المنزل، لكن لم يحدث هذا قط.

ولم تُضِف شيئًا، تاركة إياي أستنتج السبب. قلت لها:

- أفهم كم هو عسير عليكِ الحديث عن الأمر، لكني أتساءل إن كان في وسعك إخباري ما حدث يومها.

نظرت مارتا إلى عينيّ مباشرة وقالت كأنما تتحداني ألا أشيح بنظري:

- قتل زوجي ابنتي، ثم قتل نفسه.

ولم أشِح بنظري.

قلت لها في رفق:

- أريد أن أعرف كيف حدث هذا.

- لا أرى حقًا كيف أن وصف أبشع يوم في

حياتي قد يساعدك.

- لن يساعدني أنا، بل سيساعد ابنتي.

أجابت مارتا بإيماءة بسيطة. لقد أقنعتها.

قبل أن تتحدث تململت في مقعدها، ثم بسطت يديها أمامها على المنضدة، وغادرت كل المشاعر وجهها. فهمت ما تفعل. تتراجع إلى مكان آمن في نفسها وهي تحكي تفاصيل دمار عائلتها.

تغيَّر صوتها أيضًا وهي تقول:

- وجدت كُرتِس أولًا.

صوتها بلا حياة، بارد. طريقة أخرى للتكيف. أردفت:

- كان في الطابق الثالث، في غرفته. كهف رجوليّ، كما كان يطلق عليها. لم يسمح لفتاة بالدخول. لرأيتُ الأمر سخيفًا إن لم يكن بانبري هول بهذه الضخامة. ثمة متسع ليحصل كل منا على عدة غرف. استيقظت ذاك الصباح على صوت قادم من غرفة كُرتِس. عندما رأيت مكانه الخالي من الفراش قلقت على الفور. ظننته سقط أو تعثّر وجرح نفسه. هرعت أصعد الدَّرج إلى الطابق الثالث، غير عالمة أن الحياة التي أعرفها وأحببتها توشك على الانتهاء. عندما رأيت كُرتِس على الأرض عرفت أنه ميت. حول رأسه كيس قمامة مربوط بحزام حول عنقه، ولم يكن يتحرك. أعتقد أنني صرخت. لست واثقة. أتذكر

أني ناديت كيتي أطلب منها الاتصال بالنجدة. لم تجبني، فهرعت مجددا إلى الطابق الثاني هذه المرة وأنا أصيح كي تقوم من فراشها وتساعدني، أصيح بها ألا تصعد إلى الطابق الثالث. لم أفكر في سبب عدم استجابتها لندائي حتى قبل بضع بوصات من حجرتها. هنا باغتتني فكرة مريعة. لقد ماتت أيضا. عرفت هذا قبل أن أخطو إلى الداخل، وعندما فعلت تأكدت. كانت ممددة هناك، ساكنة، ووسادة على..

قطع الحزن صوتها كسيف. تحطم القناع الذي تخفي خلفه وجهها، وحل محله خليط يمزق القلب من الألم والأسى والندم.

- لا أستطيع الاستمرار أكثر من هذا. أعتذر يا سيد هولت.

- أنا الذي أعتذر لك. ما كان عليَّ أن أضغط عليكِ.

ما زال لدي ما أحتاج إلى معرفته. أمر ترددت في السؤال عنه لأني أعرف أنه قد يزيد من ألم مارتا.

- لدي سؤال أخير.

قالت مارتا بغضب له عذره:

- ما هو؟

- ذكرتِ أن صوتًا من الطابق الثالث أيقظك.

- نعم. أدركت لاحقًا أنه صوت جسد كُرتس

يرتطم بالأرض. صوت ارتطام عنيف مدويّ.

- هل تعرفين كم كانت الساعة وقتها؟

- نظرت إلى الساعة عندما لم أجد كُرتس في الفراش. في الرابعة وأربع وخمسين دقيقة.

توقعت هذا، لكني توقعي المبكر لم يمنع جسدي عن الارتجاف لدى سماعي ما قالت.

قال هيبس إن بانبيري هول يتذكّر.

وها هو يتذكّر بالفعل. يتذكر أحداثًا مفصلية ويكررها. أحاول فقط فهم السبب. لا بد أن هناك سببًا لسماعي صوت الارتطام كل صباح، كما عثرت على تفسير لدق الأجراس وزيارات السيد ظِل المتكررة لماجي.

يقول إننا سنموت هنا.

العبارة المنقولة بصوت ابنتي بدت تهديدًا. روح كُرتس كارفر المنفلتة تخطط لإيذائنا.

إذًا، لماذا لم يفعل شيئًا حتى الآن؟ بل وظل يحاول التواصل معنا. معنى هذا أنه لا يهددنا على الإطلاق، إنما يحذرنا.

سألت مارتا:

- بعيدًا عن الطرقات التي سمعها زوجك، هل مرَّ بشيء آخر غريب أو مثير للشك؟

- أخبرتك سابقًا أنه لم يفعل.

- ولم يتحدث عن شعوره بالقلق في المنزل؟

- لا.

- ولم يكن قلقًا بأي شكل على سلامة عائلتكم؟

عقدت مارتا ذراعيها وقالت:

- لا، وأكون شاكرة لو أخبرتني إلامَ تُلمّح يا سيد هولت.

- أعتقد أن شخصًا -أو شيئًا- آخر قتل ابنتك وزوجك.

لم تكن مارتا لتبدو مصدومة إلى هذا الحد لو أنني لطمتها. تجمّد جسدها للحظة، وانسحب اللون من بشرتها. بدت منزعجة حتى أنني خشيت أن تفقد الوعي داخل المكتبة، لكنها تحسنت قبل أن تهتف:

- كيف تجرؤ؟

- معذرة. أنا فقط ساورني الشّك في أن ما حدث ذاك اليوم لم يحدث كما فسرته.

أعلنت مارتا في اشمئزاز واضح:

- لا تخبرني بما أعرف وبما لا أعرف عن سبب دمار عائلتي. كيف تعرف أكثر مني عما حدث؟

ترددت في قول شيء بدا لي سخيفًا للغاية، جنونيًا، مثيرًا لحساسية المرأة الثكلى أمامي. لكني قلته..

- زوجك أخبرني.

انطلقت مارتا من مقعدها كالسهم. نظرت إليَّ

بوجه غاضب متألم وقالت:

- عرفت أنك ساذج يا سيد هولت. وضح لي هذا عندما علمت بشرائك بانبيري هول. ما لم أعرف -حتى الآن- أنك أيضًا قاس.

أولتني ظهرها ومشت مبتعدة عن المنضدة، خارجة من القاعة ومن المكتبة كلها.

مكثت خلف المنضدة أشعر بذنب كلمات مارتا. أجل، كنت قاسيًا حين أثقلتها بأسئلتي، وأجل، كنت ساذجًا أيضًا حين فسرت نيات كُرتس كارفر، لكن شيئًا على وشك الحدوث في بانبيري هول، ذكرى أخرى وتكرار آخر. سواء كنت ساذجًا أو لا، آمنت أن كُرتس كارفر يحاول إنقاذنا من المصير ذاته الذي وقع لعائلته. لأجل تحاشي هذا، أردت أن أعرف من المسؤول.

بعد عشر دقائق أخرى عشتها أغلي بشعور الذنب والقلق، غادرت المكتبة. في طريقي إلى الخارج عبرت باللافتة المهداة إلى ويليام جارسن، وأمامها اللوحة الأكثر رقة من مثيلتها في بانبيري هول.

توقفت عند اللوحة ولاحظت أن ملامح جارسن الأكثر نعومة ليست الاختلاف الوحيد بين اللوحتين. في هذه اللوحة رأيته يقبض بيمينه على عصا مشي، دققت النظر إلى تفاصيلها. العود الأبنوسي، المقبض الفضي، قبضة ويليام جارسن المحكمة عليها. مفاصل أصابعه بيضاء مشدودة كأنه

لا ينوي إفلات العصا أبدًا. مرأى العصا ذكّرني بصوت سمعته مرارًا من قبل الأيام السابقة.

صوت الطرقات.

غزت البرودة جسدي مُجمّدة أوصالي كما فعلت ليلة سمعت مشغل الموسيقى لأول مرة.

فكّرت: *لا.. أنت أحمق. لا يجوب شبح ويليام جارسن أرجاء بانبيري هول، ولا تطرق عصاه الأرض عبر الممر.*

لكن البرودة صحبتني حتى بعدما خرجت إلى حر يوليو، وتردد صوت الطرقات عبر أفكاري طوال طريق عودتي إلى البيت.

التاسع عشر

تصل مارتا كارفر قُبيل الغروب، على وجهها ابتسامة خجل، تحمل فطيرة كَرَز.

توضح لي:

- نخبز كل صباح مخبوزات طازجة، وأحب إهداء شيء مما تبقى منها لأصدقائي.

أقبل الهدية غير المتوقعة، وقد لمس قولها قلبي.

- هل نحن صديقتان؟

- آمل ذلك يا ماجي، لدينا..

تصمت هنيهة، غير واثقة برد فعلي على ما ستقول. أخيرًا تكمل:

- لدينا من الأمور المشتركة أكثر مما بيننا وبين الآخرين.

أفسر هذا بأنها تظن أبي مذنبًا. ربما هي مُحقة، على أنني بدأت أشك في هذا. إثبات صحة ما ذُكر في الكتاب يقودني إلى استخلاص أن أحدًا غير أبي تسبب في مقتل بِترا ديمتر.

أو شيئًا غيره.

شيء يرعبني حتى أعماقي.

لو أن أحدًا أخبرني الأسبوع الماضي أنني سأصدق ما ورد في الكتاب لاتهمته بالجنون. لكن لأول مرة في حياتي أشك في أن أبي قد علم شيئًا وأنا الآن على وشك فهم هذا الشيء.

أتمنى أن تساعدني مارتا كارفر في عبور هذا الحاجز.

أقول وأنا أحدق إلى الفطيرة:

- تبدو لذيذة، ادخلي لتتذوقيها.

لا تتحرك مارتا، بل تحدق إلى باب بانبري هول من خلف نظارتها المستديرة. رؤية خوفها جعلني أشعر بتحسن، وقد برر هذا خوفي الشخصي.

تقول:

- ظننت أنني قادرة على الدخول. أريد الدخول بالفعل. أريد أن أظهر للمنزل أنني لا أخشاه. كيف تفعلين هذا يا ماجي؟

- أخبر نفسي أن ما حدث هنا ليس حقيقيًّا.

- ليس لدي هذه الرفاهية.

- إذًا لنتحدث هنا بالخارج. دعيني فقط أُدخِل هذه.

حملت الفطيرة ونزلت بها إلى المطبخ، ثم عدت بزجاجتي جعة. لا أعرف إن كانت مارتا تشرب، لكني أعتقد أنها في حاجة إلى تيسير مرور زيارتها. أعود إلى الشرفة الأمامية. تقبل مني الزجاجة وترشف رشفة صغيرة. ألاحظ الخواتم حول أصابع يدها اليمنى، خاتم خطوبة وخاتم زفاف، وأتذكر ما قاله براين برنس عن عدم زواجها مرة أخرى. لا أستطيع سوى أن أتخيل

مدى وحدتها طَوال الخمسة وعشرين عامًا السابقة.

تقول مارتا بعد رشفة طويلة من الجعة:

- آسفة على اقتراحي السابق. ظننتُ أنني أكثر جسارة بما يمكنني من الدخول إلى البيت. لكن للبيت قوة تميزه. لا أستطيع التوقف عن التفكير فيه حتى وأنا لا أرغب في شيء إلا نسيان ما حدث هنا.

أرفع زجاجة الجعة في نخب كئيب وأقول:

- أعرف هذا الشعور جيدًا.

فتقول مارتا:

- لا بد أنك تعرفينه طبعًا. لذا أنا سعيدة لمرورك بالمخبز اليوم. بل كنت أتوقعه. كدت أذهب أنا إليك، لكن بعد ما حدث خلال الأيام الأخيرة، لم أتبين إن كنت تريدين الحديث. ثمة كثير مما يحتاج إلى نقاش.

- لنبدأ بأبي.

- تريدين معرفة إن كان ما ذكره في كتابه حقيقي. على الأقل دوري فيه.

تنظر إليّ مارتا نظرة جانبية، تريد أن تعرف وقع كلماتها عليّ ومعرفتي أنها قرأت الكتاب. فوجئت حقًا.

- قرأته بناء على نصيحة محاميّ.

- هل ما ذُكِر عنك دقيق؟

- إلى حد بعيد. قابلت والدك بالطريقة التي ذكرها في الكتاب. جاءني في المخبز، ثم تحدثنا في المكتبة.

- عمَّ تحدثتما؟

أمسكت مارتا زجاجة الجعة بكلتي يديها، وضمتها إلى صدرها، ما جعلها تبدو كمنطوية في حفل ماجن. متضايقة وخجول.

- ذكر أبوك كل شيء في الكتاب. فترة إقامتنا في المنزل، ما حدث في ذلك اليوم البشع. قال لي إنه يعمل على كتاب عن بانبيري هول، ولهذا وافقت. أردته أن يعرف الحقيقة. كنت أمينة للغاية في نقل كل شيء، بداية من مرض كيتي إلى اكتشاف جثتها هي وأبيها.

- ماذا عن ظنه أن زوجك ليس الجاني؟

- لم نتحدث في الأمر. هذا الجزء خيالي بالكامل.

أحدق إلى زجاجة الجعة التي أشرب منها، وأشعر بالخزي لما فعل أبي، فلا أجرؤ على النظر إلى عيني مارتا.

- أعتذر عما فعل أبي. كان هذا خطأً فادحًا.

ما كتبه أبي عن كُرتس كارفر ضمن أسباب كثيرة جعلتني أعاني إرث هذا الكتاب. كيف يختلق قصة كاملة ثم يدعي أنها حقيقية. صحف الفضائح تفعل هذا أسبوعيًا. لكن كتابه تاريخ شخص آخر ليس حدثًا سهلًا يُمكن تجاهله. بذكره

احتمالية ألا يكون كُرَتس هو من قتل ابنته ثم اتخذ يلوي أبي قصة مارتا ومأساتها الحقيقية حتى تصير خيالًا أدبيًا. وجودها هنا يشير إلى درجة عالية من التسامح ليس لي قِبل بها.

لهذا يؤلمني للغاية معرفة أن هناك ذرة حقيقة فيما كتب أبي. ليس فقط عن كون بانبيري هول مسكونًا بالأشباح.

بل عن كل شيء..

المكان ليس آمنًا. ليس آمنًا لكِ.

أسألها:

- هل ذكر أبي شيئًا عن الأشباح؟

- بالطبع. شاعت قصة عائلتك على صفحات الصحف في ذاك الوقت.

- أنتما لم تتحدثا إلا بعد مغادرتنا بانبيري هول؟

- بعدها بأسبوعين. أتذكر هذا لأنه لم يكن لدى زبائن المخبز حديث إلا عن الأمر. كانوا يخشون عليَّ من أثر أخبار بانبيري هول.

- وهل ضايقَتكِ؟

تعترف قائلة:

- في البداية. لكن انتابني الفضول تجاه عائلتك وما مررتم به هنا.

- لماذا؟

تخطو مارتا إلى خارج الشرفة الأمامية لتنظر إلى

واجهة بانبيري هول وتقول:

- لأنني لن أفاجأ إن اتضح لي أن هذا البيت مسكون.

تنعكس صورة المنزل على عدستي نظارتها فتملؤهما، وتخفي الخوف الفضولي الذي أثق بأنه الآن في عينيها. تضيف مارتا:

- لا أومن بوجود الأشباح. لكن هذا المنزل -وما حدث فيه- قادر على تغيير رأيي.

أمكث مكاني أحدق إليها وهي تحدق إلي بانبيري هول. ما أريد سؤاله تاليًا قد يحسم كثيرًا من الأمور. سؤال قد يدفعها للاعتقاد أنني وأبي سواء.

قاسيان.

- هل شككتِ من قبل -ولو لثانية- في أن أبي صادق فيما ذكر في كتابه من أن زوجك لم يقتل ابنتك؟

أتوقع أن تثور مارتا، لكن حدث العكس. عادت إلى مقعدها وضمّتني إلى صدرها بقوة.

- آه، ماجي. أعرف ما تشعرين به الآن. كنت مكانك، وأردت أن أصدق أي شيء سوى ما هو مُثبَت أمامي. لأشهر.. لسنوات.. طفت حول ذرة الأمل تلك. ربما لم يفعلها كُرتس. لكنه فعلها يا ماجي.

- كيف تأكدتِ إلى هذا الحد؟

- لقد ترك خطابًا. ظل بعيدًا عن تقارير الشرطة الرسمية، لذا لم يُذكر في أي خبر عن الجريمة. عانى كُرتس الاكتئاب، وهو مرض لم يشع الحديث عنه وقتها كما هو الآن. زاد مرض كيتي اعتلاله، وكتب أنه عاجز عن التعامل مع الأمر، وأن كل ما يريده هو إنهاء عذابه وعذابها. أكدت الشرطة أن الخطاب بخط يده، وكشف الفحص الجنائي أنه هو من قتل كيتي وقتل نفسه.

تصمت كأن التفوه بهذه الكلمات طرد كل الهواء من رئتيها، كما فعل معي سماعها فأتنفس بصعوبةٍ. تقول بعد لحظات:

- صعب التأقلم مع حقيقة أن شخصًا أحببته قادر على كل هذه القسوة.

لست مستعدة للتأقلم بعد. كيف أفعل هذا وأغلب ما حدث تلك الليلة مجهولًا؟ لكن مارتا اتخذت قرارها بالخوض في الأمر.

- لطالما تساءلت عن سبب كتابة أبيك هذا الكتاب. أهمّتني كثيرًا رغبة شخص في نشر الأكاذيب على هذه النحو. ظللت على هذا الحال حتى اكتشفت جثة بِترا ديمتر في بانبري هول، وأدركت أن الأمر منطقي، والكتاب هو تبريره لما حدث.

- تبرير أي شيء؟

- قتلها. زعم براءة زوجي في صفحات كتابه هي

تبرئة لنفسه. نحن فقط لم نكن نعلم بجريمة أبيكِ وقتها.

لا أستطيع لومها. أغلب الكتّاب يبدو اعترافًا سريًا. أشار أبي كثيرًا إلى الموضع الذي دفِنت فيه بترا كأنه يتحدى من يجرؤ على الاقتراب.

تقول مارتا:

- لا ألومك على أي من هذا يا ماجي. لا على ما قال أبوكِ، ولا ما كتب. أنا أفهم أيضًا ما تفعلينه على مواقع المزاد.

ربما للمرة العشرين خلال حديثنا أنظر إلى مارتا نظرة تساؤل.

- ماذا أفعل؟ وأي مواقع مزاد؟

- أنت تبيعين أغراضًا من بانبيري هول عبر الإنترنت. قطع فنية أصلية من بانبيري هول. هذا ما تطلقين عليها.

- لكني لم أفعل هذا.

- يبدو أن أحدًا يفعلها. أشخاص كثيرون لفتوا نظري لهذا، حتى محاميّ. نصحني بمقاضاتك وطلب جزء من الأرباح، على خلفية أنك تتاجرين بمأساتي في المنزل التي هي سبب شهرته.

أخرج هاتفي من جيبي وأفتح متُصفح الإنترنت. أبحث عن أربع كلمات: قطع فنية بانبيري هول. يدلني البحث إلى موقع مزاد معروض عليه أكثر من عشر قطع من ما يدعي البائع أنه «أكثر منزل

مسكون في أمريكا». أفحص صور المعروضات فأرى قلم حبر، وبضع صحون، وشمعتين، وآخر الإضافات، سكين فتح خطابات فضية.

أنقر على الصورة لتكبيرها، فيلفت نظري مقبض السكين. أرى الحرفين المحفورين عليه «و. ج» وأدرك أن البائع لا يكذب. هذا هو سكين فتح الخطابات ذاته المفقود من بانبيري هول.

وأعرف بدقة مَن سرقه.

أقول لمارتا:

- معذرة. مضطرة لإنهاء جلستنا.

- هل قلت ما أزعجك؟

- أبدًا. في الواقع، لقد ساعدتني أكثر ما تحسبين.

ظهرت أمارات الحيرة على وجه مارتا وأنا أقودها إلى سيارتها. أشكرها على الفطيرة وأخبرها أنني سأشرح لها كل شيء لاحقًا. أنا الآن في حاجة إلى الحديث مع شبح.

أو للدقة، غول.

12 يوليو

اليوم السابع عشر

لم أخبر جيس بشأن الأجراس أو حديثي مع مارتا كارفر أو خشيتي من الفظائع التي تطهى لنا في بانبيري هول. أعرف أنها لن تود سماعها. لقد قررت بالفعل أن ما يحدث هنا -وإن لم يكن عاديًا- على الأقل غير ضار. للإنكار قوة هائلة، وقد وقعت جيس بالكامل في قبضته.

بمجرد أن رحلت جيس إلى عملها، أمشي مع ماجي إلى كوخ إلسا ديمتر لإقناع بِترا مرة أخرى بمجالستها. لكن هذه المرة تفتح لنا إلسا الباب. لم نتحدث منذ ليلة المبيت، ولاحظت شيئًا من آثار غضبها على وجهها العابس.

سألتني وهي لا تنظر إليَّ، إنما لابنتي:

- هل تحتاج إلى شيء يا سيد هولت؟

شرحت لها أنني في حاجة إلى إنهاء بعض الأعمال في مكتبي المنزلي، وأسأل إن كان لدى بِترا وقت لمجالسة ماجي بضع ساعات.

- بِترا مُعاقبَة.

ولم توضح لي السبب، لكن واضح طبيعة العقاب. وصل إلي صوت بِترا من عمق الكوخ عبر الباب المفتوح تغمغم: «استر وجهك عن خطاياي، وامح كل آثامي.»

تظاهرت إلسا أنها لا تسمعها، وأخيرًا نظرت إليَّ قائلة:

- يمكنني مجالسة ماجي، لكن لساعة واحدة فقط.

- أشكرك. أنا بالفعل أقدر ذلك.

تراجعت إلسا إلى داخل المنزل لدقيقة قبل أن تعود وتغلق الباب خلفها. ما زلت أسمع صوت غمغمات بِترا المحمومة.

«قلبًا نقيًا اخلق فيَّ يا الله، وروحًا مستقيمة جدد في داخلي.»

انطلق ثلاثتنا إلى بانيبري هول، ماشين على الطريق الملتوي الصاعد في صمت. تكلمت إلسا فقط عندما لاحت قمة المنزل.

- أما زالت ابنتك ترى أشياء؟

- تقول طبيبتها إن خيالها خصب نشط.

- ليت هذا حقيقي.

نظرت إلى إلسا مدهوشًا وسألتها:

- هل تعتقدين أن ماجي تكذب؟

- على العكس، أعتقد أنها ترى ما لا يمكن لأغلبنا رؤيته.

أشباح.

هذا ما تتحدث إلسا عنه. ماجي ترى أشباحًا. أعرف هذا، لكن ما لا أعرف -وما فشلت

في معرفته من مارتا كارفر- هو مدى خطورة الوضع. بوصولنا إلى المنزل أدركت أنني تحدثت إلى الشخص الخطأ، كان الأفضل أن ألجأ إلى إلسا ديمتر منذ البداية.

- هل تعتقدين أن ابنتي في خطر؟

أومأت إلسا إيماءة واجمة نحو بانيبري هول وقالت:

- في هذا المنزل، كل البنات في خطر.

فكَّرت في المقالات والأخبار التي قرأتها في المكتبة، فسألتها:

- إذًا أنتِ تعرفين تاريخه؟

- أعرفه. عملت أمي هنا. كذلك أمها. المآسي التي وقعت هنا مألوفة لدينا وعاصرناها.

- ماذا أفعل؟

- هل تريد رأيي الأمين؟

- نعم.

- لو أنني مكانك لرحلت ما إن تغدو قادرًا على ذلك. حتى يحين الوقت، راقب ابنتك جيدا. واحترس قدر الإمكان.

بدلًا عن الدخول إلى المنزل، اقترحت إلسا أن تلعب مع ماجي في الباحة الخلفية. بعد ما سمعت توًا، رأيت أنها فكرة سديدة. جزء مني يرغب في منع ماجي عن دخول المنزل مرة أخرى، وأنا

أعرف أن هذا مستحيل.

بينما تلعبان، صعدت إلى الطابق الثالث وجلست إلى المكتب، أرتب المقالات التي نسختها في المكتبة. ليست كلها عن إنديجو وكيتي، بل لدي أخبار أخرى. عن كل الفواجع التي وقعت في المنزل ولم يعبأ أحد لإخبارنا بها.

وقع حادث عام 1926 عندما حادت سيارة تنزل التل عن طريقها وانجرفت نحو الغابة. ادعى السائق أن ضبابًا أبيض ظهر أمام السيارة بغتة، فأجبر على الانحراف لتفاديه. ارتطمت السيارة بشجرة وماتت المرافقة، حفيدة ويليام جارسن ذات الأربعة عشر عامًا، أما السائق فهو أبوها.

مَن غرق في المغطس عام 1941 ابنة المنتج السينمائي الذي اشترى المكان من آل جارسن.

كانت في الرابعة، وأصغر بكثير من أن تُترَك في المغطس وحدها.

- لذا كان أبوها معها.

أخبر أبوها الشرطة أنه فقد الوعي فجأة بلا سبب، ثم أفاق على منظر جسد ابنته الخالي من الحياة يطفو على سطح ماء المغطس. لم توجه إليه الشرطة اتهامات لعدم كفاية الأدلة.

ثم تلا ذلكِ ميتتان في عامين بعدما أصبح بانبيري هول نزل مبيتٍ وإفطار. نزيلة في الخامسة عشر تسلقت نافذة من نوافذ الطابق الثاني وقفزت

إلى حتفها، وواحدة أخرى في الثالثة عُثِر عليها ميتة في فراشها ضحية اعتلال قلبي غير محدد.

كلتا الفتاتين أقامت هنا مع والديهما.

ميتة عام 1974 كانت حادثًا مزعومًا آخر. الضحية ابنة وحيدة للعائلة التي اشترت المنزل بعد انتهاء فترة تحويله إلى نُزل. سقطت من فوق الدرج الرئيس.

وكانت في سن الخامسة.

في سن ماجي نفسها.

كان الشاهد الوحيد أبوها الذي لم يقدم سببًا وجيهًا لسقوط ابنته التي صعدت وهبطت الدرج مئات المرات من قبل.

لو أضفنا إليهم إنديجو جارسن وكيتي كارڤر، فسنحصي سبع ميتات وقعت داخل أو قرب بانبيري هول.

كلهن فتيات.

كلهن في سن أقل من السادسة عشر.

كلهن متن في حضور آبائهن.

شيء دخل الغرفة توًا. شعرت به وأعجز عن وصفه.

- هل هذا كُرتس كارڤر؟

صمت.

- لو أنه أنت، فأعطني إشارة.

انضغط زر تشغيل جهاز الموسيقى أمامي. رأيت هذا يحدث نصب عيني. كان الجهاز ساكنًا، وفي لحظة بدأ قرصه في الدوران والأسطوانة فوقه. الأكثر إثارة للدهشة حركة ذراع الجهاز من تلقاء نفسها كأن يدًا غير مرئية دفعتها، فنزلت الإبرة في مكانها المعتاد وصدحت الموسيقى.

«أنتِ في السادسة عشر، تعبرين إلى السابعة عشر..»

أمسح الحجرة بحثًا عن أي أثر لكُرتس كارفر. لو أن ماجي تراه، يمكن أن أراه أنا.

لكني لا أرى شيئًا.

لكن كُرتس هنا بعد. ومُشغِّل الأسطوانات يؤكد هذا.

أسأله:

- هل قتلت ابنتك؟

وتستمر الموسيقى..

«يا صغيرتي، حان وقت التفكير..»

أعتبر أن هذه إجابة بالنفي، ربما لأنني بدأت أصدق أنه بريء. قبل كل شيء، هو لم يكن موجودًا في أثناء كل هذه الحوادث القاتلة. لكن ويليام جارسن كان موجودًا. في بانيبري هول منذ البداية، حتى لو على هيئة شبح طوال الوقت.

- هل ويليام جارسن من فعلها؟

بدأ الجهاز يعيد عبارة واحدة ويكررها..

«الأفضل أن تحذري..»

«الأفضل أن تحذري..»

«الأفضل أن تحذري..»

رسالة كُرتس واضحة. ويليام جارسن يدفع الآباء لقتل بناتهن كما فعل. ما لم أجد طريقة لإيقافه، ستكون ماجي التالية.

العشرون

لا يبدو لي أن هانا ديمتر فوجئت عندما رأتني أطرق باب كوخ أمها. تبدو متعجلة أكثر من أي شيء آخر، تسدد إلي نظرة بمعنى: ما الذي أخّرك إلى هذا الحد؟

أقول لها:

- كم مرة دخلتِ بانبيري هول منذ وصلتُ؟ ومنذ متى وأنت تسرقين منا؟

- أنا لا أسرق ما دام لا يريد شخص هذه الأغراض.

- كون المنزل خالياً لا يعني أن ما فيه لكِ لتأخذيه.

تهز هانا كتفيها بمعنى أننا اتفقنا على ألا نتفق، وتقول:

- يمكنني أن أعيد لك ما لم يُبع. لكن أغلب ما أخذت من المنزل بيع منذ زمن. وحظ سعيد لك في محاولة استعادته.

تتراجع عن الباب المفتوح لتمنحني فرصة الاختيار ما بين الدخول أو الوقوف بالخارج. واضح أنها لا تهتم. أتبعها عبر حجرة المعيشة التي يعرض التلفاز بها برنامج طبخ هذه المرة، وندخل المطبخ.

- أنتِ لم تجيبي عن سؤالي. منذ متى؟

تجلس هانا إلى طاولة المطبخ وتمسك علبة سجائرها بجيبة:

- عامين تقريبًا، منذ مرضت أمي.

هذا يجيب سؤالي الثاني عن السبب، فهمت. مرضت إلسا ديمتر واحتاجت إلى المال، بينما بانبيري هول خاوٍ، كنز على هيئة منزل يقبع فوق قمة التل.

- وكم مرة تسللت منذ جئت أنا؟

أعرف أنها هي المتسلل الغامض وليس غولًا عشوائيًا من البلدة، هي الظل الذي رأيته يوم وصولي، والظل الذي فر من المنزل في الليلة التالية، هي من دق الأجراس وأضاء الثريا وشغل جهاز الموسيقى، هي هانا ديمتر.

تُشعل سيجارة، يخرج الدخان من بين شفتيها المنفرجتين.

- كثيرًا، حتى أنني تعجبت كيف لم تمسكي بِي متلبسة.

- لماذا قد تفعلين ذلك؟ أنا لا أهتم لأغلب ما في المنزل، إن كنت تريدينها فما عليكِ سوى طلبها مني، ما كان عليكِ إلهائي بالأجراس والموسيقى.

- ليس إلهاءً، بل محاولات لدفعك للرحيل، المنزل منجم ذهب، ولا أريد المخاطرة بخسارته.

- إذًا كل هذا كان مُجرد حيلة طفولية كحيل سكوبي دو لتخيفني فأرحل؟

تزفر هانا مزيدًا من الدخان وتقول مسرورة بنفسها:

- قلتُ لماذا لا أجرب، ولم يكن أحد ليعرف لولا تدخلك الطفولي.

- لهذا أخبرتني أن ما كتب أبي عن ليلة المبيت صحيح.

- بعضه كان صحيحًا. أنتِ ظننت ليلتها أن هناك من يخرج من الخزانة وفزعتِ. لكنّني، لكني أعترف أنني كنت طفلة لعينة سخيفة تلك الليلة وعلى الأرجح أستحق ذلك. لذا، نعم، اختلق أبوكِ كل ما عدا ذلك، لكن النتيجة ظلت واحدة ورحلنا مبكرًا، وغضبت أمنا حتى أنها منعتنا عن دخول منزلكم مرة أخرى.

- لم تكوني في حاجة إلى الكذب ولا تمثيل هراء المنزل المسكون هذا. تشغيل الموسيقى وإخفاء الدب المحشو.

تنفض هانا سيجارتها وتسأل:

- أي دب؟

- أنت تعرفين. الدب باستر.

- أنا لم أرَ باستر منذ اختفاء بِترا.

أحدق إليها بحثًا عن علامة تخبرني أنها تكذب، لكن وجه هانا الآن قناع يخفي كل التفاصيل. أقول:

- الأفضل أن تعطيني مفاتيح البوابة والمنزل نفسه.

- لو أنك مُصِرّة.

تغادر المطبخ ثم تختفي بالأعلى، صوت خطواتها ثقيل على الدرج. بعد لحظات أرى ظلًا يعبر حائط المطبخ وينكسر على الطاولة المصنوعة من خشب الفورميكا. أستدير فأرى إلسا ديمتر عند الباب، ترتدي الملابس المنزلية ذاتها التي رأيتها عليها ليلة عدت إلى بانيري هول. الصليب على صدرها يلمع تحت ضوء مصباح المطبخ.

تقول وهي تترنح نحوي:

- أنتِ لست بِترا.

- لست هي. أنا ماجي هولت.

- ماجي.

تمسك إلسا خديّ وهي تحدق إلى وجهي وتضيف:

- لا تمكثي في هذا المنزل. ستموتين هناك.

تدخل هانا المطبخ ممسكة بسلسلة مفاتيح. تشحب حين ترى أمها. تقول وهي تجذبها بعيدًا عني:

- ماما، يجب أن ترتاحي.

- أريد أن أرى بِترا.

- أخبرتك أن بِترا رحلت.

تقول بصوت ممتلئ بالحزن:

- إلى أين؟ إلى أين ذهبت؟

تنظر هانا نحوي وتقول:

- لنتحدث عن هذا غدًا.

لن أحكم عليها كونها لم تخبر أمها الحقيقة. لن أجرؤ، أعرف جيدًا كيف يمكن أن تؤلم الحقيقة.

- والآن، لنعد إلى الفراش.

تترك المرأتان المطبخ. بعد دقائق تعود هانا وترتمي على المقعد. لا يسعني سوى الإشفاق عليها. هي لصة. كاذبة. لكن حياتها أقسى كثيرًا من حياتي. عادة ما أنسى أن حياتنا في بانبيري هول جعلتنا أثرياء، على الرغم من كل ما حدث لنا.

تدفع هانا المفاتيح نحوي، فأدفعها نحوها وأقول:

- اسمعي. لا أخطط للاحتفاظ بأغلب ما في المنزل. لو أردتِ تعالي الأسبوع القادم وخذي ما تريدين بيعه. توجد أطنان من المقتنيات الفريدة هنا، قد تباع بثروة.

- كلها ملكك.

- ليس بالضبط. حصلنا على أغلبها بشراء المنزل، وهي غير مملوكة لأي شخص. اعتبريها ملككِ أنتِ.

تأخذ هانا المفاتيح فتضعها في جيبها، وتقول بإيماءة شكر:

- سأفكر. لكن لعلمك، لم أستخدم هذه المفاتيح

للتسلل إلى الداخل منذ عودتك.

أميل رأسي تعجباً وأسألها:

- ماذا تقولين؟

- للمنزل مداخل أخرى.

- أين؟

تكاد هانا أن تشغل سيجارة أخرى لكنها تراجع، وتحدق إلى كفيها وهي تقول بهدوء:

- كنت أدخل من الباب خلف المنزل.

- هل لبانيبري هول باب خلفي؟

- باب مخفيّ. عرّفتني أمي به منذ سنوات.

مرة أخرى أبحث في وجهها عن أمارات كذب، ولا أرى أيها. تبدو هانا ديمتر في هذه اللحظة في أصدق حالاتها.

- أخبريني عن مكانه من فضلك.

- خلف شجرة اللبلاب وراء المنزل.

13 يوليو

اليوم الثامن عشر

استيقظت ذاك الصباح على ضربات موجهة إلى وجهي وصدري. كنت في المنطقة الرمادية ما بين النوم واليقظة. في البداية ظننته شبح ويليام جارسن يكيل لي الضربات بعصاه، لكن بعدما فتحت عيني رأيت وجه جيس إذ تهزني وتلكمني وهي تصرخ:

- ماذا فعلت؟! ماذا فعلت بحق الجحيم؟

كانت جالسة فوقي بوجه محمر من الغضب. حاولت إبعادها، لكنها لم تسقط عني جانبًا إلا بعدما لطمتني لطمة أقرب للكمة. فكي ينبض بالألم وأنا أعتليها بدوري لأسيطر على لكماتها وركلاتها المفعمة بالحنق.

- ماذا بكِ؟!

- أنا؟ ماذا بك أنت؟

غلبها الغضب واليأس والإرهاق فاستسلمت. فطر قلبي شعوري بجسدها تحتي يسكن ويغوص في الفراش وهي تئن. كنت لأفضِل ألف لكمة على هذا.

- كيف فعلتها يا إيوان؟ كيف تؤذي ماجي؟

ذِكر ابنتنا أصابني بهلع تام. قفزت عن الفراش وهرعت إلى حجرة ماجي مفكرًا في كيتي كارفر

واندیجو جارسن وكل تلك الفتيات المتوفيات بين هذه الجدران.

وصلت إلى حجرتها، فرأيتها متربعة على فراشها. الراحة التي شعرت بها وقتها كانت أقوى من أي شعور آخر انتابني من قبل. ابنتي سالمة، ولم يؤذها ويليام جارسن.

لكن حين رأيت عنقها عاد الهلع.

رقبتها محاطة بعلامات حمراء كأنها موسومة على جلدها. علاماتٍ تشبه آثار الأصابع. يمكنني رؤية كفين بيضويين وصفوف حمراء من أثر ضغط الأنامل.

نظرت إليّ ماجي من فراشها مذعورة وبدأت تنتحب.

اتجهت إليها لكن باغتتني دفقة هواء قوية من خلفي، جيس تندفع في غضب من ورائي ثم تدفعني إلى الأرض وهي تصرخ:

- لا تجرؤ على لمسها!

تكورت على نفسي على الأرض لأقي بطني في حال أرادت جيس ركلي. بدت غاضبة كفطيمة حتى توقعت منها أي شيء. سألتها:

- ماذا حدث لها؟

نظرت إليّ من أعلى نظرة كراهية عاتية. لا يمكن تفسيرها على نحو آخر. في هذه اللحظة كانت زوجتي تبغضني.

- أيقظني صوت بكاء ماجي. ذهبت إليها فوجدتها تشهق، ووجهها بنفسجي يا أيوان. ثم رأيت هذه العلامات على عنقها.

- تعرفين أنني لم أكن لأضرها يا جيس. يجب أن تصدقيني.

- أنا أصدق ألم ابنتنا، وبما أنني لم أفعلها، فلا يتبقَ سواك.

انتحبت ماجي أكثر، صوتها مرتفع حتى أنني تساءلت إن كانت جيس سمعتني وأنا أهتف:

- لست أنا!

لكنها سمعتني، واحتاجت إلى ثوان حتى تصيح:

- بل أنت بالطبع!

- فكري في الأمر يا جيس. كنت نائمًا وأنتِ من أيقظتني.

- لم تكن نائمًا. أنت فقط تسللت عائدًا إلى الفراش قبل ثوانٍ من سماعي بكاء ماجي.

انصبَّ عليَّ الهلع كموجة هائلة. جلست على الأرض ورأسي بين كفي، أشعر بالذعر والذنب. يمكن أن أؤذي ابنتي ولا أعي ذلك.

- لست أنا يا جيس، صدقيني.

- لقد رأيتك يا إيوان وأنت تعود إلى الفراش.

قلت وأنا أعرف كم أبدو مجنونًا:

- ربما كنت أنا، لكني لم أتعمَّد. دفعني ويليام

جارسن لفعل هذا.

لقد جاء لماجي كما فعل مع الأخريات. لكلٍ طريقة قتل مختلفة. التوت السام لابنته. الخنق بالوسادة لكيتي كارفر. حوادث السقوط والغرق والتصادم. كل ميتة منها تسبب فيها الأب الذي لم يكن له سيطرة على أفعاله.

- لقد كان يقتل الناس عبر تاريخ هذا المنزل. كل ضحاياه فتيات. كلهن تحت سن السادسة عشر. لقد قتل ابنتيه يا جيس، ويعرف كيف يرغم الآباء على قتل بناتهم. ظل يفعل هذا لأعوام.

نظرت إليّ جيس كأنني غريب لا تعرفه. لا ألومها. أنا نفسي لم أتعرّفني في تلك اللحظة.

- إستمع إلى نفسك يا إيوان وأنت تتفوه بهذه الترهّات لتبرر ما فعلت. أنت محظوظ لأني لم أبلغ الشرطة.

- أبلغيهم.

هذه هي الطريقة المُثلى للتعامل مع الوضع. حبسي بعيدًا حيث لا أستطيع الوصول إلى ماجي ولا يستطيع ويليام جارسن الوصول إليّ.

- رجاء، اتصلي بهم.

قالت جيس وهي تحمل ماجي وتخرج بها من الغرفة:

- أنت مريض يا إيوان.

تبعتهم عبر الممر إلى غرفة نومنا، شعرت بالخدر يستولي على جسدي مع كل خطوة. لا أصدق أن أعق مخاوفي على وشك الوقوع، وكدت أفقد عائلتي.

- لم أقصد.

صفقت چيس باب غرفة النوم في وجهي. أدرتُ المقبض فوجدت الباب مقفلًا، فطرقت عليه بقوة وأنا أهتف:

- رجاء يا چيس! صدقيني! يجب أن تصدقيني!

كل ما سمعت من الجهة الأخرى من الباب صوت الأدراج تفتح وتغلق. بعد عشر دقائق خرجت چيس بعد أن حزمت حقيبة سفر، جرتها خلفها بينما تحمل ماجي وتتجه بها إلى غرفتها لتُكرر العملية.

تصفع الباب.

توصِده.

تحزم الأمتعة.

ذرعت الممر أمام الغرفة مفكرًا فيما قد أفعل. ضربتني الإجابة وچيس تخرج مع حقيبة أصغر.

لا شيء... لن أفعل شيئًا.

اتركهما لتغادرا. سأدع چيس تبعد ماجي إلى أبعد نقطة عن بانبيري هول. لا يهم إن كانت غاضبة مني أو أن غضبها يستمر لفترة طويلة.. ربما

للأبد. ما يهم الآن أن ماجي لن تمكث بين هذه الجدران.

تبعتهما نزولًا وأنا أقول:

- فقط أخبريني إلى أين ستذهبين؟

قالت بحِدة لم أظنها قادرة عليها:

- لا!

لحقت بهما عند نهاية الدَّرج، ثم قطعت الطريق أمام جيس أمنع فرارها موقتا. وقفت أمامها آملا أن تكون قادرة على تبين حقيقتي. آملًا أن يكون شيئًا من الرجل الذي كنته باقيا بعد.

- انظري إليَّ يا جيس. أنتِ متأكدة أنني لن أؤذي ابنتي عامدا.

تركت ماجي ووجهها يتداعى بعدما حافظت على صلابته لأجل ماجي قدر المستطاع وقالت:

- أنا لم أعد متأكدة من أي شيء على الإطلاق.

- بل تعرفين أنني أحبك. وأحب ماجي، وسأصلح كل شيء في أثناء غيابكما. أعدك. لن يؤذي المنزل ماجي مرة أخرى.

نظرت جيس إلى عينيّ، وآلاف المشاعر تتصارع على وجهها. لمحت في عينيها الحزن والخوف والحيرة وهي تقول:

- ليس البيت ما أخشى عليها منه.

دارت حولي مُثقلة بحمل ابنتنا وبالحقيبتين. أنزلَت حملها أمام الباب لتفتحه، ثم حملت كلًا منهما حقيبتها، وغادرتا معًا بانبِري هول وهما بعد بملابس نومهما.

راقبت رحيلهما وأنا واقف في المدخل، لا أرمش بينما السيارة تبتعد. زوجتي وابنتي هجرتاني ولا أعرف أين ذهبتا، ولا أعرف متى العودة. على ذلك، لم أشعر سوى بالراحة لرحيلهما. أهم شيء أن تظل ماجي بعيدة عن بانبِري هول.

المكان ليس آمنًا. ليس آمنًا لها.

ولن يصير آمنًا أبدًا في وجود شبح ويليام جارسن.

أعرف أن عليّ التخلص منه، لكني لا أعرف كيف. الحقيقة أن هناك شخصًا واحدًا يملك النصيحة، وليس ضمن الأحياء.

دون حلول أخرى، عدت إلى المطبخ وجلست في مواجهة الأجراس.

وانتظرت.

الحادي والعشرون

في مسار عملي قابلت كثيرًا من منسقي الحدائق. بعضهم فنانون حقيقيون، يصوغون الأماكن المفتوحة المعقدة بتفاصيل الألوانِ والملامس والأشكال. وبعضهم محض عمّال، مدربين فقط على اقتلاع الحشائش الضارة، وتقليب التربة. لكن كلهم اتفقوا على أمرٍ واحد: ازرعي اللبلاب على مسؤوليتك. لو لم ينتبه له سيتمدد ويتسلق ويستوحش أكثر من أي نبات متسلق آخر.

وقد فعل اللبلاب خلف بانبيري هول كل ما حذروا منه. صار سميكًا كالأدغال، وتسلق على ظهر المنزل في مساحة يانعة امتدت إلى ما فوق نوافذ الطابقِ الثاني. لو أن بابًا بالخلف، فاللبلاب قد أخفاه تمامًا.

في البداية أحاول إبعاد بعض أغصانه على أمل أن يسقط عن الحائط، لكن الأمر ليس بهذه السهولة. أدرك فشل المحاولة، فأدس ذراعي بين سُمكه وأتحسس ما خلفه، فلا أشعر بشيء سوى الجدار الخارجي.

ثم أشعر به.

الخشب.

أبعد الأغصان أكثر حتى يتجلى أمامي الشكل المستطيل. الباب قصير وضيق أقرب إلى لوح خشبي يسد المدخل بلا مقبض. فقط رتاج

صدئ.

أفتح الرتاج ثم أجذب حتى تتسع لي فجوة كافية للدخول. ثم آخذ شهيقًا عميقًا كغواص على وشك الغطس، وأخترق ستار اللبلاب.

بصعوبة أرى بالداخل. لا أجد مصباح سقف، واللبلابُ بالخارج يستر ضوء القمر. لحظِّي، توقعت هذا وتجهزت بمصباح يدوي.

أنرته، فقابلني جدار حجري رطب، تزحف عليه دودة ألفيَّة هاربة من الضوء. إلى يساري باقي الجدار، وإلى يميني ظلام دامس يمتد إلى ما بعد حدود ضوء المصباح اليدوي. أتحرك عبره، وسرعان ما أصل إلى درجات خشبية.

يهولني المنظر.

كيف لم أعرف بوجود هذا المكان؟

يُراودني تساؤل إن كان عرف والداي بوجوده. غالبًا لم يعرفا. لو كان أبي على علم بوجود سلم سري كهذا لذكره في كتابه. الأمر أكثر قوطية مما يستطيع مقاومته.

أصعد الدَّرج ببطء، درجة في كل مرة. لا أعرف إلام سيفضي. المصباح اليدوي في يدي يهتز جراء ارتجافي توترًا، فيرمي ضوءًا مجنونًا على الدرجات والحوائط.

بعد قرابة اثني عشرة درجة، أصل إلى مُنبَسَط يليق بأفلام رعب شركة «هامر». منبسط صغير

يطلق صريرًا تحت قدميّ، ذو سقف من شِباك العنكبوت. أتوقف هناك حائرة، لا أعرِف كم صعدت ولا موضعي من المنزل.

تتضح الرؤية أكثر بعد صعودي اثنتي عشرة درجة أخرى. أصل إلى منبسط عند مستوى الطابق الثاني، وأرى بابًا مماثلًا لذلك المخفي خلف اللبلاب. باب أملس بلا معالم إلا رتاج يغلقه.

أفتح الرتاج.

أجذب الباب.

خلفه أرى خزانة من نوعٍ ما.

ينير المصباح اليدوي عددًا من الفساتين البيضاء الصغيرة المعلقة بداخله، وخلفها خيط ضوء.

مزيد من الأبواب.

أمر من بين الفساتين وأدفع مصراعي الباب فأجد خلفهما غرفة.

غرفتي.

أدور في الحجرة فأرى فراشي وحقيبتي والسكين فوق المنضدة الجانبية.

ثم أرى الخزانة العتيقة.

البوابة التي دخلت منها الآن.

تغشاني الصدمة. أحدق إلى الخزانة، لا أفهم ما هو واضح أمامي.

يوجد طريق مباشر من الخارج إلى داخل

حجرتي.

لذا شعر أبي أن غلق بابي الخزانة بالمسامير ضروري. هكذا دخلت هانا ديمتر إلى المنزل دون أن ألحظها، ودون فتح الأبواب والنوافذ.

هكذا قد يدخل أي شخص على معرفة بهذا المدخل.

تغشاني موجة صدمة أخرى، فأتمايل على وشك فقدان الوعي.

مدخل بانبري هذا ليس جديدًا، هو هنا منذ عقود، ربما منذ بني.

أحدهم اعتاد دخول هذه الحجرة بينما كنا نعيش هنا.

بينما كنت أنام هنا.

لم يكن السيد ظِل من تسلل إلى غرفتي ليلًا وهمس لي.

بل شخص آخر.

شخص حقيقي.

14 يوليو

اليوم التاسع عشر

لم يدق أول جرس قبل الثانية مساءً.

أيقظني جَرْسه من شرودي الذي أغوص فيه وأطفو منه منذ اليوم السابق. قلّما تحركت خلال هذا الوقت، ولم آكل، وبالطبع لم أستحِم. لم أغادر موضعي إلا لقضاء الحاجة. بحلول منتصف الظهيرة توقفت حتى عن هذا خشية أن أفوِّت جرسا مهما. يوجد الآن زجاجتي بول عند ركن المطبخ.

أفهم -على قدر ما يفهم مَن هم في حالتي من الإرهاق- أنني على الأرجح أجن. هذه ليست أفعال رجل عاقل. لكن كلما هممت بمغادرة المطبخ حدث شيء يذكرني أنني لم أفقد عقلي بعد.

بانبيري هول مَن فقد عقله.

خلال إقامتي في المطبخ ليوم كامل ضجَّ المنزل بالأصوات. أصوات لا تصدر عن البيوت العادية في الظروف الطبيعية. أصوات اعتدت سماعها.

الموسيقى تتهادى من الطابق الثالث، تهب عبر الغرف الخالية بالأعلى.

«أنت في السادسة عشر...»

صوت نقرات عصا ويليام جارسن وهو يسعى في ممر الطابق الثاني.

طرقة.. طرقة.. طرقة.

وفي الساعة 4:54 صباحًا، سمعت صوت الارتطام العنيف في المكتب يهز البيت.

أعرف الآن أن هذا هو صوت جسد كُرِس كارفر يضرب الأرض بعدما غادرته الحياة. تصرف حكَمِ عليه بتكراره كل يوم طالما انتصب بانبيري هولَ في مكانه.

لم يلفت أي صوت انتباهي أكثر من دقة الجرس في الثانية مساء، فهي -قبل كل شيء- ما كنت أنتظر. أقول:

- مرحبًا؟

يدق الجرس نفسه مرة أخرى. جرس غرفة إنديجو.

ثم تدق الأجراس الأخرى متتالية أربع مرات، في نسق مميز للرسائل التي فككت شِفرتها من قبل. تقول الأجراس: «مرحبًا»

ثم تدق مرة أخرى بترتيب مختلف، لتكوِّن كلمة: «إيوان».

- مرحبًا كُرِس.

أضحك ضحكة مبتورة، ثمة شبح يناديني باسمي الأول. أردِف:

- كنت أنتظرك.

الجرس الأول.

أ

تتابع الأجراس.

«أعرف»

- إذًا أنت تعرف أيضًا أنني أحتاج إلى مساعدتك.

رنّ الجرس الأخير في الصف الثاني، بداية رنين إجابة أعرفها تمام المعرفة.

«نعم»

- ساعدني إذًا يا كُرتس. ساعدني كي أوقف ويليام جارسن.

يرن جرس.

ل

ثم الآخر.

ا

انتظرت مزيدًا من الدقات وأنا متحفز على مقعدي. بعد عشر ثوان فهمت أنه قال ما يريد.

- لِمَ لا؟

«لا»

- لكنه قتل ابنتك.

ولم أحصل إلا على الإجابة نفسها.

«لا»

- لم يقتلها؟

رنة، اثنتان.

«لا»

- إذًا مَن قتلها؟

دقت أربعة أجراس متتالية معلنة كلمة: «انظر.»

أهتف حانقًا:

- إلامَ أنظر؟ ما الذي يفترض أن أنظر إليه؟

مرت هنيهة حدقت فيها مشدوهًا إلى الحائط منتظرًا الإجابة التي جاءتني على شكل دقات متتالية تكررت فيها حركة جرس مرتين.

«اللوحة»

- لوحة ويليام جارسن؟

«لا»

كدت أرد عليه، لكن الأجراس انطلقت تدوي مُعلنة كلمة أطول، احتجت إلى دقائق لفهمها.

«لوحتها»

هرعت أصعد درجات المطبخ، عبرت الغرفة الكبرى، وحين وصلت إلى السلم الرئيس رأيت الثُريا مضاءة، حتى وأنا متأكد أنها كانت مطفأة آخر مرة مررت فيها من تحتها.

انطلقت إلى غرفة إنديجو ولم أتوقف إلا أمام المدفأة، أنظر إلى اللوحة التي أشار إليها كُرتس.

إنديجو جارسن.

حدقت إلى اللوحة متسائلًا عما أبحث عنه. لا شيء فيها يلفت النظر. مجرد لوحة لشابة رسمها رجل هام بها حبًا.

لا شيء غريب فيها.

ثم يجذب انتباهي الأرنب الأبيض الذي تحمله إنديجو بين يديها. لاحظت سابقًا الجزء المُقشَّر من عين الحيوان اليسرى، واعتبرته عيب اللوحة الوحيد. لكن هذا العيب يجذب العين عن ملاحظة أن الأرنب نفسه مرسوم بأسلوب مختلف عن بقية اللوحة متقنة التفاصيل، كأنه من رسم فنان آخر.

اقتربت أكثر، أفحص فراء الأرنب الذي يفتقر إلى تفاصيل رسم شعر إنديجو اللامع الذي كأنما قد رسِم شعره. ألوان الأرنب أكثر سمكًا أيضًا. ترتفع قليلًا عما حولها. عندما ركَّزت على عين الأرنب المفقودة اكتشفت طبقة أخرى من الرسم خلفها.

أحدهم رسم فوق اللوحة الأصلية.

استخدمت ظفر إبهامي لحك طبقة الطلاء حول عين الأرنب. تفتت الألوان وسقطت على رف المدفأة. كلما حككت أكثر، انكشف مزيد من ألوان اللوحة الأصلية. الرمادي والأحمر والبني.

حككت أكثر حتى انحشر الطلاء تحت ظفري، فتألمت كأنما إبرة انغرست في إصبعي. أحضرت

سكيناً من دُرج أدوات الطعام في المطبخ، وأكملت مهمتي ببطء، وباستمرار محاذراً أن أخدش الرسم الأصلي الذي راح يظهر تدريجياً كصورة فورية التحميض.

لم أكن قد أزلت الأرنب بالكامل عندما انتابني الدوار وترنحت إلى الخلف والحجرة تدور من حولي. كل شيء تحول إلى اللون الرمادي، ثم أدركت أنني أسقط. تمددت على الأرض ومكثت هناك على ظهري، والرمادي يزحف على مجال إبصاري محيلاً إياه إلى الأسود.

قبل أن أفقد وعيي، نظرت نظرة متفحصة إلى اللوحة الأصلية التي انكشفت بالكامل.

إنديجو جارسن في طلتها الملائكية المعتادة، بشرتها بلورية، وشعرها ذهبي ذو خصلات ملفوفة. لكنها لم تعد تحمل الأرنب بين يديها المقفزتين.

- بل ثعباناً.

الثاني والعشرون

- أحتاج إليك.

لا يصل إليّ سوى الصمت من طرف دين، علامة عدم التأكد حتى عبر الهاتف. لا ألومه. ليس بعد ما قلته. أتفهَّم إن كان لا يريد ما يربطه بي.

ربما ينال أمنيته بعد الليلة.

يقول بعد برهة:

- في أي شيء؟

- تحريك خزانة.

لا أخبره أن الخزانة لن تُحرَّك، بل ستُفكَّك كليةً. وأن هذه الفجوة التي ستظهر خلفها لا بد أن تغلق، وأن بابًا خلف المنزل يجب أن يوصد تمامًا كي لا يتمكن أحد من دخول بانبيري هول دون مفاتيح. يمكن أن ينتظر كل هذا حتى يأتي، وإلا ربما يغلق الخط.

يسألني:

- ألا يمكن أن ينتظر هذا إلى الغد؟

- لا يمكن. أنا أحتاج إلى مساعدتك. رجاءً. لا يمكنني فعل ذلك بمفردي.

يقول بزفرة عظيمة:

- حسنًا. سأكون عندك خلال عشر دقائق.

- شكرًا لك.

لم يسمع دين عبارتي الأخيرة. أنهى الاتصال.

أدس هاتفي المحمول في جيبي، وأتجهّز للمهمة القادمة. الخطة بسيطة، غلق المدخل السري إلى غرفة النوم، جمع أغراضي، مغادرة بانبيري هول.

بلا عودة هذه المرة.

بمجرد أن أعود إلى بوسطن، سأدرج المنزل في قوائم البيع، وأتخلص منه بأي ثمن مهما كان ضئيلًا. لا أريد أي صلة لي بهذا المكان، ولا أريد الحقيقة وراء ما حدث.

أنا فقط أريد الرحيل.

المكان ليس آمنًا. لن أكون آمنة فيه.

في حجرة الطعام، أجمع الصور الخمس من فوق المنضدة، ونسخة كتاب أبي المُلقاة بعد على الأرض. سأعيدهم إلى حيث وجدتهم ليصيروا مشكلة شخص آخر.

أحملهم وأصعد إلى الطابق الثالث، وأتجه إلى المكتب حيث أضع فوقه الكتاب والصور، ثم أتناول باستر وألقه داخل الخزانة حيث عثرت عليه أول مرة.

مثله كمثل بانبيري هول، لا أريد رؤيته مرة أخرى.

أعود إلى المكتب، فأجد الكتاب مفتوحًا حيث

تركته مغلقًا. أنا واثقة بذلك، لكنه مفتوح كأن أحدًا كان يقرأ منه.

أقترب من الكتاب ببطء، مُفكِّرة في كل طُرُق فتحه دون المساس به، ومن تلقاء نفسه. لا أجد أيها. على الأقل لا يوجد سببٍ لا يتضمن ذكر الخوارق كما كانت تقول عنها جدّة دين.

أفكِّر في أن هذا محض هُراء.

ثم أقول الكلمة بصوت عال، متمنية أن يجعلها نطقها حقيقة.

- هراء!

لكن لا يتغير شيء. أعرف هذا حين أرى الصفحة المفتوحة من الكتاب. الفصل الذي تجري أحداثه في يوم الرابع من يوليو. يوم رُقِّع سقف المطبخ. أنظر إلى الصفحة فتجذب نظري فقرة واحدة.

والآن جاء وقت إصلاح الرقعة الماثلة في السقف. جلبت هيبتس لإصلاحها، فاستأجر هو صبي من البلدة لمساعدته لأن الأمر أكبر من قدرته منفردا.

يدق قلبي أسرع وأنا أقرؤها مرة أخرى، سامحة لثقل الكلمات بالغوص في عقلي.

صبي من البلدة.

صبي كان في المنزل في وقت وجود بِترا فيه.

صبي يعرفها غالبًا.

صبي ربما كان حبيبها.

صبي ربما أقنعها بالتسلل عبر نافذة غرفة نومها، وربما اقترح عليها الهرب معه، ثم صار عنيفًا معها عندما تراجعت بِترا عن الهرب.

صبي اقتحم بانبيري هول وقتها وخبأ جثتها تحت ألواح الأرضية لأنه كان يعرف بوجود هذا المخبأ.

صبي أدرك أنه قد ظهر في الصورة التي التقطها أبي.

أجذب الصورة من فوق المكتب. في المرة الأولى التي رأيتها فيها، ظننت أن من يقف خلف هيبتس وسلمه هو أبي، لكن أبي هو من كان خلف الكاميرا، وكان لا بد أن أدرك هذه الحقيقة الواضحة من البداية، وأن هناك شخصًا غيره جوار هيبتس.

لا أرى كثيرًا من التفاصيل حتى مع تقريب الصورة إلى وجهي وتضييق عيني. لا أرى سوى شيء من ملابسه ووجهه. الطريقة الوحيدة لرؤية التفاصيل هي عبر عدسة مُكبِّرة.

ثمة واحدة في دُرج المكتب العلوي رأيتها في أول مرة أدخل فيها المكتب. ما زالت في مكانها بين الأقلام ودبابيس الأوراق. أحملها وأضعها أمام الصورة، فيصير الشخص الغامض الآن أكبر. أرى شعرًا داكنًا، ونصف وجه وسيم،

وذراعًا قوية، وصدرًا عريضًا.

وأرى القميص الذي يرتديه.

أسود مطبوع عليه صورة مشوشة.

صورة لوجو فريق رولينج ستونز.

يعود عقلي إلى اليوم العصيب في غرفة نُزُل «توباينز»، حين دخل دين وبدا شديد الوسامة إلى حد عجزت فيه عن مقاومة التحديق إليه. عندما لاحظ هذا، أثنيتُ على القميص. أكاد أسمع صوته يتردد في ذاكرتي:

- *لدي منذ كنت مراهقًا.*

أسمع صوته الآن، يأتي من ناحية باب المكتب، حيث يقف وذراعاه إلى جانبيه، ونظرة عنيدة في عينيه.

- يمكنني تفسير كل شيء.

15 يوليو
اليوم العشرون

قبل الظلام

استفقت وأنا بعد ممدد على الأرض.

أين موقعي في المنزل، لستُ أدري.

- كل ما عرفته حين استفقت أنني في مكان ما من بانبيري هول، أفترش الأرض، مفاصلي متيبسة، ورأسي ينبض ألمًا. فتحت عينيّ على اتساعهما فرأيت لوحة إنديجو جارسن تحدق إلي من أعلى، فتذكرت كل شيء.

أنا في غرفة إنديجو.

أحك الطلاء.

أرى الثعبان بين يدي إنديجو.

الثعبان الذي كلما أطلت النظر إليه ازداد توتري. أريد أن أصدق أن جلوس إنديجو حاملة الثعبان هو أحد أوضاع التصوير المعروفة في العصر الفيكتوري والعصور التي تفشت فيها تلك التقاليع في الصور، مثل أقنعة الموت، والطيور المحنطة فوق القبعات. لكن حدسي أخبرني أنَّ معنى أكثر إرعابًا يكمن خلف هذه اللوحة.

أنَّ الثعبان كناية عن طبيعة إنديجو الحقيقية.

الضارية.

أفترض أن ويليام جارسن هو من أمر برسم الأرنب فوق الثعبان، في محاولة منه لإخفاء حقيقة ابنته. أشك أنه استطاع تحمّل الرسم فوق اللوحة وإخفائها بالكامل، لقد أبدع الرسام المسكين كالوم أوجست. لذا، استبدل الثعبان بالأرنب.

والآن، انكشف الثعبان مرّة أخرى، ومع تجليه فطنت إلى أنني أسأت فهم كثيرًا من الأمور.

ليس ويليام جارسن من يدفع الآباء لقتل بناتهن.

- بل إنديجو.

أفطن إلى هذا بوضوح. كوضوح الثعبان بين يديها، وأدرك أنها كانت تزحف إلى عقول الرجال الذين عاشوا هنا، وتجعلهم مهووسين بالبحث وراء ما حدث لها. لا أعرف إن كانت قد ماتت ميتة طبيعية، أو على يد أبيها. في النهاية، لا تهم التفاصيل. ماتت إنديجو وبقي شبحها. والآن تقضي أيامها في الثأر من أبيها، ولا يهمها إن كان قد رحل هو الآخر منذ زمن. كل أب يستحق العقاب في ظنها.

لذا دفعتهم لقتل بناتهم. ست جرائم، لن تتبعهم السابعة.

عدت إلى المطبخ متألمًا من نومي على الأرض طوال الليل. بعدما نزلت الدرج، وجدت نفسي

أمام الأجراس مرة أخرى، أهمس لها خشية أن تكون إنديجو في الجوار، تلصص:

- كُرتس، هل أنتَ هنا؟

فتدوي ثلاث دقات مألوفة.

«نعم»

- إنها إنديجو، أليست كذلك؟ هي من دفعتك لقتل كيتي.

ثلاث دقات أخرى.

«نعم»

- ماذا يُمكن أن أفعل؟ كيف أوقفها؟ كيف أعرف إن كانت هنا؟

دقت الأجراس متتالية، فأسرعت أفك شِفرتها، وأدركت أنني أمام كلمة لم تظهر من قبل خلال هذا النوع من الاتصال.

«كاميرا»

أفهم ما يريد قوله. كاميرا التصوير الفوري. أهمس له وقد أدركت أنني لن ألتقيه مرة أخرى:

- أشكرك يا كُرتس.

لقد أخبرني بكل ما أحتاج إليه، والباقي يقع على عاتقي. قبل أن أغادر جدار الأجراس، أضفت بإخلاص:

- أتمنى أن يحررك ما فعلت من قبضة هذا المكان. أتمنى حقًا أن تجد السلام.

بعدها صعدت ثلاثة طوابق ومفاصلي تئن ألمًا.
في مكتب الطابق الثالث وجدت ما أبحث عنه في الخزانة.

- صندوق الأحذية مليء بصور فورية.

أبحث داخله بين الصور التي أهملتها يوم عثرت عليه. أنظر إلى صور وجه كُرتس كارڤر الذي يتزايد كربه في كل صورة. أتساءل إن كان قد شعر بقلة الحيلة وهو يلتقطها كما أشعر الآن، وما إن كان قلقًا، متقلًا بشعور الذنب ذاته الذي يثقلني.

صور كُرتس متشابهة حتى أنني احتجت إلى مراجعة التواريخ لأعرف ترتيبها الزمني، وما إن كنت قد رأيتها من قبل. بتاريخ 12 يوليو، صورة جديدة علي. وكذلك الصور بتاريخي 13، و14 يوليو.

آخر صورة كانت مقلوبة في قاع الصندوق، التقطها ورأيت التاريخ المكتوب عليها.

- 15 يوليو.

انتقلت عيناي من التاريخ إلى الصورة نفسها. في البداية بدت لي كباقي الصور، لكن بالتدقيق اكتشفت شيئًا خطأ، خطأ كاملًا، إلى حدٍ كبير.

يوجد شخص آخر في الغرفة مع كارڤر.

في ركن الحجرة البعيد تجسد حالك.

- رغم أن ماجي تُطلق عليها السيدة وجه

القِرشَين، أعرفها أنا باسم آخر.

إنديجو جارسن.

تبدو تمامًا كالمرأة في الصورة، الفستان البنفسجي ذاته والوجه الأثيري. الفارق الوحيد بين الشبح ولوحته العينان. عينا الشبح مغطاتان بعملتين معدنيتين.

لكن يبدو أنها ترى جيدًا، إذ كانت تُحدِّق إلى رأس كُرتِس من الخلف كأنها تقرأ أفكاره.

كنت أفحص الصورة بعد عندما شعرتُ بما يدخل الحجرة. حضور غير مرئي.

- كُرتِس؟ أهذا أنت؟

ولم أتلق ردًا، لكن شعوري تزايد، وملأ وجود الكيان الغرفة بسخونة هائلة حتى كدت أختنق. داخل الحرارة المُهدِّدة شيء آخر أكثر إزعاجًا.

- الغضب.

- الذي يُضرِم النيران في الغرفة.

حملت الكاميرا والتقطت صورة لنفسي، كتلك التي التقطها كُرتِس لنفسه.

انطلق صوت الغالِق.

وأزَّت الكاميرا.

ثم انزلقت الصورة من الفتحة ببطء، وتحوَّل بياضها إلى تفاصيل.

أنا.

- بذراع ممدودة، أحدق إلى الكاميرا. ومن خلفي الغرفة.

من خلفي أيضًا إنديجو جارسن، تظهر عند حافة اللقطة. أرى ذراعها النحيلة، واستدارة كتفها، وخصلات شعرها الأشقر.

كانت هناك.

- تترصَّد.

- لكنها لا تترصَّد بي.

- بل بماجي.

هتفت بصوت عال:

- استمري في الترصُّد أيتها العاهرة.

ثم رفعت الكاميرا والتقطت صورة أخرى.

تكة الغالق.

أزيز.

انزلاق.

في الصورة أرى إنديجو وقد تحرَّكت إلى الجانب الآخر من الغرفة. التصقت بالحائط. جسدها محني قليلًا، وعيناها المغطاتان بالعملتين تحدقان إليَّ من خلف ستار شعرها. شفتاها ملتويتان في ابتسامة مرعبة جمدت دمي.

الشيء الوحيد الذي منعني عن الفرار من المنزل علمي أنها لا تنوي إيذائي. ليس بعد، على الرغم من أن هذه اللحظة قد اقتربت يقينًا. لكنها في

الوقت الحالي، تحتاج إليَّ لقتل ماجي.

مقتنعًا بأنني بعيد عن أذاها مؤقتًا، اقتربت من الخزانة وأخرجت كل أفلام التحميض، ثم حملتها إلى المكتب.

بقيت مكاني حتى تحوَّل ضوء النهار المبكر الشاحب إلى لون ضوء الظهيرة الذهبي. ظللت ألتقط الصور لأراقب تحركات إنديجو عبر الحجرة. أحيانًا أراها عند الركن القَصي تواجه الحائط، وأحيانًا لا يظهر منها في اللقطة إلّا جانب فستانها، وفي عدة صورة لم يكن لها وجود.

لكني كنت أعرف أنها في الغرفة بعد.

شعرت بالغضب المحتدِم في وجودها.

- ظل هذا الشعور مرافقًا لي حتى رحل النهار مُفسحًا المجال للشفق الأزرق. وقتها اختفت إنديجو، وبرَدت الغرفة فجأة.

التقطت الكاميرا والتقطت صورة أخرى.

تكّة الغالق.

أزيز.

انزلاق.

انتزعت الصورة من الكاميرا ورفعتها أمامي، أراقب الأشكال عليها تظهر تدريجيًا.

كانت كسابقاتها، أنا وامرأة تقف خلفي. لكن المرأة ليست إنديجو هذه المرة، بل جيس، تقف

داخل غرفة المكتب وكل عضلة في جسدها مشدودة، الحيرة تطفى على ملامحها سريعًا كالبرق.

ألتفت خلفي ببطء أملًا في أن تكون وليدة خيالي الذي حفزه الجوع والعطش والحاجة إلى النوم. إلا أن جيس تكلمت أخيرًا.

- إيوان؟ ماذا تفعل هنا بالأعلى؟

وغاص قلبي. معنى أنها حقيقية أن صبر إنديجو جنى ثماره.

ماجي عادت إلى المنزل.

الثالث والعشرون

يخطو دين خطوة إلى داخل الغرفة. فأتراجع أنا خطوة نحو حافة المكتب. يقول:

- ليس الأمر كما تحسبين.

أرفع الصورة وأقول:

- لقد كنت تعرفها.

- هذا صحيح. كنت أعيش مع جِدّي ذاك الصيف. ظن والداي أن هذا سينفعني. كنت في السابعة عشر وحياتي سيئة، ورغبت في الابتعاد عنهما فترة. لذا جئت إلى هنا.

- وقابلت بِترا. أنت السبب وراء تسللها ليلًا.

يومئ دين ويقول:

- كنّا نتلاقى في الغابة خلف المنزل ونعبث قليلًا. لم تكن علاقتنا جادة. ولم نتمادى. نزوة صيف.

يتقدم أكثر إلى الداخل بينما يتحدث، آملًا في ألا ألاحظ، لكنني أفعل.

- إن لم تكونا قد تماديتما، فلماذا قتلتها؟

- لم أفعل. يجب أن تصدقيني يا ماجي.

لن يحدث هذا أبدًا، خاصة وأنني أتذكر الطريقة التي عثرنا بها على جثة بِترا. دين يضرب السقف الهش، يختبره. يدفع ويدفع حتى يتهاوى، وهو ما أشك أنه كان مقصده من البداية. أعتقد أنه عرف أن العثور على رفات بِترا في أثناء تجديد

المنزل مسألة وقت، والأفضل أن يبدو كأنما هو من عثر عليها. هكذا سينتقل الاتهام إلى أبي.

يتقدم دين أكثر حتى لا يفصلنا سوى بضعة أقدام.

أقول مُحذرة:

- خطوة أخرى وسأبلغ الشرطة.

- لا يمكنكِ فعل هذا يا ماجي. قد يُعيدني هذا فورًا إلى السجن. لن يصدقني أحد. لن يروا فيَّ سوى مجرم أدين سابقًا بمحاولة قتل. لن يمنحوني فرصة.

- ربما لا تستحق واحدة.

يتقدم دين أكثر، أحاول إخراج هاتفي المحمول من جيبي، لكنه يضرب يدي فيرتطم الهاتف بالحائط ثم يسقط على الأرض على بعد عدة ياردات.

يقبض على كتفيّ ويهزني وهو يقول:

- اسمعيني يا ماجي. يجب أن تتظاهري بأنك لم تكتشفي شيئًا عني وبِترا.

يحدق إليّ في تجهم ووضاعة، بعينين تستعران غضبًا وظلمة، فأتساءل إن كان هذا آخر ما رأته بِترا. أشيح بنظري، فألمح السكين الذي جلبته معي على المكتب. أمد يدي نحوه.

يراه دين أيضًا، فيندفع نحوه.

حينها أعدو فرارًا.

أبدأ بدفع جسدي عن المكتب، وأتبع ذلك بدورة حول دين الذي يهجم عليّ فأدفع صدره بقوة حتى يتقهقر مرتطمًا بأحد أرفف الكتب، فتهوي محتوياته فوقه.

أعدو.

أنزل الدَّرج.

أقطع الممر في الطابق الثاني. أسمعه يلاحقني، صوت خطواته سريع وثقيل وهو يهبط درج الطابق الثالث.

أستمر في الحركة. أتنفس بصعوبة. تزداد ضربات قلبي قوة وسرعة.

أصل إلى الدَّرج الرئيس عدوًا، أنزل متجاهلة صوت خطوات دين تتبعني عبر الممر، وسرعته الفائقة.

هو الآن على الدَّرج ذاته معي. أسمع قرع حذائه يضرب الدرجات العليا، وأشعر باهتزاز السلَّم من تحتي.

أزيد سرعتي، عيناي على المدخل ومن وراءه الباب. في الثواني التي احتجت إليها لقطع الدرجتين الأخيرتين أحاول حساب فرص وصولي إلى الباب قبل أن يلحقني.

لن أستطيع.

حتى لو استطعت الوصول إلى الباب -في هذا شك- سأضطر إلى الفرار من قبضة دين بمعجزة حتى أصل إلى الشرفة الأمامية ومنها إلى شاحنتي. الوقت لن يكفي، ليس بهذه السرعة التي يعصف بها تجاهي.

أغير الخطة في آخر جزء من الثانية، فبدلًا عن التوجه إلى المدخل، أنطلق إلى حجرة الاستقبال.

لا يتردد دين في اللحاق بي، يلهث باسمي عن قرب حتى أكاد أشعر بأنفاسه على عنقي.

أتجاهله وأنا أدفع نفسي دفعًا حتى أعبر قاعة الاستقبال، ومنها إلى غرفة إنديجو.

الظلام دامس بالداخل.

جيد.

أحتاج إلى ظلامها.

الضوء الشحيح الموجود يكفيني لأتبيَّن الفجوة حيث كانت ألواح خشب الأرضية. حتى وهي على هذا الوضع، يحتاج المرء إلى حرص شديد ليتفادى مكانها.

ودين ليس حريصًا.

أقفز من فوق الفجوة ثم أتوقَّف قبل أن أدور لأواجهه. يبطئ دين سرعته لكنه يستمر في التقدم.

خطوة.

خطوتان.

ثم يسقط في الفجوة ويختفي بالكامل، ويصير الدليل الوحيد على أنه كان هنا صوت ارتطام جسده بأرضية المطبخ بعيدًا بالأسفل.

16 يوليو
اليوم العشرون

بعد الظلام

قلت لجيس:

- يجب أن نرحل. حالّا.

- لماذا؟ ماذا يحدث؟

- ماجي ليست في أمان هنا.

التقطت الكاميرا وعُلب أفلام التحميض، ثم دفعت جيس إلى خارج المكتب ثم إلى الدرج.

- لا أفهم ما الذي يحدث؟

وصلنا إلى الطابق الثاني، فاستدرت والتقطت صورة للدرج خلفنا.

صوت تكّة الغالق.

أزيز.

انزلاق.

قلت وأنا أنتظر ظهور الصورة:

- ثمة شبح في المنزل. إنديجو جارسن هي من كانت توسوس للآباء بقتل بناتهم. كُرتس كارفر لم يقتل كيتي. لقد أجبرته إنديجو على هذا.

دفعت بالصورة إلى جيس، وتأكدت من أنها ترى شبح إنديجو يترنّح نازلًا الدَّرج، والعملتان على عينيها تعكسان فلاش الكاميرا. وضعت

چيس كفها على فمها تكتم صرخة، لكنها تسرَّبت بشكل ما على شكل أنين من بين أصابعها.

أسألها:

- أين ماجي؟

نظرت چيس -وهي تغطي فمها بعد- نحو غرفة نوم ابنتنا. من خلفنا موجة حرارة هائلة تقترب. إنديجو تعلن وجودها.

همست لچيس:

- يجب أن نُخرجها من هناك. بسرعة.

قطعنا الممر عدوًا، حرارة وجود إنديجو تُلهب ظهرينا. داخل غرفة النوم رأيت ماجي جالسة على فراشها تضم ركبتيها إلى ذقنها، ولهيب الخوف يتراقص في عينيها.

قلت لچيس:

- يجب أن تحمليها أنتِ. أنا لا أثق بنفسي.

لم تفكر چيس، بل اتجهت رأسًا إلى الفراش وحملت ماجي بين ذراعيها. قالت ماجي:

- ماما، أنا خائفة.

قبَّلت چيس خدَّها وقالت:

- أعرف يا حلوتي، لكن لا يوجد ما يخيف.

كانت كذبة. ثمة كثير مما يخيف.

خاصة مع فتح بابيْ الخزانة. واندفاع دفقة هواء حار منها دفع چيس إلى الوراء. رفعت ماجي من

بين ذراعيها كأنما ترفعها ريح عاتية. ثم جُذِبت نحو الخزانة وهي تصرخ وتبكي وتحرِّك أطرافها في الهواء.

حصلت إنديجو على ابنتنا.

هرعت إلى الخزانة بينما ماجي تختفي بداخلها. ألقيت بنفسي نحوها قبل انغلاق بابها. الخشب يضغط ضلوعي وأنا أمد جذعي إلى داخل الخزانة المظلمة السحيقة. حركت ذراعي المِمدودتين في الفراغ وأنا أنادي اسم ماجي حتى لمست مفاصل أصابعي عقِبها.

لففت أصابعي حوله وجذبت، ثم رُحت أنقل يديّ إلى أعلى ساقها حتى وصلت إلى ركبتها. جذبت بكل قوتي حتى تحررت ماجي أخيرا من قبضة الخزانة.

سقطت على الأرض وماجي فوقي، ما زالت تصرخ.. ما زالت تبكي.

من خلفنا، رأيت تدفع جيس الفراش نحو الخزانة لتغلقها. تمنيت أن يكون هذا كافيا حتى نهرب خلال الدقائق التالية.

أنهينا المهمة وغادرنا الغرفة متجهين سريعًا إلى الممر، جيس تحمل ماجي، وأنا أحمل الكاميرا، أصوبها من وقت لآخر إلى أرجاء الرواق الخاوي خلفنا.

صوت تكَّة الغالق.

أزيز.

انزلاق.

تحققت من الصورة فلم أرَ شيئًا.

نزلنا الدَّرج، تقودنا جيس وماجي متجمدة من الذعر بين ذراعيها. عند نهاية الدَّرج التقطت صورة أخرى.

صوت تكَّة الغالق.

أزيز.

انزلاق.

لا شيء بعد.

أعلنت:

- أعتقد أنها رحلت.

سألتني جيس:

- هل أنت متأكد؟

رفعت يدي محاولًا استشعار حرارة إنديجو اللاهبة وقلت:

- لا أراها، ولا أشعر بها أيضًا.

التقطت صورة أخيرة وجيس تحمل ماجي أسفل الدَّرج.

صوت تكَّة الغالق.

أزيز.

انزلاق.

قالت جيس:

- لا يمكننا البقاء هنا. لا بد من حزم أمتعتنا والمغادرة قبل عودتها.

- أعرف.

نظرت إلى الصورة في طور التحميض بين يديّ، صورة جيس وماجي تخرج من بين بياض الورقة. خلفهما -خلف ظهر جيس مباشرة- إنديجو جارسن.

رفعت عينيّ عن الصورة ونظرت إلى زوجتي وابنتي في الوضع الظاهر في اللقطة بين يديّ.

ثم طارت ماجي نحو السقف.

حدث هذا في لحة.

في ثانية كانت مع أمها، وفي الثانية التالية رأيتها تُجر عبر السقف بقوى غير مرئية. لم يسعني وجيس غير مراقبة الأمر في ذعر، بينما تصرخ ماجي وتتحرك على غير إرادتها. عندما لم يعد يفصلها عن الثريا إلا طول ذراع، قبضت عليها بكل قوتها. تأرجحت الثريا للأمام والخلف، وسقط منها بعض الكرات الزجاجية وتحطمت على الأرض حولنا، وتناثرت شظاياها.

فوقنا، تستمر ماجي في المقاومة حتى تخور قواها، فتجر مرة أخرى عبر السقف. ظلت جيس تصرخ باسمها كأن هذا قد يحررها.

لكني كنت أعرف الطريقة الوحيدة التي ستجبر إنديجو على تركها. بما أن هدفها إيذائي كما آذاها أبوها، فيجب أن أخرج نفسي من المعادلة.

أو على الأقل أن أتظاهر بهذا.

هويت على ركبتيّ محاطًا بشظايا الزجاج.

الشظايا تجلب الحظ الحسن.

أمسكت أكبر قطعة منها، وضغطتها إلى رقبتي وأنا أصرخ تجاه السقف.

- إنديجو. اتركيها وإلا قتلت نفسي!

نظرت إليّ جيس مذعورة وهتفت:

- إيوان! لا!

لن تسمح إنديجو للأمر بالوصول إلى هذا الحد. إن كانت تريد قتل ماجي، فهي تريد أن أقتلها بنفسي. لن يكون هذا ممكنًا لو مت.

أصيح:

- أنا جاد! أنت تعرفين أنكِ عاجزة عن فعل هذا من دوني.

ضغطت الشظية أكثر إلى عنقي، وأدرتها حتى ثقب طرفها جلدي، فنزف خيط دم من الجرح.

سقطت ماجي بلا إنذار، سقوطها سريع إلى حد يدير الرؤوس. اندفعت وجيس نحوها، أذرعنا متشابكة كمهد يتلقاها عندما تهبط.

ظلت فوق أذرعنا لثوان قبل أن تهبط علينا

موجة حرارة من أعلى، أكثر عفونة من ذي قبل ومحملة بالغضب.

وارتفعت الأصوات من حولنا بغتة، فحيح شرس ينطلق من كل أركان المنزل. بعد لحظة ملأت الثعابين الغرفة.

ثعابين حمراء البطن.

ظهروا على الفور، منبعثين من كل ركن مظلم، ومن أسفل كل لوح خشبي. رأيتهم ينزلون أيضا من الطابق الثاني، يزحفون عبر الدرج نحونا.

خلال ثوان أحاطت بنا الزواحف البشعة. بعضها يفح في حنق، أفواهها تكشف عن أنياب في حِدة الأمواس.

دفعت بماجي إلى چيس خوفًا عليها مما قد أفعل بها لو حملتها أكثر. ثم عليَّ أن أبعِد الثعابين، وأحاول إخلاء ممر بينها نعبر من خلاله إلى المدخل. ركلت ودعست. بعض الثعابين تراجعت، وبعضها هرِس.

حاول أحدها الهجوم على چيس، لكني ركلته قبل أن يمسها. صحت:

- يجب أن نُسرع.

وهذا بالضبط ما فعلنا. هرع ثلاثتنا عبر المدخل. نحو الباب. ثم إلى الشرفة الأمامية.

تبعتنا الثعابين، تنصَبُّ من الباب المفتوح في سيل متماوِج غاضب، ترافقهم إنديجو جارسن،

غير مرئية لكن بالتأكيد مُستشمَرة. الهواء الحار يلفح ظهري وأنا أقود جيس وماجي نازلين الدرجات الخارجية إلى السيارة.

سألت جيس وهي تجلس على أريكة السيارة مع ماجي:

- ماذا عن أغراضنا؟

- يجب أن نتركها. الوضع خطِر للغاية. لا يمكن أن نعود مرة أخرى.

شغّلت محرك السيارة وانطلقت عبر الممر، رأيت ماجي راكعة خلفي على الأريكة تنظر عبر الواجهة الخلفية وتصرخ:

- لا تزال تتبعنا!

نظرت إلى المرآة فلم أرَ شيئًا.

- تقصدين السيدة وجه القِرشين؟

- نعم! هي خلفنا مباشرة!

ثم نَطح شيء مؤخرة السيارة، نطحة قوية كادت تقتلعها.

صرخت جيس وضمّت ماجي. تمسّكتُ أنا بالمقود محاولًا ألا أحيد عن الطريق وأنحرف إلى الغابة، وهو ما تريده ماجي بالضبط. ضغطت قدمي على دواسة الوقود محاولًا السيطرة على سرعتي واجتياز الممر الملتوي. الإطارات تعوي تحتنا.

ضُربت السيارة مرة أخرى بقوى غير مرئية، وأصابت الضربة هذه المرة باب الراكب. للحظة فقدت السيطرة على السيارة، فنزلَت إلى العشب على جانب الممر، تكاد تحتك بالأشجار. لم أقدر على السيطرة على السيارة إلا بقوة القص فقط، وعدت إلى الطريق.

لحسن الحظ، تركت چيس البوابة الأمامية مفتوحة بعدما عادت هي وماجي، فعبرت سريعا من بين مصراعيها. بمجرد أن خرجنا من الضيعة، ترجلت من السيارة وأقفلت البوابة.

صُبّت الحرارة فوقي ويداي ترتعشان بالمفاتيح، أحاول غلق القفل. اندفع اللهيب من بين قضبان البوابة الحديدية، فسخَّنها. لو أن للجحيم وجودا، فأنا أشك أن سعيرها بهذا الغضب والحرارة اللذين شعرت بهما وأنا أدير المفتاح في القفل مغلقا البوابة.

كانت هذه هي اللحظة التي أدرك فيها شبح إنديجو جارسن الموتور أنه فشل.

لقد فررنا من بانبيري هول، وعائلتي كلها سليمة آمنة.

- ولا يسع إنديجو فعل شيء حيال ذلك، ولا تملك ما تعيدنا به إلى هناك.

ربما يمر الآخرون يوما من البوابة، ويقطعون الممر البالي عبر الغابة، ويدخلون بانبيري هول. لو

حدث هذا، فلا أتمنى لهم شيئًا إلا الحظ الحسن.
سيحتاجون إلى طريقة ينجون منها من هذا المكان.
أما أنا وأسرتي -حلوتي جيسيكا، ومحبوبتي ماجي-
فلن نعود أبدًا، ولا ننوي أن نضع قدما داخل
هذا المكان أبدًا.

بانبيري هول بيت الأهوال في قصتنا، ولن يجرؤ
أينا على دخوله مرة أخرى.

الرابع والعشرون

تقف نصف دزينة سيارات نجدة خارج بانبيري هول، أضواؤها تطلي المنزل بالأحمر والأبيض. بالإضافة إلى سيارة رئيسة الشرطة ألكوت، تقف سيارة إسعاف، وثلاث سيارات شرطة، وسيارة مطافئ تحسبًا للأسوأ.

أراقب من الشرفة الأمامية نقل دين إلى سيارة الإسعاف، مقيدًا إلى محفّة، حول عنقه دعامة. لم يصبه سقوطه عبر السقف بإصابات بالغة. بينما ينقله المسعفون، أسمع همهمات عن كسور وربما ارتجاج مخ. أيًا كان ما حدث له، فقد سمح لي بالهرب من المنزل والاتصال بالشرطة.

دين الآن في طريقه إلى طوارئ المستشفى، ثم غالبًا إلى السجن. يحدق إليّ بينما تدخل المحفة إلى سيارة الإسعاف بعينين متألمتين متهمتين.

ثم أُغلِق بابي السيارة، واختفى دين من المشهد.

بينما تغادر السيارة، تخرج رئيسة الشرطة ألكوت من المنزل وتنضم إليّ في الشرفة الأمامية عند السور.

أسأل:

- هل اعترَف؟

- ليس بعد. لكنه سيعترف. مسألة وقت.

تخلع رئيسة الشرطة قبعتها وتُخلل شعرها الرمادي

مُضيفة:

- أدين لك باعتذار يا ماجي، لتفوهي بهذه الكلمات عن أبيكِ، لظني أنه الجاني.

لا يمكنني أن أغضب منها لهذا. لقد كنت أظن الشيء نفسه طوال الوقت. لو أن هناك من سيخجل، فإنه أنا.

أقول لها:

- كلتانا مذنبة تجاهه.

- لماذا ستستمرين في البحث؟

كنت أسأل نفسي السؤال ذاته منذ أيام. الإجابة -أعتقد- فيما قالته الدكتورة ويبر لي عن أنني أعيد كتابة القصة من منظوري بهذه الطريقة. وبينما كنت أكتبها لأسباب خاصة بالكامل، أدركت أن القصة ليست قصتي وحدي.

لِبترا نصيب منها أيضًا. لم يغير ما فعلتُ شيئًا، وستظل إلسا محرومة من ابنتها الكبرى، ولن يكون لهانا أخت.

لكنهما حصلتا على الحقيقة، وهي ذات قيمة.

تغادر رئيسة الشرطة مع باقي سيارات الطوارئ مُشكلين صفًا على الممر. تصمت صافراتهم الآن، بينما تضوي أنوارهم بعد.

تصل سيارة أخرى قبل أن يختفي الصف أسفل

التل، تبزغ مصابيحها من الأفق. لحظة أعمتني الأضواء واختلاط الأزرق والأبيض والأحمر إذ تعبر السيارات متجاورة. تنعكس الألوان على الأشجار كأنها في مرقص.

تختفي أضواء سيارات الطوارئ، ويظهر ضوء مصباحي السيارة المستديرين أكثر، حتى تقترب وتطأ إطاراتها الحصى أمام المنزل.

لا أستطيع تمييز من فيها. الظلام دامس وعيناي تؤلماني بعد من أثر أضواء سيارات الطوارئ الساطعة. أتبين فقط شخصاً خلف المقود، يجلس في سكون تام كأنه يفكر في العودة بالسيارة إلى حيث جاء.

لكن باب السيارة ينفتح، وأرى أمي تخرج منها. أهتف في دهشة:

- أمي؟ ماذا تفعلين هنا؟

- يمكنني أن أسألك السؤال ذاته.

تظل واقفة على الممر، تبدو منهكة في ثياب سفرها -سروال أبيض وقميص مطبوع وصندل ذي سيور- عيناها حمراوان ملتهبتان، أسفلهما هلالان داكنان، على كتفها حقيبتها تكاد تنزلق عن كتفها. تقول لي:

- لأجل الرب يا ماجي، لماذا عدتِ؟ ماذا كنت تظنين في وسعك إنجازه؟

- احتجت إلى معرفة الحقيقة.

- لقد أخبرتك الحقيقة، لكنك لم تستطيعي ضبط نفسك. ولذلك اضطررت للسفر قاطعة نصف العالم، وها أنا هنا أرى سيارات الشرطة تحيط المنزل. ماذا فعلت بحق الجحيم؟

أدعوها إلى المنزل. تتردد لحظات عند الباب معلنة أنها لا ترغب في الدخول إلى بانيري هول، لكنها مرهقة للغاية فتدخل. ما أن نعبر الباب حتى تصر على أن ننزل إلى المطبخ.

- لا أريد أن أمكث في هذا الطابق بالذات.

ننزل إلى المطبخ، وتتخذ كل منا مقعدًا حول الطاولة. أحكي لها كل شيء. وسبب عودتي. وما حدث عندما عدت. أحكي لها عن العثور على جثة بترا والشك في أبي، ثم اكتشاف أن الفاعل الحقيقي هو دين.

عندما أنتهي، تحدق إليَّ أمي ببساطة. تبدو مسنة منهكة تحت ضوء مصباح المطبخ الذي يضيء أخاديد الزمن التي تحاول دومًا إخفاءها. التجاعيد، وبقع التقدم في العمر، وخصلات الشعر الرمادية التي تحيط وجهها.

تقول لي:

- آه يا ماجي، ما كان لك أن تفعلي كل هذا.

كأنما ضربتني على كتفي حتى بدا بانيري هول كأنما يرتج من حولي. أسألها:

- لماذا؟

تدور عينا أمي حول الغرفة فتبدو كطير حبيس.

- يجب أن نرحل.

- ماذا تخفين عني؟

- يجب أن نرحل ولا نعود مرة أخرى.

يتزايد التوتر والقلق بداخلي فيُثقلاني. عندما تقف أمي، أحتاج إلى كل قوتي لأقوم وأدفعها إلى مقعدها.

- سنمكث هنا، سنجلس ونتحدث مثلنا كمثل أي أسرة طبيعية.

قبل أن أجلس، أرى فطيرة الكرز على سطح المطبخ فأقول:

- انظري، ثمة حلوى أيضًا.

أحمل الفطيرة وألقِها على الطاولة، ثم أجلب شوكتين أرميهما أمامنا. لأجل تشجيعها، أقتطع قطعة هائلة من الفطيرة وأدسها في فمي وأنا أقول:

- أترين؟ أليس هذا لطيفًا؟ حديث أم وابنتها في الطريق. لنتحدث.

أتناول قضمة هائلة أخرى، وأنتظر أن تبدأ أمي الحديث. بدلًا عن ذلك تمسك الشوكة وتلتقط بها قطعة صغيرة من الفطيرة. تحاول أن ترفعها إلى فمها، لكن يدها ترتجف حتى تسقط قطعة الحلوى من طرف الشوكة، فيتناثر الحشو الملامي بلون الدم على سطح المنضدة. تقول لي:

- لا أعرف ماذا تريدين مني بالضبط.

- الحقيقة هي كل ما أريد.

أتناول قطعة فطيرة أخرى كأنني أثبت لها أنني قادرة على فعل ما عجزت هي عنه.

- يجب أن تخبريني كل شيء لعين أخفيته عني خلال الخمسة وعشرين عاماً السابقة.

- أنت لا تريدين معرفة الحقيقة كما تظنين يا ماجي.

تتوقف حركة عيني أمي الشبيهة بحركة عيني الطيور في المصيدة عند فجوة السقف. وهنا أدرك أنني كنت مخطئة بشأن دين. بل مخطئة بشأن كل شيء..

- هل الأمر يخص أبي؟

- لا أريد الحديث.

- هل قتل بِترا ديمنر؟

- لا يمكن لأبيكِ أن..

- بل يمكن. كل هذا الكتمان. كل هذه الأكاذيب. كل هذا يدفعني إلى تصديق أنه من قتل فتاة في السادسة عشر، وأنت ساعدته على إخفاء الجريمة.

تدفع أمي مقعدها، فتنزلق يداها المفرودتان على الطاولة إلى جانبيها. تقول بصوت يتهدج بألف شعور مختلف:

- آه، يا صغيرتي، يا صغيرتي الحلوة.

- هل استنتاجي صحيح؟

تهز أمي رأسها نفيًا وتقول:

- لم يقتل أبوكِ الفتاة.

- إذًا من قتلها؟

تمد يدها داخل حقيبتها وتخرج ظرفًا كبيرًا، تدفعه نحوي. أفتحه وألقي نظرة، فأرى بداخله رزمة أوراق، على أولها عبارة غير متوقَّعة: إلى ماجي. تقول أمي:

- لكم صليت أنا وأبوكِ كي لا يأتي هذا اليوم.

- لماذا؟

- لم يرغب أبنا في إخبارك الحقيقة.

- لماذا؟

- لأن أباك لم يقتل بِترا.

تظل عيناي على الصفحة الأولى وأنا أسألها:

- إذًا مَن؟

- أنتِ يا ماجي. أنتِ من قتلها.

***

إلى ماجي.

أكتب هذا الخطاب إليكِ يا ماجي، وأنا أتمنى من الرب ألا تريه أبدًا. لو أنك تقرأينه الآن، فمعنى هذا أنني وأمك قد أخفقنا.

ولهذا، لكِ عميق اعتذارنا.

لا بد أنك الآن قد عرفتِ بعض الحقيقة عما حدث ليلة غادرنا بانبيري هول. ما أكتب هنا هو باقي الحقيقة. ورغم أن أمنيتي الوحيدة ألا تقرأي ما بعد هذه الفقرة، أعرف أنك ستفعلين، فأنتِ قبل كل شيء ابنتي.

لم نخطط قط لمغادرة بانبيري هول كما فعلنا. لم نخطط للمغادرة أساسًا. التصليحات المطلوبة والمآسي التي وقعت في المنزل لم تستحق التضحية بهذا المنزل الجميل. ولصار منزلًا سعيدًا ما لم أفتن بتاريخه.

أعترف أنه كان لي هدف خفي عندما أقنعت أمك بشراء المنزل. لطالما أردت منزلًا ذا تاريخ أستطيع الغوص فيه والكتابة عنه، على أمل أن أخرج في النهاية بكتاب غير روائي عن كاتب مستقل يصلح منزلًا اشتراه.

لكن بمجرد أن عرفت الظروف التي أحاطت بموت إنديجو جارسن، أدركت أنني تعثرت في فكرة أفضل للكتاب. سأكون الكاتب المستقل الذي يكشف لغز جريمة بينما يصلح منزلًا اشتراه.

لكنني انتهيتُ إلى كتابة شيء مختلف تمامًا.

أقول لك شيئًا عن «بيت الأهوال»: أغلب ما ذكرته عنه حقيقي، وكثير منه محض أكاذيب.

لقد اكتشفنا بالفعل خطابات لإنديجو جارسن كتبها شخص ودَّ الزواج بها. بحثنا أنا وبِترا ديمتر وراء هذه الخطابات، واكتشفنا مآسي أخرى وقعت في هذا المنزل عبر السنوات.

لكن مقابل كل حقيقة كذبة.

لم يكن ثمة أشباح بالطبع، لكن كان لك عدة أصدقاء خيالية. السيد ظِل واحد منهم، والسيدة وجه القِرْشين أيضًا. رغم أنهم كانوا من وحي خيالك، لطالما أفزعوكِ وفتنوكِ بالقدر نفسه. انشغلتِ بهما حتى طلبنا استشارة الدكتور ويبر.

ليس للوحات ويليام وإنديجو جارسن وجود أيضًا. وبخلاف ما حدث لكيتي وإنديجو -التي أومن أن أباها قتلها بالفعل وبحثت عما يدينه في كتابي- فكل الميتات التي وقعت في البيت ما هي إلا حوادث لا يجمعها رابط مطلقًا.

كلها عدا مقتل بِترا ديمتر.

الذنب الذي أشعر به تجاه ما فعلنا لم يقل مقدار ذرة خلال السنوات الخمسة وعشرين التي مرّت منذ ماتت. كانت شابة نابهة لامعة، واستحقت ما هو أفضل.

أعرف أنني لن أنسى هذه الليلة رغم أن هذا هو كل ما أرغب فيه. أشك أن الموت هو الوحيد القادر على محو هذه الليلة الشنيعة من ذاكرتي. لست واثقًا حتى بذلك. أعرف أننا نغادر

أجسادنا عندما نموت. أتمنى أننا قد نستطيع ترك ذكريات معينة أيضًا.

كان المفترض أن تكون الليلة جميلة، ليلة احتجنا إليها بعد التعب الذي نال منا في أثناء إصلاح بانبيري هول. استحوذ المنزل وتجديده عليّ أنا وأمك، وشعرنا أننا نتباعد أكثر كل يوم. خفتت شعلة زواجنا ورغبنا بشدة في استعادة وهجها.

لفعل ذلك، قررنا ترتيب موعد غرامي، وهي الطريقة المهذبة التي أقول بها إننا استأجرنا غرفة في نزل «توباينز» بنية أن نتضاجع كأننا عدنا مراهقين. لم نحتج فقط إلى الابتعاد عن المنزل بمسؤولياته، بل عنكِ أيضًا ولو لليلة واحدة. يبدو هذا قاسيًا أكثر مما هو في الواقع. ربما تكونين أنت الآن أمًا بينما تقرأين، وستفهمين ما أقول.

ولهذا الغرض طلبنا خدمات بِترا لمجالستك، وبسبب غرابة تصرفك ليلة المبيت، كانت بِترا قد منِعت من دخول بانبيري هول، واضطرت للتسلل بعدها للمجالسة. وافقنا أنا ووالدتكِ رغم مخالفة هذا للأخلاقيات العامة، لكننا قلنا إن كان عملها لساعات معدودة فقط، فبعض الخداع من جانب بِترا قد يساوي ليلةً من المتعة لنا. لقد احتجنا إلى هذا، إلى وقت معًا، إلى العودة إلى نفسينا.

تسللت بِترا من منزلها ووصلت في الثامنة تقريبًا.

ذهبتِ ووالدتكِ إلى النُّزل حيث حققنا هدفنا مراراً. غادرنا النُّزل عند منتصف الليل سعيدين مسترخيين. شعرنا بسرور لم نشعر به منذ أسابيع.

كل هذا انتهى لحظة دخلنا بانبري هول ورأينا جثة بِترا ديمتر.

كانت مكوَّمة عند بداية الدَّرج، ساقاها وذراعاها مثنيةٌ تحتها بقوة، حتى أنني عجزت في البداية عن تبيّن أي أوصالها ساق وأيها ذراع. لم يبدُ طرف من أطرافها في مكانه.

عرفت أنها ميتة، هذا واضح، فعنقها كان أيضًا ملتويا على نحو غير طبيعي. أشعر بالغثيان لمجرد تذكُّر المشهد. خدها الأيمن ملتصق بالأرضية، وشعرها يغطي وجهها، لكني رأيت عينيها تطلان من خلف الخصلات. عينان كبيرتان مصدومتان ميتتان.

لم أستطع التوقف عن التحديق إليهما. كان المنظر أكثر بشاعة من أن أحوِّل عنه نظري. رأيت موتى من قبل طبعا، لكنهم لم يكونوا بهذا الشباب ولم يموتوا بهذه الطريقة القاسية. كل الجثث التي رأيتها بدت نائمة فقط.

لكن بِترا قطعًا ليست نائمة.

وكنتِ جالسة عند رأس الدَّرج، تنتحبين في هدوء. عندما سألناكِ عما حدث، نظرتِ إلينا وقلت: «لستُ أنا.»

كررتِ العبارة مرارًا كأنك تحاولين إقناع نفسك بها أكثر من إقناعنا نحن.

«لستُ أنا، لستُ أنا، لستُ أنا»

في البداية صدقتك. أنتِ ابنتي قبل أي شيء، وأعرفك أكثر من أي شخص آخر، حتى أمك. أنتِ لطيفة طيبة. لا يُمكن أن تؤذي أحد متعمدة. ثم تذكرت كيف لكمتِ أخت بِترا يوم المبيت. صدمتني فعلتك وقتها، ثم صدمتني مرة أخرى بأثر رجعي. كانت دليل على أن الغضب يغلي بداخلك تحت مظهرك الخارجي المادئ.

ثمة دليل مادي أيضًا. قميص بِترا كان ممزقًا. وكاد كُمّه ينفصل عن باقيه من ناحية الكتف، فكشف عن بشرتها الشاحبة. فوق المزق أثر ثلاثة خدوشٍ قرب عنقها، كأنها هوجمت. على وجهك أنتَ أيضا جرح عميق تحت عينك اليسرى، لم أستطع سوى أن أستنتج أن بِترا هي من تسببت لك فيه وهي تصارعك.

على ذلك، ظللت تُكررين.

«لستُ أنا، لستُ أنا.»

سألتك وأنا أتمنى من قلبي أن تعطيني ردًا منطقيًا:

- من فعلها إذًا يا ماجي؟

لكنك نظرت إلى أعيننا وقلتِ:

- السيدة وجه القِرشين.

أتذكر تلك اللحظة كأنها الآن. اللحظة التي أدركت فيها أن مخاوفي حقيقية. بما أن ليس للسيدة وجه القِرشين وجود، إذًا أنتِ من قتل بِترا.

لاختلف الوضع كثيرًا لو أن والدة بِترا كانت تعرف أنها في بانبيري هول. لن يكون لنا خيار وقتها إلا إبلاغ السلطات. لكن لا يعرف أحد أنها هنا، لا أحد إلّا نا.

لذا، عندما حاولت والدتك الاتصال بالشرطة، منعتها قبل أن تطلب الرقم. أخبرتها أننا في حاجة إلى التفكير جيدًا قبل أن نفعل هذا، وأن تدخل الشرطة قد لا يكون في مصلحتنا. قالت لي:

- الفتاة ماتت يا إيوان، وأنت لا تفكر إلا في مصلحتنا؟

- ماذا عن ماجي؟ لأن أيًّا ما سنفعل لاحقًا سيؤثر فيها لباقي عمرها.

وضحت لها أننا إن اتصلنا بالسلطات، فلن تحتاج الشرطة إلا إلى نصف الوقت الذي احتجنا إليه حتى تتبيّن أن الأمر ليس حادثًا. قميص بِترا الممزق، والخمشات على عنقها تشير إلى الأسوأ.

تشير إلى أنك دفعتِها نحو الدَّرج.

لا أعرف ما الذي دفعك لهذا، ولا أريد أن أعرف. أدركت أنني كلما عرفت أقل كان هذا أفضل. لكنني عرفت أنني بعد أحبك رغم ما

فعلتِ. لا يمكن أن تفعلي أي شيء ويقص من حبي لك، لكني خشيت أن معرفتي بتفاصيل ما حدث قد تغير طريقة تفكيري، ولا أريد أبدًا أن أراكِ وحشًا كما قد يظن الجميع فيكِ لو تسربت كلمة واحدة عن قتلك بِترا.

ما ذكرتُ لك توًا هو ما أقنع أمك بتنفيذ خطتي. أخبرتها أن وجهة نظر الناس في المرء خادعة، وعندما يراك أحد بطريقة معينة، فسيغدو تغيير رأيه وإعادة الجنّي إلى قمقمه مستحيلة. عندما يظن العالم أن أحدهم وحش، فسيعامله الناس على أنه منهم، وسرعان ما سيصدق هذا الشخص ظنهم فيه.

أسألها:

- هل هذا هو ما نتمناه لماجي؟ أن تُحبس في إصلاحية قُصّر حتى تبلغ الثامنة عشر؟ ثم تقضي باقي حياتها تحت حكم الناس عليها؟ مهما فعلت سيراها الناس قاتلة فقط. كيف تظنين أن هذا قد يؤثر فيها؟ أي حياة هذه؟

لستُ فخورًا بما فعلت تلك الليلة. الذنب الذي أحمله يثقل قلبي ويؤرقني ليلًا، لكني أريدك أن تتأكدي أننا فعلنا ذلك لأجلك. أردنا أن نعفيكِ من المعاناة طوال حياتك لو تدخلت الشرطة.

لذا قررنا أن نتكتّم على الأمر.

بينما اصطحبتك أمك إلى غرفتك لتنظيف

جرح خدك، تخلَّصت من الجثة. كتابة كلمات كهذه تثير الغثيان، لكن هذا ما فعلت. لم أدفنها، بل تخلصت منها. هذه هي الحقيقة الخالصة. لففت بترا في حقيبة قماشية قديمة، كنت أستخدمها أيام عملي مراسلًا بالخارج، ثم أسقطتها في فجوة الأرضية التي عثرنا فيها على خطابات إنديجو جارسن، ثم أعدت تغطيتها بالألواح والبساط.

وهكذا، اختفت بِترا.

أمك هي مَن طالبت بالرحيل عن بانبري هول. نزلتما وخدك مضمد، تحملين الدب المحشو الذي جلبته بِترا معها تلك الليلة.

شككت في أن الدب سبب الشجار بينكما. منظره أفاق أمك من صدمتها وقد أدركت أن من دفناه تحت أخشاب الأرضية ليس شخصًا مجهولًا، بل شابة ذكية جميلة، لا تنام إلا جوار دبها.

صاحت أمك وقد فجعها ما فعلنا:

- لا أستطيع أن أمكث هنا. ليس وأنا أعرف مكانها، ليس بعد ما فعلناه بها. أنا فقط لا أستطيع.

فهمت أن لا خيار لنا سوى الرحيل. خبأت الدب في خزانة غرفة مكتبي، ثم تكومنا في السيارة دون أن نحزم غرضًا واحدًا، وعدنا إلى

نُزل «توباينز». بسبب تغير الوردية، وجدنا موظفًا مختلفًا خلف مكتب الاستقبال. وبما أننا دفعنا نقدًا، لم يكن هناك ما يُثبت أننا كنّا هنا منذ ساعات.

قالت أمك بمجرد أن دخلنا غرفتنا:

- لن أعود إلى هناك مرة أخرى. لا أستطيع يا إيوان. اعذرني.

أنا أيضًا شعرت أن الحكمة تقتضي بألا نعود. لقد فررنا بفعلة شنيعة، والعودة إلى بانبيري هول ستذكرنا كل يوم بما اقترفنا، وكل ما أردت هو النسيان.

قلت لها:

- لن نعود أبدًا. لن يعود أينا إلى هناك.

قالت أمك:

- لكن الناس سيبحثون عن بترا، وبمجرد أن يدركوا أنها اختفت سيسألوننا عن سبب مبيتنا هنا لا في بانبيري هول. يجب أن نعطيهم سببًا.

عرفت أنها محقة. يجب أن نفكر في تفسير لمغادرتنا. تفسير قوي، تفسير يبدو بريئًا. لكن هذا ليس سهلًا وبخاصة لو بدأ الناس بحثهم عن بترا. أعرف أن الشرطة ستطلب تفتيش المنزل لتتأكد من مزاعمنا. سيحتاجون فقط إلى نصف ساعة لاستخراج أمر التفتيش.

لكن ادعاء عطل آخر في المنزل لن يفلح. لا

يمكن أن نخبرهم أن ماسورةٍ انفجرت أو غزتنا الثعابين مرة أخرى دون أدلة. يجب أن يكون سبب رحيلنا قوي للغاية، وخفي أيضا لا نُطالَب بإثباته.

ويا للسخرية، كنتِ أنتِ من جاء بالفكرة وأنتِ نصف نائمة أمام التلفاز مكتوم الصوت. سألتِ:

- متى سنعود إلى المنزل؟

أجابت أمك:

- لن نعود.

هنا قلتِ ما أشعل فتيل الفكرة اللامعة:

- لأن السيدة وجه القِرشين أخافتنا حتى فررنا؟

بدت فكرة ادّعاء أن بانبيري هول مسكون سخيفة في البداية. لن يصدقنا أحد، لكن كلما فكرت فيها، بدت معقولة. يستحيل إثبات كذبنا، بالإضافة إلى ما أعرفه من تاريخ بانبيري هول وما قد يغزل عنه من حكايات. ثم أدركت أن ادعاء أن البيت مسكون على سخفها، ستشتت التركيز عن السِر العظيم المخفي في المنزل.

وقررنا التنفيذ. لم يكن لدينا خيار آخر.

ناهيك بأننا لا نملك وقتًا للتفكير في خطة أفضل. عرفت أن علينا لدرء الشبهات عنا، أنْ نُسجل بلاغًا ندعي فيه أن بانبيري هول مسكون قبل أن يكتشف أحد اختفاء بِترا.

اتصلتُ بالشرطة للابلاغ، فأرسلوا الضابطة ألكوت إلى المنزل على الفور. ولساعة تالية أخبرتها عن السيدة وجه القرشين والرعب الذي تحمّلناه. كنت أعرف أن الضابطة لا تصدقني، وبخاصة بعدما ذهبت إلى المنزل لتفحصه.

عندما عادت لتخبرنا أن كل شيء يبدو سليمًا، عرفت أن لدينا فرصة للنجاة بفعلتنا. يمكننا الانتقال إلى مكان آخر ونستقر فيه، ثم نتظاهر بأن ما حدث في بانبيري هول لم يحدث قط.

كل ما تلا ذلك لم أتوقعه. مقابلات الصحافة التي رغبت في المشاركة فيها لإضفاء مزيد من المصداقية على ما حدث. لم يكن يهمنا يا ماجي أن يصدقنا الناس، بل أن يصدقوا أننا نصدق ما حدث.

لذا استمرت مشاركاتنا، حتى بعدما عبرت القصة حدود الولاية وما بعدها. ثم جاء عرض نشر كتاب، وهو عرض لم أتوقعه، وفي الوقت نفسه حلم لطالما راودني.

لم توافق أمك على كتابة «بيت الأهوال»، وبخاصة أنني كنت أحتاج إلى العودة إلى بانبيري هول بعد أسبوعين من الجريمة لجلب آلة الكتابة. لكني كنت أعرف أنه لا مجال لتجنب هذا. توقفت أمك عن ممارسة التدريس، وليس لدي ما أكتبه، ولحتاج إلى المال. اعتبرت الكتاب عملًا مؤقتًا قد أجني منه بعض المال حتى نجد عملًا،

ولم أتصوّر لثانية أنه سيتحوّل إلى هذا المسخ الذي سنعجز عن السيطرة عليه. وعندما حدث هذا، قُضي الأمر، واضطررتُ أنا وأمك إلى التظاهر بأن ما في الكتاب حقيقي بقية حياتنا. كانت هذه هي الكذبة التي شطرت حياتنا.

خلال كل هذا، جاهدنا أنا وأمك لدعمك. لقد قتلتِ، سواء كان هذا بدافع الغضب أو عَرَضًا، ولا نعرف كيف سيؤثر هذا في حياتك، وكيف تصيرين في المستقبل. رغبت في إرسالك للعلاج النفسي، لكن أمك خشيت أن تكشفي ما نخفيه خلال جلسات العلاج. لطالما أرادت أن تخبرك الحقيقة التي بذلت جهدي كي أخفيها عنكِ. لم أرِد أبدًا أن تشعري بالذنب الذي أحمله.

بما أنك لا تذكرين سوى أقل القليل عن فترة إقامتنا في بانبيري هول، ولا شيء تقريبا عن ليلة رحيلنا، قررت أنا وأمك أن أفضل ما نفعل أن ندعك تنسين. اخترنا أن نلزم الصمت ونراقب مزاجكِ وتفكيرك، ونحاول تربيتك بأفضل ما يمكننا.

أعرف أن حياتك كانت صعبة يا ماجز، وأعرف أننا لم نجب عن أسئلتكِ بصراحة. كل ما أردنا هو وقايتك من الحقيقة حتى ونحن نعرف أن الأكاذيب التي اختلقناها بدلًا عنها لها جوانبها التدميرية. أعرف أن الكتاب آذاكِ، وأننا آذيناكِ أيضًا.

كان في وسعنا أن نجد حلًا أفضل. بل كان علينا أن نجد حلًا أفضل. كل مرة سألتِنا فيها عن الحقيقة كانت تذكِرة لنا بالذنب الذي نحمله.

أعتقد أن لدي سببًا آخر لكتابة هذا الخطاب يا ماجي، وهو التخلص من الحمل الذي أنهكني لربع قرن تقريبًا. اعتبري الخطاب اعترافًا.

الساعة الآن الخامسة صباحًا، وستشرق الشمس قريبًا. قضيتُ الليل كله أكتب لك في مكتبي في بانبيري هول. ربما تكونين قد عرفتِ الآن فقط أننا لم نبع المنزل، وربما لا. لكننا لن نفكر أبدًا في بيعه ونحن نعرف ما تحت أرضيته. بيعه مخاطرة كبرى.

يعيدني الشعور بالذنب إلى هنا كل عام في ذكرى ما حدث. آتي لأقدم وافر احترامي لبترا، ولأعتذر لها عما فعلناه بها، على أمل أنني لو فعلت هذا ربما تسامحنا.

في كل مرة أكون فيها هنا أسأل نفسي السؤال ذاته: هل اتخذت القرار الصائب تلك الليلة؟

نعم، لو أخذنا في الاعتبار أنكِ كبرتِ وصرتِ شابة ذكية ذات عزيمة.

هل سيحاسبني الرب على ما فعلت في الحياة الأخرى؟

- نعم. حقًا أومن بهذا.
- أعتقد أنني سأتأكد قريبًا.

كل ما أعرف يقينًا أنكِ لطالما كنت إلجازي الأعظم الذي أنفر به. أحبَبتك قبل أن نضع في بانبيري هول قدمًا، وأحببتك بالقدر نفسه بعدما غادرناه.

أنتِ حب حياتي يا ماجي.

لطالما كنت، وستظلين كذلك.

الخامس والعشرون

قراءة رسالة أبي كالعبور من خلال آلاف المصايد، واحدة تلو الأخرى. لا أستطيع أن أبعد شعوري أن لا مجال للإفلات.

- أنتِ تكذبين.

صوتي مكتوم كأنني أتحدث من تحت الماء.

- أنت تكذبين عليَّ.

تقترب أمي مني وتقول:

- لا أكذب يا حلوتي. هذا ما حدث.

تلف ذراعيها حولي. أشعر بها كمجسات، باردة، غريبة. أحاول دفعها عني. لكنها ترفض إفلاتي. أتملص من عناقها فأسقط من فوق مقعدي ويداي تقبضان بعد على الأوراق التي كتبها أبي. أرتطم بالأرض فتتناثر الأوراق حولي.

أقول:

- هذا كذب. كلها أكاذيب.

حتى وأنا أكررها، أعرف في قلبي أنها ليست كذلك. لن يختلق أبي شيئاً كهذا، ولا أمي. لا سبب يدفعهما لذلك. هذا يعني أن ما قرأت حقيقي.

أريد أن أصرخ.

أريد أن أتقيأ.

أريد أن أمسك أقرب شيء حادٍ وأمزق شراييني.

أقول وقد أصابني الفواق من الكرب:

- كان عليكما أن تبلغا الشرطة. ما كان لكما أن تغطيا ما فعلت.

- لقد فعلنا ما ظننّاه في مصلحتك.

- فتاة قُتلت يا أمي! كانت مجرد طفلة!

- وأنت أيضًا كنت طفلة! *طفلتنا*! لو اتصلنا بالشرطة لفسدت حياتك.

- لاستحققت هذا.

- لا!

تنضم إليّ أمي على الأرض، تزحف نحوي ببطء وحذر كأنني حيوان حبيس.

- أنتِ عطوفٌ وجميلة وذكية. لقد عرف أبوكِ أنك ستصيرين هكذا. لطالما عرفنا هذا. رفضنا تدمير حياتك لأجل خطأ واحد.

- لقد قتلت!

النطق بالعبارة أطلق فيض مشاعر كنت أحاول كبحها. تسيل مني الآن في دموع، ومخاط، ولعاب يقطر من فمي وأنا أعوِل. تقول أمي:

- لم تقصدي هذا. أنا واثقة.

أنظر إليها من خلف عينين غائمتين بالدموع وأقول:

- يجب أن نعلن الحقيقة.

- لا يا ماجي. كل ما يجب أن نفعل هو حزم أمتعتك والرحيل. سنبيع هذا المكان ولن نعود ثانية. هذه المرة للأبد.

أحدق إليها مشدوهة. لا أصدق أنها ترفض بعد اتخاذ القرار الصحيح. بعد كل هذه السنوات وكل تلك الأكاذيب ترغب في التظاهر بأن شيئًا لم يحدث. لقد حاولوا مرة، وكادت تدمرنا.

انكسر شيء بداخلي. ودُهِشت إذ كنت أظن أن لا شيء في سليم لينكسر. لكن قلبي موجود وكان ينتظر أمي لتفطره. أشعر به يتهشم ويرتج، فيموج صدري.

أقول لها:

- اخرجي من هنا.

- ماجي، اسمعيني..

تمد أمي ذراعها نحوي، فأتراجع. عندما تكرر المحاولة مرة أخرى، ألطم خدها.

أصرخ فيها هذه المرة:

- اخرجي!

صدى صوتي يُرجف جدار الأجراس. أصرخ حتى يحمر وجهي ويصهد.

- اخرجي! اخرجي من منزلي اللعين!

تظل أمي متجمدة على الأرض. يدها على

خدها، تتلألأ الدموع في عينيها لتخبرني أن قلبها قد انفطر مثلي.

جيد.

نحن الآن متعادلتان.

تقول لي:

- أنتِ كنت تريدين تدمير حياتك فلا أستطيع أن أمنعك، لكني أرفض أن أشاهدك وأنت تفعلين. لم يكن أبوك الوحيد الذي أحبك بلا شروط، أشعر بما شعر حيال كل التفاصيل.

تقف، وتهندم سروالها، ثم تغادر المطبخ.

لا أتحرك حتى يصل إليّ صوت الباب الأمامي إذ ينغلق. وقتها، أقرر ما سأفعل.

سأنتظر.

لا بد أن رئيسة الشرطة تستجوب دين بشأن ليلة موت بترا، على عكسي، ستظن أنه لا يخفي شيئاً وأن ثمة مزيداً في هذه القصة. ثم ستأتيني مسلحة بالأسئلة.

وسأجيب عن كل سؤال منها.

برحيل أمي، أقف ثم أصعد درَج المطبخ بصعوبة بالغة. الصدمة أثقلت ساقيّ وأحالت جسدي عجيناً. الوضع لا يتحسن. تبدو الغرفة الكبرى كأنما تدور مع كل خطوة. الحوائط تتمايل للأمام والخلف كأن ريحاً تؤرجحها. تحت قدمي تميد

الأرض. أتعثر رغم أن الأرض لا تميد حقًا، والحوائط لا تتأرجح.

أنا الذي أتغير تغييرًا داخليًا، كل شيء أعرفه عن نفسي يتبدل فجأة.

جئت بحثًا عن الحقيقة، وها قد عثرت عليها.

أنا قاتلة.

حقيقة لا بدَّ من إعتيادها، لأنَّ إدراك الأمر الآن ثقيل ولا أتحمّله. ينتهي بي الوضع وأنا أزحف صاعدة إلى الطابق الثاني. ما زلت أشعر بدوار، فأتخبط في الحوائط على طول الممر إلى غرفة نومي.

بالداخل، ألقي بنفسي إلى الفراش، منهكة إلى حدّ أنني لا أقوى على الحركة. أريد أن أنام لفترة طويلة، ربما لأيام وأيام.

ربما للأبد.

قبل أن أغلق عينيَّ، أنظر إلى الخزانة أمام الفراش. يخطر لي كيف أنني منذ ساعات كنت أخطط لتفكيكها. رغم ذلك، ها هي تنتصب، وصوت غريب يخرج منها.

قطع سماعه دواري، فجلست متوترة.

ينفتح بابا الخزانة ببطء، كاشفين عمن يقف بالداخل.

أريد أن أصدق أنني أحلم، وأن كل ما يحدث

ليس إلا كابوس سأستيقظ منه أي لحظة.

إلا أنه ليس كابوسًا.

هذا واقع، ولا شيء في وسعي لإيقافه.

ينفتح بابا الخزانة أكثر وتكشف مزيدًا عمن يقف وسط الظلام.

السيد ظِل.

إنه حقيقي.

أعرف هذا الآن.

لطالما كان حقيقيًا.

عندما يخرج من بداخل الخزانة أخيرًا، أدرك أنني مخطئة. هذا ليس السيد ظِل الذي يخطو نحوي.

إنها السيدة وجه القِرشَين.

تخطو خطوة أخرى، فتسقط العملتان عن عينيها، إلا أن ليس للعملتين وجود، ولم يكن لهما وجود قط. ضوء القمر القادم من النافذة المجاورة ينعكس على عدستي نظارة.

والآن أرى السيدة وجه القِرشَين على حقيقتها.

مارتا كارفر.

تقول:

- مرحبًا يا ماجي. مر وقت طويل منذ تقابلنا بهذه الطريقة.

السّادس والعشرون

تتوقف مارتا عند طرف الفراش، تحوِّم فوقي، يقيدني الشعور أنني رأيت هذا من قبل.

لا.

الأمر أكبر من هذا.

هذه ذكرى.

هي، تقفُ على هذا النحو، لكن كلتانا أصغر سنًا. أصغر بخمسة وعشرين عامًا. أنا في الخامسة أرتجف تحت أغطيتي، أتظاهر بأنني نائمة، لكني أراقبها من خلف عيني نصف المغلقتين.

أراقبها وهي تراقبني، وضوء القمر ينعكس على نظارتها.

الأسوأ أن هذا حدث مرارًا. تستمر الذكريات، تتراكم واحدة فوق الأخرى كشرائح عرض فيلم رعب، تعرض صورها خلف جفني.

تزورني السيدة وجه القِرشَين في الليل مرة أخرى.

وأخرى.

وأخرى.

ترى مارتا الفهم في عينيّ فتقول:

- عندما كانت كيتي حية، كنت أدخل غرفتها كل ليلة تقريبًا فقط لأشاهدها وهي نائمة. أحببتها للغاية يا ماجي. أحببتها بقوة. لم أدرك مدى عظم

حب الأم حتى أصبحت أمًا. وقتها عرفت أن حب الأم عاتٍ.

تبتسم لي ابتسامة أمومية قبل أن تقترب أكثر من الفراش وتضيف:

- ثم أخذ مني زوجي كل شيء.. في البداية كبتي، ثم نفسه، ثم لم أعد أعرف ما أفعله بكل هذا الحب العاتي. بعدها جاءت عائلتك. قالت لي جيني جون: «لديهما فتاة صغيرة، فتاة جميلة صغيرة.» عندما سمعت ذلك، عرفت أنني سأذهب لأرى بنفسي.

تومئ برأسها تجاه الخزانة التي لم تكن فقط مخبأها، بل مدخلها السري من وإلى بانبيري هول. لقد عاشت هنا فترة كافية لتعرف بوجوده، لكن عائلتي لم تفعل.

- عدت إلى هنا ليلة بعد ليلة. ليس لإيذائك، لم أنوِ قط أن أتسبب لك في أي ضرر يا ماجي. فقط رغبت في مشاهدتك وأنتِ نائمة كما كنت أفعل مع ابنتي بالضبط. جعلني هذا أشعر -ولو لدقائق- أنها لم ترحل. أحتاج إلى أن تفهمي يا ماجي أنني لم أرغب قط في إيذاء أي شخص.

تلطمني ذكرى أخرى. مارتا تقف إلى جواري، تراقبني. لكننا لم نكن وحدنا هذه المرة. أسمع أحد بالخارج يتسلل على أطراف أصابعه ليطمئن عليّ.

بِترا.

تصرخ عندما ترى مارتا التي تهرع نحوها وهي تصيح:

- ليس الأمر كما ظننتِ.

تنطلق بِترا نحو الفراش، تحاول الوصول إليّ. تلحقها مارتا وتقبض على ذراعها. تصرخ بِترا:

- ماذا تفعلين هنا؟

- دعيني أفسر لك.

- فسري للشرطة.

تتملص بِترا من قبضة مارتا وتهرع خارجة من الحجرة، متجهة إلى الدرج حيث الهاتف. تتبعها مارتا. أسمع صوت جري وخطوات وهمهمة، ثم ضربة قوية إذ تتصارعان. تمسك مارتا بكتفي بِترا، تهزها بينما تقول:

- دعيني أفسر لكِ. رجاء دعيني أفسر.

أهرع إليهما خائفة، أصرخ وأتوسل كي يتوقفا عن الشجار. أجذب ذراع مارتا اليمنى، فتتملص مني وتدفعني، فيصيب خاتمها خدي بجرح بطول بوصة، سرعان ما راح ينزف.

أسمع صرخة أخرى، وأرى بِترا تتعثر إلى الخلف وتسقط من فوق الدرج.

تنتهي الذكرى، وأهوي إلى فراشي غير قادرة على الجلوس. يتمايل بي الفراش كقارب تحت رحمة

الأمواج. عندما تجلس مارتا على حافة الفراش، يميل في زاوية غير معقولة في العالم الواقعي.

أئن وأقول:

- أنتِ قتلتِ بترا.

- لم أقصد يا ماجي. كان هذا حادثًا غير مقصود. حادثًا مريعًا.

تضم يدي بين يديها وتردف:

- بعده لم أعد أعرف ماذا أفعل. لذا هربت وأنا أعرف أن الشرطة ستلاحقني قريبًا. المسألة مسألة وقت. قضيتُ تلك الليلة في انتظارها، أشعر بالذعر ذاته الذي شعرت به يوم عثرت على جثة زوجي في مكتبه. لكن شيئًا غريبًا حدث. لم تأتِ الشرطة. وعرفت أن عائلتك لم تبلغ.

تلمس جبهتي المبللة بالعرق. كُلّي مبلل بالعرق. أشعر بتقلص معدتي الشديد حتى أشهق ألمًا. تقول مارتا:

- لقد تذوقتِ الفطيرة. جيد. سيسهل هذا الأمر.

أحاول الصراخ، فلا يخرج مني شيء إلا تأوهات مكتومة.

- اصمتي الآن. لا شيء يستحق الصراخ. مجرد فطيرة محشوة بتوت البانبيري.

أقبض على معدتي وأنقلب إلى جنبي، فتنقلب

معي الغرفة. تظل مارتا إلى جواري، تُدلك ظهري بطريقة أمومية.

- لم أفهم قَط سبب إخفاء والديك جثة بِترا. حتى بعد صدور الكتّاب، ظللت أتساءل عما وراء قرارهما. احتجت إلى وقت طويل حتى فهمت أنهما ظنا أنك القاتلة يا ماجي.

تستمر يدها في تدليك ظهري، أتساءل إن كانت قد اعتادت فعل هذا مع كيتي عندما مرضت.

- أعترف أنني قد ارتحت. ليساعدني لرب، حقًا ارتحت. كنت أشعر بالذنب لما حدث. تلك الفتاة المسكينة. لم تستحق هذا المصير. مرّ بي وقت فكرت فيه في الاعتراف. أن أسير إلى تيس ألكوت وأخبرها الحقيقة. لم أفعل ذلك، فلن يصدق أحد أنني لم أقصد. لم يرَ أحد فعلتي كما هي. لكن إن أردتِ الحقيقة، ألم أعاقَب كفاية؟

تصمت مارتا كأنها تنتظر أن أوافقها.

لا أقول شيئًا.

- عشتُ الخمسة وعشرين عامًا الغريبة السابقة مطمئنة إلى أنني آمنة، وإلى أن الرب قد قرر أنني عانيتُ بما يكفي لحياة واحدة. ثم عدتِ. وعثِر على بِترا، وعرفت أن الوقت سيمضي سريعًا حتى تنكشف الحقيقة.

تتوقف يد مارتا عند نهاية ظهري. أتوتر تحت لمستها خشية مما سيحدث.

- لا يُمكن أن أدعِ هذا يحدث يا ماجي. لقد عانيت، أكثر من أغلب الناس. فقدت ابنتي وزوجي في اليوم نفسه. قليل من قد يعرف هذا النوع من الألم. لكني عرفته. عرفته جيدًا. سامحيني، لكني لن أتعذب أكثر.

تقلبني على ظهري في حركة واحدة مفاجئة. أنا أضعف من أن أقاوِم. أنا مجرد دمية قماشية بين يديها. تتوقف الغرفة عن الميل للحظة، أدرك فيها أنها تحتضن وسادة.

تضغط مارتا الوسادة إلى وجهي. ظلام مفاجئ. أنفاسي المتهدجة بالفعل توشك على التوقف. أشهق طلبًا للهواء فأشفط كيس الوسادة بدلًا عنه، يكاد يخنقني.

تضغط بوزنها فوقي فتزيد ضغط الوسادة. أحاولت التملص من تحتها، أضرب بساقيَّ، لكني لم يتبق لدي طاقة تكفي الحركة. التوت المسموم سرقها مني. كل ما أستطيع فعله محاولة الميل مرة أخرى إلى جانبي.

تفلح المحاولة.

يختل توازن مارتا فتسقط عني.

وأسقط أنا أيضًا عن الفراش، إلى الأرض.

أشهق مزيدًا من الهواء المُبارك، ويدفع الأدرينالين في عروقي فيمنحني القوة لأجر نفسي عبر الغرفة.

أصل إلى الباب، تقبض مارتا على كاحلي وتجذبني إلى الخلف نحو الفراش.

أصرخ، وأركل بساقي الحرّة في جنون ركلات بائسة. تضرب قدمي وجه مارتا فتصرخ أيضًا. يتردد صوت صرختها بين الجدران بينما أكمل زحفي المستميت عبر الممر.

تلحقني مارتا حتى أصل إلى قمة الدّرج. تقبض على كاحلي مرة أخرى، وأتوقع أن تجذبني إلى الغرفة. بدلًا عن ذلك ترفعها ساقي وتقلبني.

للحظة ينقلب المنزل رأسًا على عقب.

ثم أجد نفسي على الدّرج أنقلب بعد.

الآن أتدحرج.

الآن أرتد عن الدرجات.

حوافها تضرب ظهري. رأسي يرتطم بالجوانب. تنفتح عينيّ لأرى أعمدة الدرابزين تتلاحق أمام نظري.

في النهاية، أنا ممددة أسفل الدّرج على ظهري، فوقي على ارتفاع كبير مارتا، تقف عند قمة الدرج، تميل قليلًا إلى الأمام لتتبين إن كنت قد مت.

لم أمُت.

لكني أعتقد بالفعل أنني أموت.

يتجسد ضوء أبيض باهر عند رأس الدّرج،

تعميني شدّته، فأجفل وأزم عينيّ. أرى من بين جفني مَن يقف داخل الضوء، شابة خلف كتف مارتا.

تشبه بِترا ديمتر.

ما زالت في السادسة عشر، جميلة، تبتسم ابتسامة رضا تام.

لم يستمر الضوء أكثر من طرفة عين، فلا أتمكن من الجزم إن كان من بداخله بِترا أو مجرد خدعة من عقلي المسموم.

كل ما أعرف أنه قبل خفوت الضوء مباشرة، تُدفع مارتا كارڤر إلى الأمام، تسقط على الدَّرج، تتهشم عظامها كالأغصان. أسمع صوت تهشم أخير عندما تهبط إذ يُدَق عنقها. أشعر به في عظامي.

يسكن جسدها عند قدميّ، رأسها مرفوع كدمية مكسورة.

هكذا أعرف أنها ماتت.

ولم أُمت أنا.

وأن كل شيء انتهى أخيرًا.

أخيرًا أرى مَن يقف عند رأس الدَّرج.

الشخص الذي دفع مارتا كارڤر.

ليست بِترا كما ظننت.

- بل أمها.

تحدق إليّ إلسا ديمتر بعينين واعيتين جامحتين.

يبدو أنها تعي جيدًا مكانها، وما فعلت، وما حدث لابنتها بعد خمسة وعشرين عامًا طويلة من الجهل.

خاتمة

فيرمونت فاتنة في أكتوبر. لا شيء سوى السماوات اللازوردية، وأوراق الشجر البرتقالية النارية، ورائحة حرائق الغابات في الجو. في الصباح أفضّل شرب القهوة في شرفة بانبيري هول الأمامية، والاستمتاع بكل هذا.

هذا هو أول خريف لي في فيرمونت، وغالبًا سيكون الأخير.

لا يوجد ما أفعل في المنزل. بمساعدة آلِي الدورية، أقضي الصيف وأغلب الخريف في تجديد المكان. خطتي القديمة أُجهِضت، وبدلًا عن إضفاء الطابع الفيكتوري على التجديدات، اخترت الطراز الحديث البسيط. حجرات مفتوحة، وأرضيات فاتحة اللون، وطلاء كل شيء بالأبيض. بدا لي هذا أفضل خيار. لا يستحق المنزل أن تُحفظ قصصه الرهيبة.

لا أعرف كم سأحصل مقابل عرض بانبيري هول للبيع. لقد عاد المنزل إلى صدارة الأخبار مرة أخرى، وهو ليس أمرًا جيدًا دائمًا في عالم العقارات.

رغم أنني نشرت في كل الصحف أن الكتاب كان كذبة لتغطية ما ظن والدي أنني ارتكبت، ظلت الشائعات تحوِم حول بانبيري هول وتحاول تأكيد أنه مسكون. استمر الناس أيضا في الاعتقاد

بأن أبي كان على صواب عندما قال إن كُرِس كارفر لم يقتل ابنته قبل أن يقتل نفسه. في الواقع ثمة شك متزايد أن مارتا نفسها هي الفاعل رغم أن كل الأدلة تشير إلى العكس.

جذب هذا كله الغيلان الذين عادوا لتلصصهم وتطفلهم. زاد الأمر عن حده حتى قررت رئيسة الشرطة ألكوت أن توقف سيارة شرطة لحراسة البوابة الأمامية. أحضر لهم كل صباح القهوة.

لكن لم أعد أشعر بالتهديد هنا. ساعدني إصلاح فجوة السور في هذا، رغم أن آل ديمتر ومارتا فقط من كانوا يستخدمونها للتسلل. أغلقت أيضًا الباب السري الخلفي بالطوب، وركّبت نظام مراقبة منزلي رسمي. لا مزيد من الأوراق بين الأبواب وحلوقها، وبين مصاريع النوافذ.

أمَّا الخزانة العتيقة، فدمرتها في سعادة بالمطرقة، مستمتعة برؤية كل شظية خشب تتطاير منها مع كل ضربة. على ذلك، لم أعد أنام في تلك الغرفة، وانتقلت إلى غرفة نوم أبوي القديمة.

اتضح لي أن مارتا كارفر لم تكن الوحيدة التي كانت تتسلل عبر الخزانة لزيارتي ليلًا. إلسا ديمتر أيضًا كانت تفعل. اعترفت لرئيسة الشرطة وهي في حالة وعي جزئي أنها تتذكر أوقاتًا كانت تتسلل فيها إلى غرفة نومي، ربما مرتين خلال طفولتي.

كنت أعرفها على أنها شخص آخر.

السيد ظِل.

لم يكن ثمة شبح، بل امرأة تؤمن بالخرافات وتعرف تاريخ بانبيري هول جيداً، وتزورني في الليل لتهمس لي محذرة مما كاد يتحقق بالفعل.

ستموتين هنا.

رحلت الآن إلسا وابنتها. حالة ألزهايمر تدهورت ولم تعد هانا قادرة على مراعاتها وحدها، فألحقتها بدار رعاية قرب مانشستر. رحلت هانا معها، وانتقلت إلى شقة صغيرة كي تكون قريبة منها.

قبل أن ترحلا، اعتذرت أمي لهانا التي ظلت تدخن بلا انقطاع بينما تسمع. عندما انتهت أمي، قالت هانا ببساطة:

- لقد تسببتِ لعائلتي في خمسة وعشرين عاماً من الألم. لن يعوضنا أي اعتذار عنها.

هذه المرة الأخيرة التي رأيتها فيها، لكني لاحظت خلال الأيام التي سبقت رحيلها اختفاء مزيد من الأغراض من بانبيري هول، منها باستر دب بِترا. انتهى أمر ما سواه إلى بيعه في مزادها عبر الإنترنت. بفضل الاهتمام مرة أخرى ببانبيري هول والكتاب، بيعت أغلب الأغراض بثمن يفوق سعرها الأصلي خمس مرات.

رحل دين أيضاً.

عرّجت على كوخه بعد فترة قصيرة من خروجنا من المستشفى. أشهد له أنه سمع ما أردت قوله

حتى النهاية، وتركني أضيع عشر دقائق كاملة واقفة عند عتبة داره أتمتم باعتذاراتي.

بعدما انتهيت لم يقل شيئًا. فقط استدار وأغلق الباب.

بعد أسبوع، رحل.

أتعجبُ من أنني الوحيدة التي مكثت هنا. أنا التي لم يفترض أن تعود إلى المنزل من الأساس. لكن أمورًا أخرى غير تجديد المنزل أبقتني. أردت أن أظل في بانبيري هول حتى تنتهي كل المسائل القانونية المعلّقة.

سيحدث هذا في الأسبوع المقبِل، عندما تُدلي أمي بشهادتها عن دورها في إخفاء موت بِترا ديمتر.

عرفت لاحقًا أن ما قالته لي في المطبخ لم يكن صحيحًا. في وسعها بالفعل منعي عن تدمير حياتي عن طريق الاعتراف بقتل بِترا ديمتر، وهو ما فعلته بعد تركي وحدي في بانبيري هول. بينما مارتا كارفر تدلك ظهري وتخبرني أنها قتلت بِترا دون قصد، كانت أمي تتحدث مع رئيسة الشرطة ألكوت.

بعدما سمعت قصة أمي، ذهبت رئيسة الشرطة إلى بانبيري هول لاستدعائي للتحقيق، لكنها وجدت إلسا ديمتر مرة أخرى في نوبة شرود بسبب ألزهايمر تقف في قاعة الاستقبال، وأنا

ومارتا ممددتان أسفل الدَّرج.

وكانت مارتا ميتة.

وأنا في طريقي للحاق بها.

بعد إجراء غسيل لمعدتي، وتعويض السوائل التي فقدتها، وتضميد رسغي الملتوي، أخبرت رئيسة الشرطة ألكوت بكل شيء، حتى رؤيتي لإلسا عند قمة الدَّرج وظني أنها بترا ديمتر، رغم أن الجميع اتفقوا على أنني كنت أهلوس.

أتمنى أنها لم تكن هلوسة.

يطيب لي الظن أنها رُوح بِترا، وقد ساعدت أمها لتنقذ حياتي.

بعدما انتهت رئيسة الشرطة من استجواب الجميع، جاء وقت اعتراف أمي الرسمي. في يوليو، أدينت بجريمة إخفاء جثة، والأمر الآن في يد القاضي ليقرر عقابها. من المرجَّح أن يحكم عليها بالسجن لثلاث سنوات، لكن محاميها يظنون أن في إمكانهم إعفاءها من قضاء عقوبتها في السجن.

كلما سألت أمي إن كانت تخشى السجن، قالت لي كما فعلت أمس عبر الهاتف:

- حتى لو كنّا مقتنعين أن ما فعلناه صواب، فهو خطأ. سأقبل بالسجن أي فترة يقرها القاضي. كل ما يهمني أن تسامحيني.

أنا أسامحها.

سامحتها لحظة سمعت اعترافها بما ظنناه جريمتي. لم أكن لأتركها، لو استلزم الأمر من يعترف أنه قاتل بِترا لاعترفت فورا، لكن حقيقة أن أمي كادت تضحي بنفسها على هذا النحو أوضحت لي كم كنت مخطئة بشأنها. لم تكن وحشا. ولم يكن أبي كذلك. لقد كانا شخصين ألقيا إلى جحيم موقف رهيب، أرجفهما رعبًا على ما قد يحدث لابنتهما.

- لا يبرر هذا ما فعلاه، لكنه يفسره.

كل شيء فعلاه كان لصالحي كما ظننا، وما زلت أفكر في كيفية الحفاظ على ما أراداه لي.

صارت علاقتي بأمي على أفضل شكل ممكن. للسخرية، كانت دائمًا تمزح وتقول إنه لن يصلح حال علاقتنا إلا حكم بالسجن.

ضاعت سنوات طوال في الكذب، ولا يسعنا الآن إلا التعويض عن الوقت المفقود. كنت أتمنى فقط لو أن في استطاعتي فعل الشيء نفسه مع أبي، لكني أتمنى أن يعرف -أينما هو الآن- أني سامحته.

زارت أمي وكارل بانبيري هول كثيرًا خلال تلك الأشهر لأسباب تتعلق بقضيتها. رغم أنها الآن لا تمانع في قضاء فترة ما بعد الظهيرة في المنزل، لكنها بعد ترفض المبيت فيه. تحجز هي وكارل غرفة في نُزُل «توبايز» لهذا الغرض، لكنه -من وجهة نظري- مكان أسوأ من السجن.

عندما لا يكونان في المنزل، أقضي الليالي أجوِّل في بانيبري هول، أفكر في كل ما حدث بين هذه الجدران. أحيانًا أجلس منتظرة ظهور بِترا. على خلاف الجميع، لا أظنني رأيتها بسبب هلوسة التسمم بالتوت، بل رأيتها حقًا.

أومن أنها حقيقية، وأتمنى رؤيتها ولو مرة واحدة قبل رحيلي.

أتمنى لو أعرِب لها عن أسفي، لو أشكرها على إنقاذي.

ربما تعرف بالفعل ما أريد قوله. ربما وجدت أخيرًا السلام.

أنا الآن في غرفة المكتب، في الطابق الثالث، أقف أمام مكتب أبي، ليس فوقه الآن إلا آلة الكتابة التي استخدمها. أقضي ليالي عدة أمامها، تتلمس أصابعي مفاتيحها، أفكر هل أقرع بعضها أم لا.

الليلة أقرر أنَّ الوقت قد حان. عدم وجود أثر لقصة بانيبري هول في تصميمي الجديد للمنزل لا يعني أنني لن أحكيها. الحقيقة أن الناشر ذاته الذي نشر الكتاب منذ أعوام طويلة مضت، تواصل معي بالفعل لكتابة جزء آخر منه.

في البداية رفضت رغم العرض الباهر الذي قدمه. أنا مصممة لا كاتبة. لكني الآن أفكر في قبول العرض، لا لأجل المال الذي قد يبث

الروح في عملي أنا وآلي لسنوات قادمة. أريد أن أفعل هذا لأن أبي كان ليريدني أن أفعله.

أنا، قبل كل شيء، ابنته.

لذا، أجلس الليلة أمام آلة الكتابة التي اقتناها، وأنقر على المفاتيح، أكتب ما قد يكون أو لا يكون أول جملة فيما قد يكون أو لا يكون الإصدار الجديد لـ«الكتاب».

لكل بيت قصة يرويها، وسِر يُديعه.

بيت الأسرار

القصة الحقيقية

ماجي هولت

ماري هيملتون

نيويورك

(1) Chronicles of Narnia، سلسلة روايات خيالية من تأليف كليف ستابلز لويس، ويذكر فيها رحلات مجموعة أطفال إلى أرض نارنيا الغرائبية عبر خزانة عتيقة. (المترجمة)

(2) Amityville Horror تأليف جاي أنسون عام 1977 ويحكي قصة مقتل عائلة عل يد الأب بسبب ظواهر غريبة حدثت في المنزل ودفعته للجريمة. (المترجمة)

(3) ملحوظة المُحَرِّرة: اسم النبات بالإنجليزية Baneberry، الجزء الأول bane، بمعنى مُهلك، والجزء الآخر berry بمعنى التوت، أي التوت المهلك أو المؤذي.

(4) Indigo إنديجو هو اللون النيلي بالإنجليزية، وهنا يكمن التشابه بين اللون والاسم. (المترجمة)

(5) كلب مسعور في رواية «كوجو» لستيفن كينج. (المترجمة)

(6) الفأرة صديقة ميكي ماوس الشهير (المترجمة)